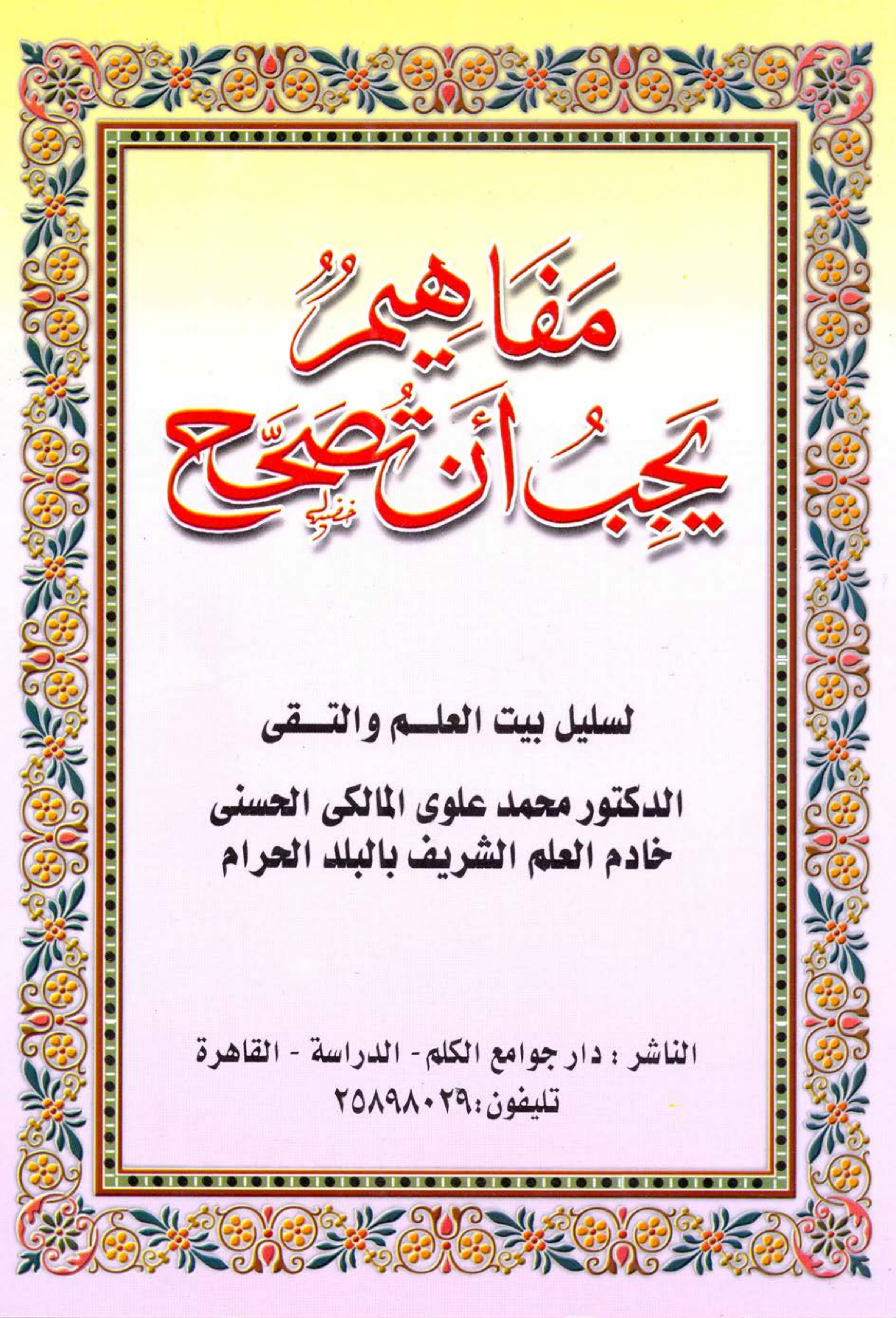
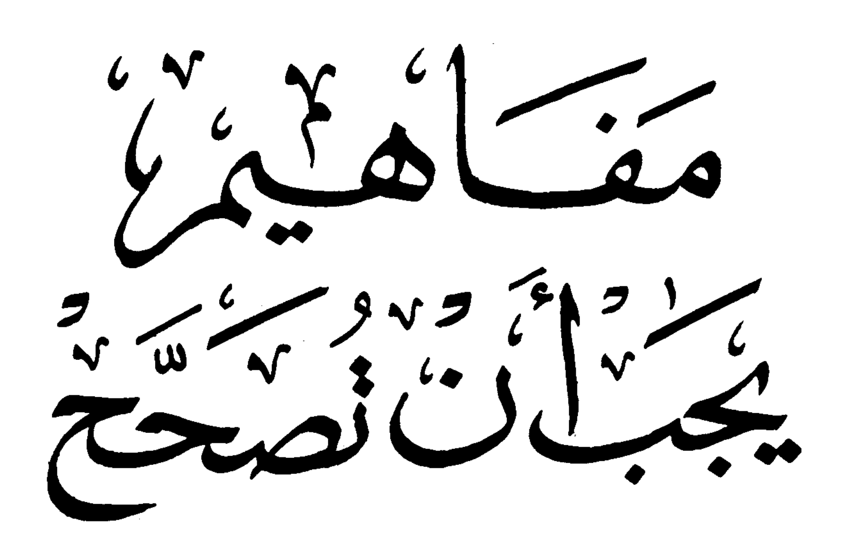

مفاهيم
يجب أن تصحح
لسليل بيت العلم والتقى
الدكتور محمد علوى المالكى الحسنى
خادم العلم الشريف بالبلد الحرام
الناشر : دار جوامع الكلم - الدراسة - القاهرة
تليفون: ٢٥٨٩٨٠٢٩



تأليـــف

محمـد بن علوى المالكـى

الناشـــر

دار جوامع الكلـــم

١٧ ش الشيخ صالح الجعفـرى ـ الدراسة

القاهــــرة

بســم الله الــرحمــن الــرحيــم

الحمـد لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم اجمعين .

فى بلد الله الحرام مكة المكرمة وفى حرم بيت الله الحرام التقيت مع فضيلة الامام الداعية الشيخ محمد بن علوى المالكى صلة لرحم الصداقة والمودة والعلم مع والدى الشيخ صالح الجعفرى إمام الجامع الأزهــر وفى جلسة امتعنا فيها من غزير علمه وحسن بيانه وقوة حجته فأستـاذنتـه فى طبـاعـة كتابه (مفاهيم يجب أن تصحح) لما فى الكتاب من عظيم الفائدة خاصة فى الرد على المنكرين والجاحدين بما وهبه الله من علم اوقفه للدعوة لله والزود عن نبيه وأهل بيته والأولياء والصالحين والعلمـاء العاملين بدعوة كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما فتح الله به عليه من صدق الكلمة واصالة الحجة ومنطق الحق ـ فوافق الشيخ مشكورا على طباعته مدداً لرسالته ودعوته وإنـه لشـرف عظيم ان تحـظى ـ دار جوامع الكلم ـ بموافقة الشيخ وتكريمه لها بطباعة هذه الحجة البالغة النادرة .

والدعاء إلى الله عز وجل أن يُديم على الشيخ الداعية ثوب الصحة ويكرمه بالتوفيق والنصر والتأييد إن شاء الله تعالى .

عبد الغنى صالح الجعفرى
صاحب دار جوامع الكلم
للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة
١٧ شارع الشيـخ صالح الجعفرى
ـ الدراسة ـ القاهرة

﴿ بســـم آلله آلرحمن آلرحيـــم ﴾

تمهيْــــــدٌ

الحمـد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعـــــد . . .

فإن الله سبحـانه وتعالى أنعم علينا بنعم كثيرة ، أجلها وأعظمها نعمة الإسلام ، أكرم بها من نعمة ، ومنها نعمة الأمن التى نتمتع فيها بالأمان والسكينة والاطمئنان فى ربوع هذه البلاد ، ومنها نعمة تطبيق الشريعة الإسلامية بإقامة الحدود والتحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله محمد بن عبد الله ﷺ ، وذلك بفضل الله ثم بفضل الحكام الذين جعلهم الله حماة لهذه البلاد بلاد الحرمين الشريفين ، والذين وفقهم الله لخـدمـة هذين الحرمين وشرفهم بالقيام بأمانة الحراسة والرعاية والحفظ لهما فبذلوا جهدهم فى سبيل ذلك .

ووجـدوا بحمد الله العون فى أبناء هذا الشعب المخلص الوفى الـذى أعـطى البيعـة بصـدق ، وحفظ العهد بحق ورعى الذمة فى الحضور والغيبة ، فنحن على ذلك العهد قائمون وبتلك الذمة موفون انطلاقا من إيماننا الصافى ، وعقيدتنا السلفية ومنهجنا النبوى ، لأن هذه البلاد بفضل الله طاهرة من كل رجس سالمة من كل شرك بإخبار رسول الله ﷺ إذ قــال :

« لا يجتمع دينان فى جزيرة العــرب » . .

وقــال :

« ان الشيطان قد أيس أن يعبد فى جزيرتكم » ـ جزيرة العرب . .

وقـــال :

« اللهم لا تجعل قبـرى وثنا يعبـــد » . .

(ودعـاؤه مســـــتجاب) . . وقال :

« أن أخوف ما أتخوف على أمتى الإشراك بالله . . أما أنى لست أقول يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً ، ولكن أعمالا لغير الله وشهوة خفية » . .

رواه ابن ماجه فى كتاب الزهـد .

خصوصا وقد أخبر أن هذه البلاد معقل الإيمان ومرجع أهله وملاذ حملتـه إذ قال : **« أن الإيمـان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها »** . . وفى رواية إن الإيمان ليأرز إلى الحجاز .

ولقد عمل أئمة هذه البلاد وحكامها منذ بداية عهدهم على ترسيخ هذه المعانى وتثبيت ذلك فى قلوب الناس ابتداء من جلالة المرحوم الملك عبـد العزيز الذى وحد الجزيرة وجمع الكلمة وأزال الفوارق العصبية وهدم الحواجز العنصرية فعاش الناس متحابين يجمعهم مبدأ واحد وتلم شعثهم راية واحدة ، راية لا إله إلا الله محمد رسول الله . عاشـوا على هذا المبدأ وإن اختلفت أراؤهم أو تنوعت مشاربهم . فالأصـل واحد والولاء واحد ، والعهد صادق ، والوفاء لازم ، ولكن بعض المتطفلين من الدخلاء والعملاء الأجانب يحبون أن يصيدوا فى الماء العكر فيشوهون الصورة ويشيعون الفتنة ويلبسون البرءآء الذين لا يعرفون النفاق ثوب السوء وارادة الشر وهم بهذا يفتحون بابا آخر نحن فى غنى عنـه ويوجهون الأنظار إلى ما هى غافلة عنه ، ولكن لا بأس ؛ فإن الثقة فى الله وحسن الظن فى حكامنا أهل العقل والنظر يبعث الطمأنينة فى النفوس بأن لا يأخذوا بأقوال الوشاة ودعاة الفتنة من الذين لا هم لهم إلا تفريق كلمة المسلمين .

خصوصاً واننا فى ظل هذه الدولة السنية التى تحمى العقيدة الصحيحة الصافية وتبذل جهدها لنشرها والدعوة إليها فى ظل دولة التوحيد التى تنصر العلم وحملته والدعاة إليه وتشجع على البحث العلمى النزيه النظيف فى أى مجال كان وعلى أى ميدان ومن أى جهة ، وتكرم فى سبيل ذلك أهله ، وتقدم لهم الجوائز السخية ، والأوسمة الرفيعة ، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين ، سعوديين أم غير سعوديين على حد سواء فى مجال الدعوة الإسلامية أو البحوث العلمية والتطبيقية لأن المقياس هو العلم والعلم وحده ، والبحث وحده ، وهى بهذا الموقف تعمل على صقل العقول ، وتنوير البصائر ، وتلاقى الأفكار المعبرة عن المفاهيم التى تجيش فى خواطر العلماء والباحثين وتفيض على قلوبهم ، وتتواجد فى نفوسهم ، فيجدون السبيل ميسرا للتعبير بالكلمة ، ولا شك أن هذا أقوى سبيل لإظهار الحق وإثباته لأن الوضوح والجلاء هو الأساس فى بناء المجتمع ، وتلاحم أبنائه ، ولا يتم هذا إلا بالتعبير عن المفاهيم التى يحس بها الإنسان ويراها بالنسبة لأى قضية إسلامية واجتماعية .

وهذه القاعدة هى من أجل الأصول التى ينبغى أن تتبع فى الدعوة إلى الإسلام ، لقد أعطى الإسلام الفرصة لأعدائه للنظر والتبصر فقال :

« وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله » .

وأعطى الفرصة لابداء أى اعتراض أو مفهوم أو برهان فى نفس المعارض المعاند فقال :

« قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » .

وطلب من المشركين أن ينظروا ويتفكروا فى أمر الدين تارة منفردين وتارة مجتمعين ، وذلك بعقد المجالس والندوات للتشاور فى حقيقة

الـدين وحقيقـة الـداعى محمـد ﷺ فقـال : **« قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنـــة »** .

بل وأعظم من هذا وذلك أنه أعطى الثقة للمعاند ليتقدم ويتكلم ويحس بنفسه وبموقعه وبأنه كائن حى له عقله فلابد أن يعقل وله فهمه فلابـد أن يفهم ، وبعد هذا التعقل والتفهم لابد أن نسمع منه ثمرة عقله وثمرة فهمه فقال تعالى : **« وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبيـــن »** .

.هكذا أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يقول للمشركين المبطلين الضـالين الـذين لا دين لهم صحيح ولا عقيدة معتبـرة عند الجدال والمناقشة ، إما أن أكون أنا على هدى أو أنتم ، وإما أن أكون أنا على ضلال أو أنتم .

ومن هذا المنطلق أقدم هذه المفاهيم عن بعض القضايا الإسلامية المختلف فيها بين العلماء والتى لا يستطيع أحد أن يقول إنه اتفقت أراء العلماء فيها على كلمة واحدة .

ولابـد من إظهارها ووضعها بين يدى العلماء والباحثين للدراسة والنظر ، فإن كانت صوابا فالحمد لله وذلك من توفيق الله وتسديده وإن كانت خطأ فإنـه منى وبـاجتهـادى . وذلك لبيان الحقيقة وتصحيح المفاهيم العامة وليس لنا من وراء ذلك إلا الإصلاح وتوخى الصواب لأننـا بشـر نصيب ونخـطىء وكل منا يؤخذ منه ويرد عليه إلا السيد المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى . وكل كتاب قابـل للزيادة والنقصـان والتغيير والتبـديل والإصـلاح والتهذيب إلا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ومن ادعى سوى ذلك فهو مفتر ممتر .

ونحن نعوذ بالله من أن نكون ممن يتعلم العلم للمماراة أو للمجادلة كما قال ﷺ : **(من طلب العلم ليمارى به السفهاء أو يكابر به العلماء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار)** .

رواه الترمــــذى .

وكتـابنا هذا كغيره من الكتب ، قابل للإصلاح والمراجعة ، وأنا بفضــل الله أعتـرف فى كل كتـاب أؤلفه بذلك ، وأقول فى آخر ما أكتب : إنى أسال الله التوفيق والسداد فيما كتبته فإن كان صوابا فمن الله ، وإن كان خطأ فمن نفسى واجتهادى . وأرجو ممن يطلع عليه أن يرشدنى وأن يدلنى على أخطائى .

والعلماء لا يزالون يراجع بعضهم بعضا فيما يكتبون ، فإذا حصل الإقناع والرضا لا يتوقف عن الأخذ به إلا مستكبر ، إلا إذا كان له فى ذلك تأويل أو وجهة نظر أو دليل أو شبهة دليل ، فإنه إن لم يلتمس له العذر فأقل ما فى الأمر أن يسكت عنه ، والحوار بين العلماء بصورة خاصة يتميز بالموضوعية وروح التفاهم والورع وتقوى الله عز وجل لأن رائدهم جميعاً التوعية والتوجيه والذود عن محارم الله عز وجل والأخذ بيد الناس لكل ما فيه الخير ، فهم ورثة الأنبياء . وإنى أسأل الله عز وجل أن يجنبنا مصادر الزلل وأن يهدينا سواء السبيل .

إنه ســميع مجيب وبالله التوفيــق . .

محمـد بن علوى المالكى الحســنى

منهج الكتاب

هذا وقد جعلنا هذا الكتاب على ثلاثة أبواب كالآتى :

الباب الأول :

مباحث فى العقيدة وفيها بيان فساد مقاييس التفكير والتضليل اليوم .

الباب الثانى :

مباحث نبوية . وفيها خصائص النبى ﷺ وحقيقة النبوة وحقيقة البشرية ومفهوم التبرك بالنبى ﷺ وآثاره .

الباب الثالث :

مباحث مختلفة وفيها بيان الحياة البرزخية ومشروعية الزيارة النبوية وما يتعلق بها من الآثار والمشاهد والمناسبات الدينية .

* * *

الباب الأول

مباحث فى العقيدة

وفيها بيان فساد مقاييس التكفير والتضليل اليوم

التحذير من المجازفة بالتكفير

يخطىء كثير من الناس ـــ أصلحهم الله ـــ فى فهم حقيقة الأسباب التى تخرج صاحبها عن دائرة الإسلام وتوجب عليه الحكم بالكفر ، فتراهم يسارعون إلى الحكم على المسلم بالكفر لمجرد المخالفة حتى لم يبق من المسلمين على وجه الأرض إلا القليل ، ونحن نتلمس لهؤلاء العذر تحسينا للظن ، ونقول لعل نيتهم حسنة من دافع واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكن فاتهم أن واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا بد فى أدائه من الحكمة والموعظة الحسنة وإذ اقتضى الأمر المجادلة يجب أن تكون بالتى هى أحسن كما قال تعالى : ﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾ .. وذلك أدعى إلى القبول وأقرب للحصـــــول على المأمول ومخالفته خطأ وحماقة .

فإذا دعوت مسلما يصلى ، ويؤدى فرائض الله ، ويجتنب محارمه وينشر دعوته ، ويشيد مساجده ، ويقيم معاهده ، إلى أمر تراه حقا ويراه هو على خلافك والرأى فيه بين العلماء مختلف قديما إقرارا وإنكارا فلم يطاوعك فى رأيك فرميته بالكفر لمجرد مخالفته لرأيك فقد قارفت عظيمة نكراء ، وأتيت أمراً إدّاً نهاك عنه الله ودعاك إلى الأخذ فيه بالحكمة والحسنى .

قال العلامة الإمام السيد أحمد مشهور الحداد : وقد انعقد الاجماع على منع تكفير أحد من أهل القبلة إلا بما فيه نفى الصانع القادر جل وعلا أو شرك جلى لا يحتمل التأويل أو إنكار النبوة أو إنكار ما علم من الدين بالضرورة أو إنكار متواتر أو مجمع عليه ضرورة من الدين .

والمعلوم من الدين ضرورة كالتوحيد والنبوات وختم الرسالة بمحمد صلى الله عليه وسلم والبعث فى اليوم الآخر والحساب والجزاء والجنة والنار يكفر جاحده ، ولا يعذر أحد من المسلمين بالجهل به إلا من كان حديث عهد فى الإسلام فإنه يعذر إلى أن يتعلمه فإنه لا يعذر بعده .

والمتواتر الخبر الذى يرويه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب عن جمع مثلهم اما من حيث الإسناد كحديث :

«من كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» ..

وإما من حيث الطبقة كتواتر القرآن فإنه تواتر على البسيطة شرقاً وغرباً درساً وتلاوة وحفظا وتلقاه الكافة عن الكافة طبقة عن طبقة فلا يحتاج إلى إسناد .

وقد يكون تواتر عمل وتوارث كتواتر العمل على شيء من عصر النبوة إلى الآن ، أو تواتر علم كتواتر المعجزات فإن مفرداتها وإن كان بعضها آحادا لكن القدر المشترك منها متواتر قطعاً فى علم كل إنسان مسلم .

وإن الحكم على المسلم بالكفر فى غير هذه المواطن التى بيناها أمر خطير ، وفى الحديث (إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما) .

رواه البخارى عن أبى هريرة .

ولا يصح صدوره إلا ممن عرف بنور الشريعة مداخل الكفر ومخارجه والحدود الفاصلة بين الكفر والإيمان فى حكم الشريعة الغراء .

فلا يجوز لأى إنسان الركض فى هذا الميدان والتكفير بالأوهام والمظان دون تثبت ويقين وعلم متين وإلا اختلط سيلها بالأبطح ولم يبق مسلم على وجه الأرض إلا القليل .

كما لا يجوز التكفير بارتكاب المعاصى مع الإيمان والإقرار بالشهادتين ، وفى الحديث عن أنس رضى الله عنه قال صلى الله عليه وسلم :

«ثلاث من أصل الإيمان الكف عمن قال : لا إله إلا الله لا نكفره بذنب ولا نخرجه عن الإسلام بالعمل ، والجهاد ماض منذ بعثنى الله إلى أن يقاتل آخر أمتى الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل والإيمان بالأقدار» .. (أخرجه أبو داود) ..

وكان إمام الحرمين يقول : لو قيل لنا : فصِّلُوا ما يقتضى التكفير من العبارات مما لا يقتضى ، لقلنا : هذا طمع فى غير مطمع فإن هذا بعيد المدرك وعر المسلك يستمد من أصول التوحيد ومن لم يحظ بنهايات الحقائق لم يتحصل من دلائل التكفير على وثائق .

لذلك نحذر كل التحذير من المجازفة بالتكفير فى غير المواطن السابق بيانها لأنه جد خطير والله الهادى إلى سواء السبيل وإليه المصير .

موقف الشيخ محمد بن عبدالوهاب

وقد وقف الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله فى هذا الميدان موقفا عظيما ، قد يستنكره كثير ممن يدعى أنه منسوب إليه ومحسوب عليه ، ثم يكيل الحكم بالتكفير جزافا لكل من خالف طريقته ونبذ فكرته ، وها هو الشيخ محمد ابن عبدالوهاب ينكر كل ما ينسب إليه من هذه التفاهات والسفاهات والإفتراءات فيقول ضمن عقيدته فى رسالته الموجهة لأهل القصيم قال :

ثم لا يخفى عليكم أنه بلغنى أن رسالة سليمان بن سحيم قد وصلت إليكم وأنه قبلها وصدقها بعض المنتمين للعلم فى جهتكم ، والله يعلم أن الرجل افترى عليَّ أمورا لم أقلها ولم يأت أكثرها على بالى .

فمنها : قوله : إنى مبطل كتب المذاهب الأربعة ، وإنى أقول : إن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء ، وإنى أدعى الإجتهاد ، وإنى خارج عن التقليد ، وإنى أقول : إن اختلاف العلماء نقمة ، وإنى أكفر من توسل بالصالحين ، وإنى أكفر البوصيرى لقوله : يا أكرم الخلق ، وإنى أقول : لو أقدر على هدم قبة رسول الله ﷺ لهدمتها ، ولو أقدر على الكعبة لأخذت ميزابها وجعلت لها ميزابا من خشب ، وإنى أحرم زيارة قبر النبى ﷺ ، وإنى أنكر زيارة قبر الوالدين وغيرهما ، وإنى أكفر من حلف بغير الله ، وإنى أكفر ابن الفارض وابن عربى ، وإنى أحرق دلائل الخيرات وروض الرياحين ، وأسميه روض الشياطين .

جوابى عن هذه المسائل : أن أقول : ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ ، وقبله من بهت محمدا صلى الله عليه وسلم أنه يسب عيسى بن مريم ، ويسب الصالحين ، فتشابهت قلوبهم بافتراء الكذب ، وقول زور . قال تعالى : ﴿إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ الآية ، بهتوه صلى الله عليه وسلم بأنه يقول : إن الملائكة وعيسى وعزيرا فى النار ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿إن الذين سبقت لهم منا

الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ .

أنظر الرسالة الأولى من الرسائل الشخصية ضمن مجموعة مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب المنشورة باهتمام جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

(القسم الخامس ص)

رسالة مهمة أخرى للشيخ في الموضع

هذه رسالة أرسلها الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى السويدي عالم من أهل العراق ، وكان قد أرسل له كتاباً وسأله عما يقول الناس فيه ، فأجابه بهذه الرسالة : قال فيها :

إن إشاعة البهتان بما يستحى العاقل أن يحكيه فضلا عن أن يفتريه مما قلتم : أنني أكفر جميع الناس إلا من اتبعني ، ويا عجبا كيف يدخل هذا في عقل عاقل ، وهل يقول هذا مسلم ؟ .

وما قلتم : لو أنني أقدر على هدم قبة النبي ﷺ لهدمتها ، وفي دلائل الخيرات وحرمته ، وأنهى عن الصلاة على النبي ﷺ بأيّ النظم كان ، فهذا من البهتان ، والمسلم لا يظنّ من قلبه أجلّ من كتاب الله .

وفي صحيفة ٦٤ من نفس الكتاب قال رحمه الله : وما قلتم : أنني أكفر من توسّل بالصالحين ، وأكفر البوصيري لقوله : ياأكرم الخلق ، وأنكر زيارة قبر النبي ﷺ ، وأنكر زيارة قبور الوالدين وغيرهم ، وأكفر من حلف بغير الله .

جوابي على ذلك أقول : سبحانك هذا بهتان عظيم .

أنظر القسم الخامس – الرسائل الشخصية ص ٣٧ من مجموعة مؤلفات الشيخ –.

سباب المسلم فسوق وقتاله كفر

إعلم أنّ كراهة المسلمين ومقاطعتهم ومدابرتهم محرّمة وكان سباب المسلم فسوقا وقتاله كفرا إذا استحل .

وكفى رادعا فى هذا الباب حديث خالد بن الوليد رضى الله عنه فى سريته إلى بنى جذيمة يدعوهم إلى الإسلام ، فلما انتهى إليهم تلقوه ، فقال لهم : أسلموا ، فقالوا : نحن قوم مسلمون ، قال : فالقوا سلاحكم وانزلوا ، قالوا : لا والله ما بعد وضع السلاح إلا القتل ما نحن بآمنين لك ولا لمن معك ، قال خالد فلا أمان لكم إلا أن تنزلوا فنزلت فرقة منهم وتفرقت بقية القوم .
وفى رواية انتهى خالد إلى القوم فتلقوه ، فقال لهم ما أنتم أى : أمسلمون ؟ أم كفار ؟ قالوا : مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبنينا المساجد فى ساحتنا وأذنا فيها ، وفى لفظه لم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فقالوا : صبأنا صبأنا ، قال فما بال السلاح عليكم ؟ قالوا : إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح ، قال : فضعوا السلاح فوضعوا ، فقال : استأسروا فأمر بعضهم فكتف بعضا وفرقهم فى أصحابه فلما كان السحر نادى منادى خالد : من كان معه أسير فليقتله ، فقتل بنو سليم من كان معهم وامتنع المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم ، وأرسلوا أسراهم فلما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم ما فعل خالد ، قال : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد ، قال ذلك مرتين .

وقد يقال أن خالداً فهم أنهم قالوا ذلك على سبيل الأنفة وعدم الانقياد إلى الإسلام وإنما أنكر عليه صلى الله عليه وآله وسلم العجلة وعدم التثبت

فى أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم صبأنا ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : نعم عبدالله أخو العشيرة خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله الله على الكافرين والمنافقين .

وكذلك قصة أسامة بن زيد حب رسول الله وابن حبه فيما رواه عنه البخارى عن أبى ظبيان قال : سمعت أسامة بن زيد يقول : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقة ، فصبحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم ، فلما غشيناه قال : لا إله إلا الله ، فكف الأنصارى عنه وطعنته برمحى حتى قتلته ، فلما قدمنا بلغ النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : يأسامة ! أقتلته بعد ما قال : لا إله إلا الله ، قلت : كان متعوذا ، فما زال يكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت ذلك اليوم ، وفى رواية أخرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : ألا شققت على قلبه ، فتعلم أصادق أم كاذب قال أسامة : لا أقاتل أحدا يشهد أن لا إله إلا الله .

وقد سئل علي ــ رضى الله عنه ــ عن المخالفين له من الفرق أكفار هم ؟ قال : لا ، إنهم من الكفر فروا ، فقيل : أمنافقون هم ؟ فقال : لا ، إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا ، وهؤلاء يذكرون الله كثيرا ، فقيل : أى شىء هم ؟ قال : قوم أصابتهم الفتنة فعموا وصمُّوا .

* * *

مقام الخالق ومقام المخلوق

إن الفرق بين مقام الخالق والمخلوق هو الحد الفاصل بين الكفر والإيمان ، ونعتقد أن من خلط بين المقامين فقد كفر والعياذ بالله .

ولكل مقام حقوقه الخاصة ، ولكن هناك أموراً ترد فى هذا الباب وخصوصا فيما يتعلق بالنبى صلى الله عليه وسلم وخصائصه التى تميزه عن غيره من البشر وترفعه عليهم هذه الأمور قد تشتبه على بعض الناس لقصر عقولهم وضعف تفكيرهم وضيق نظرهم وسوء فهمهم ، فيبادرون إلى الحكم بالكفر على أصحابها وإخراجهم عن دائرة الإسلام ظنا منهم أن فى ذلك تخليطا بين مقام الخالق والمخلوق ، ورفعا لمقام النبى صلى الله عليه وسلم إلى مقام الألوهية ، وإننا نبرأ إلى الله سبحانه وتعالى من ذلك .

وإننا بفضل الله تعالى نعرف ما يجب لله تعالى ، وما يجب لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ونعرف ما هو محض حق لله تعالى وما هو محض حق لرسوله صلى الله عليه وسلم من غير غلو ولا إطراء يصل إلى حد وصفه بخصائص الربوبية والألوهية فى المنع والعطاء والنفع والضر الاستقلالى [دون الله تعالى] والسلطة الكاملة والهيمنة الشاملة والخلق والملك والتدبير والتفرد بالكمال ، والجلال والتقديس والتفرد بالعبادة بمختلف أنواعها وأحوالها ومراتبها .

أما الغلو الذى يعنى التغالى فى محبته وطاعته والتعلق به ، فهذا محبوب ومطلوب كما جاء فى الحديث :

« لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم » ..

والمعنى أن إطراءه والتغالى فيه والثناء عليه بما سوى ذلك هو محمود ، ولو كان معناه غير ذلك لكان المراد هو النهى عن إطرائه ومدحه أصلا ومعلوم أن هذا لا يقوله أجهل جاهل فى المسلمين ، فإن الله تعالى عظم النبى صلى الله عليه وسلم فى القرآن بأعلى أنواع التعظيم ، فيجب علينا أن نعظم من عظمه الله تعالى وأمر بتعظيمه .. نعم يجب علينا أن لا نصفه بشىء من صفات الربوبية ورحم الله القائل حيث قال :

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم :: واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

فليس فى تعظيمه صلى الله عليه وسلم بغير صفات الربوبية شيء من الكفر والإشراك ، بل ذلك من أعظم الطاعات والقربات ، وهكذا كل من عظمهم الله تعالى كالأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وكالملائكة والصديقين والشهداء والصالحين ، قال الله تعالى : ﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ ، وقال تعالى : ﴿ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه﴾.

ومن ذلك الكعبة المعظمة والحجر الأسود ومقام إبراهيم عليه السلام ، فإنها أحجار وأمرنا الله تعالى بتعظيمها بالطواف بالبيتِ ومس الركن اليمانى وتقبيل الحجر الأسود وبالصلاة خلف المقام ، وبالوقوف للدعاء عند المستجار وباب الكعبة والملتزم ، ونحن فى ذلك كله لم نعبد إلا الله تعالى ، ولم نعتقد تأثيرا لغيره ولا نفعا ولا ضرا فلا يثبت شيء من ذلك لأحد سوى الله تعالى .

* * *

مقام المخلوق

أما هو صلى الله عليه وسلم فإننا نعتقد أنه صلى الله عليه وسلم بشر يجوز عليه ما يجوز على غيره من البشر من حصول الأعراض والأمراض التى لا توجب النقص والتنفير كما قال صاحب العقيدة :

وجائز فى حقهم من عرض :: بغير نقص كخفيف المرض

وأنه صلى الله عليه وسلم عبد لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا إلا ما شاء الله ، قال تعالى : ﴿قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ الأعراف : ١٨٨ .

وأنه صلى الله عليه وسلم قد أدى الرسالة وبلغ الأمانة ونصح الأمة

وكشف الغمة وجاهد فى سبيل الله حتى أتاه اليقين ، فانتقل إلى جوار ربه راضيا مرضياً كما قال تعالى : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ .

وقال : ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾ .

والعبودية هى أشرف صفاته صلى الله عليه وسلم ، ولذلك فإنه يفتخر بها ويقول : [إنما أنا عبد] ووصفه الله بها فى أعلى مقام ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده﴾ ، وقال : ﴿وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا﴾ .
والبشرية هى عين إعجازه فهو بشر من جنس البشر لكنه متميز عنهم بما لا يلحقه به أحد منهم أو يساويه كما قال صلى الله عليه وسلم عن نفسه فى الحديث الصحيح : «**إنى لست كهيئتكم إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى**» ..
وبهذا ظهر أن وصفه صلى الله عليه وسلم بالبشرية يجب أن يقترن بما يميزه عن عامة البشر من ذكر خصائصه الفريدة ومناقبه الحميدة ، وهذا ليس خاصا به صلى الله عليه وسلم ، بل هو عام فى حق جميع رسل الله سبحانه وتعالى لتكون نظرتنا إليهم لائقة بمقامهم ، وذلك لأن ملاحظة البشرية العادية المجردة فيهم دون غيرها هى نظرة جاهلية شركية ، وفى القرآن شواهد كثيرة على ذلك ، فمن ذلك قول قوم نوح فى حقه فيما حكاه الله عنهم إذ قال : ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا﴾ سورة هود : ٢٧ .

ومن ذلك قول قوم موسى وهارون فى حقهما فيما حكاه الله عنهم إذ قال : ﴿فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾ المؤمنون : ٤٧ .

ومن ذلك قول ثمود لنبيهم صالح فيما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين﴾ سورة الشعراء : ١٥٤ .

ومن ذلك قول أصحاب الأيكة لنبيهم شعيب فيما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين﴾ سورة الشعراء : ١٨٦ .

ومن ذلك قول المشركين فى حق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد رأوه

بعين البشرية المجردة فيما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق﴾ ، ولقد تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه حديث الصدق بما أكرمه الله تعالى به من عظيم الصفات وخوارق العادات التى تميز بها عن سائر أنواع البشر(١) .

فمن ذلك ما جاء فى الحديث الصحيح أنه قال :

«تنام عيناى ولا ينام قلبى» .

وجاء فى الصحيح أنه قال :

«إنى أراكم من وراء ظهرى كما أراكم من أمامى» ..

وجاء فى الصحيح أنه قال :

«أوتيت مفاتيح خزائن الأرض» .

وهو صلى لله عليه وسلم وإن كان قد مات إلا أنه حى حياة برزخية كاملة يسمع الكلام ويرد السلام-وتبلغه صلاة من يصلى عليه وتعرض عليه أعمال الأمة فيفرح بعمل المحسنين ويستغفر للمسيئين وأن الله حرم على الأرض أن تأكل جسده فهو محفوظ من الآفات والعوراض الأرضية .

وعن أوس بن أوس رضى الله عنه قال :

«قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أفضل أيامكم يوم الجمعة : فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة ، فاكثروا علىَّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علىَّ» . قالوا : يارسول الله ! وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت يعنى بليت ؟ فقال : «إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» ..

رواه أحمد وأبوداود وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وصححه .

وفى ذلك رسالة خاصة للحافظ جلال الدين السيوطى أسماها « إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء » .

عن ابن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) سيأتى بحث خاص فى هذا الموضوع بعنوان « ألأنبياء بشر ولكن » .

«حياتى خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، فإذا أنا مت كانت وفاتى خيرا لكم تعرض علىَّ أعمالكم فإن رأيت خيرا حمدت الله وإن رأيت شرا استغفرت لكم» .

قال الهيثمى : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

«ما من أحد يسلم علىَّ إلا رد الله علىَّ روحى حتى أرد عليه السلام» .

رواه أحمد وأبو داود . قال بعض العلماء : رد علىَّ روحى أى نطقى ، وعن عمار بن يسار رضى الله عنه قال :

«قال رسول الله ﷺ : إن الله وكّل بقبرى ملكا أعطاه الله أسماء الخلائق ، فلا يصلى علىَّ أحد إلى يوم القيامة إلا أبلغنى باسمه واسم أبيه ، هذا فلان بن فلان قد صلى عليك» .

رواه البزار وأبو الشيخ ابن حبان ولفظه : قال رسول الله ﷺ :

«إن لله تبارك وتعالى ملكا أعطاه أسماء الخلائق فهو قائم على قبرى إذا مت ، فليس أحد يصلى علىَّ إلا قال : يا محمد ! صلى عليك فلان بن فلان ، قال : فيصلى الرب تبارك وتعالى على ذلك الرجل بكل واحدة عشرا» ..

رواه الطبرانى فى الكبير بنحوه[(١)] .

وهو صلى الله عليه وسلم وإن كان قد مات إلا أن فضله ومقامه وجاهه عند ربه باق لا شك فى ذلك ولا ريب عند أهل الإيمان ، ولذلك فإن التوسل به إلى الله سبحانه وتعالى إنما يرجع فى الحقيقة إلى اعتقاد وجود تلك المعانى واعتقاد محبته وكرامته عند ربه وإلى الإيمان به وبرسالته ، وليس هو عبادة له ، بل إنه مهما عظمت درجته وعلت رتبته فهو مخلوق لا يضر ولا ينفع من دون الله إلا بإذنه .

قال تعالى : ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد﴾ .

* * *

---

(١) كثير من هذه الأحاديث سيأتى مفصلا فى مباحث أخرى من هذه الرسالة لمناسبة أخرى ، والحديث الواحد يستدل به العلماء على أكثر من مسألة فى أكثر من موضع واحد .

أمور مشتركة بين المقامين لا تنافى التنزيه

وقد أخطأ كثير من الناس فى فهم بعض الأمور المشتركة بين المقامين (مقام الخالق ومقام المخلوق) فظن أن نسبتها إلى مقام المخلوق شرك بالله تعالى .

ومن ذلك بعض الخصائص النبوية مثلا[1] ، التى يخطىء بعضهم فى فهمها فيقيسونها بمقياس البشرية ، ولذلك يستكثرونها ويستعظمونها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويرون أن وصفه بها معناه وصفه ببعض صفات الألوهية ، وهذا جهل محض لأنه سبحانه وتعالى يعطى من يشاء وكما يشاء بلا موجب ملزم وإنما هو تفضل على من أراد إكرامه ورفع مقامه وإظهار فضله على غيره من البشر وليس فى ذلك انتزاع لحقوق الربوبية وصفات الألوهية ، فهى محفوظة بما يناسب مقام الحقّ سبحانه وتعالى : وإذا اتصف المخلوق بشئ منها فيكون بما يناسب البشرية من كونها محدودة مكتسبة بإذن الله وفضله وإرادته لا بقوة المخلوق ولا تدبيره ولا أمره إذ هو عاجز ضعيف لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وكم من أمور جاء ما يدل على أنها حق لله سبحانه وتعالى ، ولكنه سبحانه وتعالى منَّ بها على نبيه صلى الله عليه وسلم وغيره .

وحينئذ فلا يرفعه وصفه بها إلى مقام الألوهية أو يجعله شريكا لله سبحانه وتعالى .

فمنها : الشفاعة ، فهى لله ، قال الله تعالى : ﴿قل لله الشفاعة﴾ ، وهى ثابتة للرسول صلى الله عليه وسلم ولغيره من الشفعاء بإذن الله كما جاء فى الحديث : **«أوتيت الشفاعة»** ..

---

(١) سيأتى فى هذه الرسالة بحث خاص عن الخصائص المحمدية وموقف العلماء منها ، وما نذكره هنا هو من باب التنظير .

وحديث : **«أنا أول شافع ومشفع»** ..

ومنها : علم الغيب ، فهو لله سبحانه وتعالى : ﴿قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ ، وقد ثبت أن الله تعالى علم نبيه من الغيب ما علمه وأعطاه ما أعطاه ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول﴾ .

ومنها : الهداية فهى خاصة بالله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾ ، وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم له شيء من ذلك فقال : ﴿وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾ ، والهداية الأولى غير الهداية الثانية ، وهذا إنما يفهمه العقلاء من المؤمنين الذين يعرفون الفرق بين الخالق والمخلوق ، ولو لا ذلك لاحتاج أن يقول : وإنك لتهدى هداية إرشاد ، أو أن يقول وإنك لتهدى هداية غير هدايتنا ، ولكن كل ذلك لم يحصل ، بل أثبت له هداية مطلقة بلا قيد ولا شرط ، لأن الموحد منا معشر المخاطبين من أهل الإسلام يفهم معانى الألفاظ ويدرك اختلاف مدلولاتها بالنسبة لما أضيف إلى الله ، وبالنسبة لما أضيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونظير هذا ما جاء فى القرآن من وصف رسول الله ﷺ بالرأفة والرحمة إذ يقول : ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ ، ووصف الله سبحانه وتعالى نفسه بذلك أيضا فى أكثر من موضع ، فهو سبحانه وتعالى ﴿رؤوف رحيم﴾ ، ومعلوم أن الرأفة والرحمة الثانية غير الأولى ، ولما وصف نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك الوصف وصفه به بالإطلاق بلا قيد ولا شرط ، لأن المخاطب وهو موحد مؤمن بالله يعلم الفرق بين الخالق والمخلوق ، ولو لا ذلك لاحتاج أن يقول فى وصفه صلى الله عليه وسلم : رؤوف برأفة غير رأفتنا ، ورحيم برحمة غير رحمتنا ، أو أن يقول : رؤوف برأفة خاصة أو رحيم برحمة خاصة ، أو أن يقول : رؤوف برأفة بشرية ورحيم برحمة بشرية ، ولكن كل ذلك لم يحصل ، بل أثبت له رأفة مطلقة ورحمة مطلقة بلا قيد ولا شرط ، فقال : ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ .

* * *

المجاز العقلى واستعماله

ولا شك أن المجاز العقلى مستعمل فى الكتاب والسنة ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا﴾ ، فإسناد الزيادة إلى الآيات مجاز عقلى لأنها سبب فى الزيادة ، والذى يزيد حقيقة هو الله تعالى وحده .

وقوله تعالى : ﴿يوما يجعل الولدان شيبا﴾ ، فإسناد الجعل إلى اليوم مجاز عقلى ، لأن اليوم محل جعلهم شيبا فالجعل المذكور واقع فى اليوم ، والجاعل حقيقة هو الله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ولا يغوث و يعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا﴾ ، فإن إسناد الاضلال إلى الأصنام مجاز عقلى لأنها سبب فى حصول الاضلال ، والهادى والمضل هو الله تعالى وحده . وقوله تعالى حكاية عن فرعون : ﴿يا هامان ابن لى صرحا﴾ ، فإسناد البناء إلى هامان مجاز عقلى لأنه سبب فهو آمر يأمر ولا يبنى بنفسه ، والبانى إنما هم الفعلة «من العمال» .

وأما الأحاديث ففيها شىء كثير يعرفه من وقف عليها ، وكان ممن يعرف الفرق بين الإسناد الحقيقى والمجازى فلا حاجة إلى الإطالة بنقلها ، وقال العلماء : إن صدور ذلك الإسناد من موحد كاف فى جعله إسنادا مجازيا لأن الاعتقاد الصحيح هو اعتقاد أن الخالق للعباد وأفعالهم هو الله وحده فهو الخالق للعباد وأفعالهم لا تأثير لأحد سواه لا لحى ولا لميت فهذا الاعتقاد هو التوحيد المحض ، بخلاف ما لو اعتقد غير هذا فإنه يقع فى الإشراك .

* * *

ضرورة ملاحظة النسبة المجازية فى مقياس الكفر والإيمان

وقد تمسكت طوائف من أهل الضلالات بذيل شبهة ظواهر الألفاظ دون نظر إلى القرائن والمقاصد وبدون نظر إلى الجمع بما لا يؤدى إلى التعارض بين الوارد كالقائلين بخلق القرآن تمسكوا بنحو قوله تعالى : ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا﴾ ، والقائلين بالقدر تمسكوا بنحو قوله تعالى : ﴿بما كسبت أيديكم﴾ ،

و ﴿بما كنتم تعملون﴾ إلى غير ذلك ، والقائلين بالجبر تمسكوا بنحو قوله تعالى : ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ ، ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ .

وكشف الغطاء عن ذلك أن جميع الأمة غير القدرية على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى : ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ ، وإن كان يجوز أن يوصف بها العبد على وجه آخر من التعلق يعبر عنه بالاكتساب كما فى قوله تعالى : ﴿لها ما كسبت وعليها ماااكتسبت﴾ ، وقوله تعالى : ﴿بما كسبت أيديكم﴾ إلى غير ذلك من الآيات المصرحة بإضافة الكسب إلى العبد ، وليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور أن يكون بالاختراع فقط لأن قدرة الله تعالى فى الأزل كانت متعلقة بالعالم قبل اختراعه تعالى لوجوده ، وهى عند اختراعه متعلقة به بنوع آخر من التعلق .

حقيقة نسبة الأفعال للعباد :

ومن هنا يظهر أن تعلق القدرة ليس مخصوصا بحصول المقدور بها . وأفعال العباد نسبتها إليهم على طريق الكسب لا الاختراع لأن الله تعالى هو المخترع لها ، والمقدر لها ، والمريد لها ، ولا يرد أنه كيف يريد ما نهى عنه ، لأن الأمر يغاير الإرادة بدليل أمره جميع الناس بالإيمان ، ولم يرده من أكثرهم لقوله تعالى : ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ ، فنسبة الأفعال إلى العباد من نسبة المسبب إلى السبب أو الواسطة ، وهذا لا منافاة فيه ، لأن مسبب الأسباب هو الذى خلق الواسطة وخلق فيها معنى الوساطة ولولا ذلك الذى أودع الله تعالى فيها لم تصلح أن تكون واسطة وسواء كانت مما لم يودع العقل كالجماد والأفلاك والمطر والنار ، أو كانت عاقلة من ملك أو إنسى أو جنى .

إختلاف المعنى باختلاف النسبة اللفظية :

ولعلك تقول : لا تعقل نسبة الفعل الواحد إلى فاعلين لاستحالة اجتماع مؤثرين على أثر واحد ، فنقول : نعم ، هو كما قلتم لكن محله إذا لم يكن الفاعل إلا معنى واحد فى الاستعمال .

أما إذا كان له معنيان فيكون الاسم مجملا مترددا بينهما فى الاستعمال ، وحينئذ لا يمتنع إطلاقه على كل منهما كما هو المعلوم من الاستعمال فى الأسماء المشتركة أو فى الحقيقة والمجاز كما يقال : قتل الأمير فلانا ، ويقال : قتله السياف ، فإطلاق القتل على الأمير بمعنى غير المعنى الذى أطلق به على السياف ، فقولنا : إن الله تعالى فاعل بمعنى أنه المخترع الموجد ، وقولنا : إن المخلوق فاعل فمعناه أنه المحل الذى خلق الله تعالى فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم ، فارتباط القدرة بالإرادة والحركة بالقدرة إرتباط المعلول بالعلة وارتباط المخترع بالمخترع ، هذا إذا كان المحل عاقلا وإلا فهو من ترتيب المسببات على أسبابها ، فصح أن يسمى كل ماله ارتباط بقدرة فاعلا كيفما كان الارتباط ، كما يسمى السياف قاتلا باعتبار ، والأمير قاتلا باعتبار ، لأن القتل ارتبط بكليهما ، وإن كان ارتباطه على وجهين مختلفين ساغ تسمية كل منهما فاعلا ، فمثل ذلك اعتبار المقدورات بالقدرتين ، والدليل على جواز هذه النسبة وتطابقها نسبة الله تعالى الأفعال إلى الملائكة تارة وتارة إلى غيرهم من العباد ، ومرة أخرى نسبها بعينها إلى نفسه ، فقال تعالى : ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم﴾ ، وقال تعالى : ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ ، وقال تعالى : ﴿أفرأيتم ما تحرثون﴾ بالإضافة إلينا ، ثم قال تعالى : ﴿أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿فنفخنا فيها من روحنا﴾ ، والنافخ جبريل عليه السلام ، وقال تعالى : ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ ، والقارىء الذى يسمع النبى قراءته جبريل ، وقال تعالى : ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾ .. ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ ، فنفى عنهم القتل وأثبته لنفسه ، ونفى عنه الرمى وأثبته لنفسه ، وليس المراد نفى الحس من قتلهم الكفار ورميه لهم عليه السلام بالحصباء ولكن المعنى أنهم ما قتلوهم ولارموهم بالمعنى الذى يكون الرب به قتلهم ورماهم وهو الاختراع والتقدير إذ هما معنيان مختلفان ، وتارة ينسب الفعل إليهما معا كقوله تعالى : ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله﴾ .

وروت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : أن الله تبارك وتعالى إذا أراد أن يخلق الجنين يبعث ملكا فيدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده ثم يصورها جسدا ، فيقول : يارب ! أذكر أم أنثى ؟ أسوى أم معوج ؟ فيقول تعالى ماشاء ، ويخلق الملك ، وفى لفظ آخر : فيصور الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة .

فإذا فهمت هذا اتضح لك أن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة ولا تناقض بينهما ، ولذلك الفعل ينسب تارة للجماد كما فى قوله تعالى : ﴿تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها﴾ ، فالشجرة لا يتأتى منها الإتيان بثمرها ، وكما فى قوله صلى الله عليه وسلم للذى ناوله تمرة : خذها لو لم تأتها لأتتك .. كما فى الطبرانى وابن حبان ، فإضافة الاتيان تختلف إلى الرجل وإلى التمرة ، فمعنى إتيان التمرة غير معنى إتيان الرجل ، فالإتيان منهما مجازان مختلفان فى الاعتبار ، فمجاز إطلاق الإتيان على الرجل بمعنى أن الله خلق فيه القدرة والإرادة للإتيان بها .
وإتيان التمرة بمعنى أن الله يسبب من يأتى بها ، والحقيقة إنما هى إضافة الإتيان إلى الله تعالى فى كل منهما ، ولأجل اختلاف الاعتبار فى الوسائط تارة تكون ملاحظة الوسائط فى الأفعال كفرا كما فى جواب قارون لموسى عليه السلام بقوله : ﴿إنما أوتيته علىٰ علم عندى﴾ ، وكما فى حديث : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب ، وهذا الكفر باعتبار أن الواسطة مؤثرة ومخترعة ، قال النووى : اختلف العلماء فى كفر من قال : مطرنا بنوء كذا على قولين :

أحدهما

هو كفر بالله تعالى سالب لأصل الإيمان مخرج من ملة الإسلام ، قالوا : وهذا فيمن قال ذلك معتقدا أن الكوكب فاعل مدبر منشىء للمطر كما كان بعض أهل الجاهلية يزعم ، ومن اعتقد هذا فلا شك فى كفره ، وهذا القول هو الذى ذهب إليه جماهير العلماء ، والشافعى منهم وهو ظاهر فى الحديث ، قالوا : وعلى هذا لو قال : مطرنا بنوء كذا معتقدا أنه من الله تعالى وبرحمته وأن النوء ميقات له

وعلامة اعتبارا بالعادة ، فكأنه قال : مطرنا فى وقت كذا ، فهذا لا يكفر .

واختلفوا فى كراهته لكنها كراهة تنزيه لا اثم فيها ، وسبب الكراهة أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره ، فيساء الظن بصاحبها ولأنها شعار الجاهلية ، ومن سلك مسلكهم .

والقول الثانى :

فى أصل تأويل الحديث : أن المراد كفر نعمة الله تعالى لاقتصاره على إضافة الغيث إلى الكوكب ، وهذا فيمن لا يعتقد تدبير الكوكب ، ويؤيد هذا التأويل الرواية الأخيرة فى الباب : أصبح من الناس شاكر وكافر ، وفى الرواية الأخرى : ما أنزل الله تعالى من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين . فقوله : بها يدل على أنه كفر النعمة ، والله أعلم اهـ .

فأنت تراه قال بإتفاق العلماء على أن من نسب الفعل إلى الواسطة لا يكفر إلا إذا اعتقد أنها هى الفاعلة المدبرة المخترعة ، وإذا لم تكن ملاحظة الواسطة بهذا الاعتبار بحيث أن الواسطة علامة أو ظرف الخلق المقدور فيها فلا كفر ، بل تارة يندب الشرع إلى ملاحظتها كقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« من أسدى إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه » .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

«من لم يشكر الناس لم يشكر الله» ..

وذلك لأن ملاحظة الواسطة بهذا الاعتبار لا ينافى رؤية المنة لله سبحانه وتعالى ، وقد أثنى الله عز وجل على عباده فى مواضع على أعمالهم بل وأثابهم عليها وهو الباعث لارادتهم لها . والخالق لقدرتهم عليها كقوله تعالى : ﴿نعم العبد إنه أواب﴾ ، وقوله تعالى : ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ ، وقال تعالى : ﴿قد أفلح من زكاها﴾ الآية .

وإذا ظهر لك أن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تتناقض هذه المعانى إذا فهمت الفهم الصحيح السليم .

فالمعانى أوسع من العبارات ، والصدور أوسع من الكتب المؤلفات ، ولو وقفنا مع حقيقة اللفظ دون المجاز ، لم نجد إلى الجمع بين النصوص أو التفرقة من جواز ، ألا ترى إلى ما أخبر الله تعالى به عن إبراهيم عليه السلام من قوله : ﴿رب إنهن أضللن كثيرا من الناس﴾ ، أترى أن إبراهيم يشرك مع الله تعالى الجماد وهو القائل : ﴿أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون﴾ ، والأمر الجامع فى ذلك أن من أشرك مع الله جل جلاله غيره فى الاختراع والتأثير فهو مشرك سواء كان الملحوظ معه جمادا أو آدميا نبيا أو غيره ، ومن اعتقد السببية فى شىء من ذلك اطردت أو لم تطرد ، فجعل الله تعالى لها سببا لحصول مسبباتها ، وأن الفاعل هو الله وحده لا شريك له فهو مؤمن ، ولو أخطأ فى ظنه ما ليس بسبب سببا لأن خطأه فى السبب لا فى المسبب الخالق المدبر جل جلاله وعظم شأنه .

* * *

التعظيم بين العبادة والأدب

يخطىء كثير من الناس فى فهم حقيقة التعظيم وحقيقة العبادة ، فيخلطون بينهما خلطا بينا ويعتبرون أن أى نوع من أنواع التعظيم هو عبادة للمعظم ، فالقيام وتقبيل اليد وتعظيم النبى ﷺ بسيدنا ومولانا ، والوقوف أمامه فى الزيارة بأدب ووقار وخضوع ، كل ذلك غلو عندهم يؤدى إلى العبادة لغير الله تعالى ، وهذا فى الحقيقة جهل وتعنت لا يرضاه الله ولا رسوله وتكلف تأباه روح الشريعة الإسلامية .

فهذا آدم أول الجنس الإنسانى ، وأول عباد الله الصالحين من هذا الجنس أمر الله تعالى الملائكة بالسجود له إكراما وتعظيما لما آتاه من علمه وإعلاما لهم باصطفائه من بين سائر مخلوقاته ، قال تعالى : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ،قال أأسجد لمن خلقت طينا قال أرأيتك هذا الذى كرمت علىَّ﴾ إلى آخر الآية . وفى آية أخرى قال : ﴿أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾ .. وفى آية أخرى : ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾ .. فالملائكة عليهم السلام عظموا من عظمه الله ، وإبليس تكبر أن يسجد لمن خلق من طين ، فهو أول من قاس الدين برأيه وقال : أنا خير منه ، وعلل ذلك بعلة خلقه من نار وخلق آدم من طين وأنف من تكرمته عليه واستنكف من السجود له ، فهو أول المتكبرين ولم يعظم من عظمه الله ، فطرد من رحمة الله لتكبره على هذا العبد الصالح وهو عين التكبر على الله لأن السجود إنما هو لله إذ هو بأمره ، وإنما جعل السجود له تشريفا وتكريما له عليهم وكان من الموحدين فلم ينفعه توحيده.

ومما جاء فى تعظيم الصالحين قال الله تعالى فى حق يوسف عليه السلام : ﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا﴾ تحية وتكريما وتشريفا وتعظيما له عليهم، والسجود من إخوته له إلى الأرض يدل عليه قوله تعالى : وخروا . ولعله كان جائزا فى شرعهم ، أو كسجود الملائكة لآدم عليه السلام تشريفا وتعظيما وامتثالا لأمر الله تأويلا لرؤيا يوسف إذ رؤيا الأنبياء وحى .

أما نبينا محمد ﷺ فقد قال الله تعالى فى حقه : ﴿إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه﴾ ، وقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله﴾ ، وقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى﴾ الآيات الثلاث . وقال تعالى : ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا﴾ ، ونهى عن التقدم بين يديه بالقول وسوء الأدب بسبقه بالكلام ، قال سهل بن عبدالله : لا تقولوا قبل أن يقول ، أى لا تتكلموا قبله ، وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا ، ونهوا عن التقدم والتعجل بقضاء أمر قبل قضائه فيه ، وأن يفتوا بشئ فى ذلك من قتال أو غيره من أمر دينهم إلا بأمره ، ولا يسبقوه به ، ثم وعظهم وحذرهم من مخالفة ذلك فقال : ﴿واتقوا الله إن الله سميع عليم﴾ ، قال السلمى : اتقوا الله فى إهمال حقه وتضييع حرمته ، إنه سميع لقولكم ، عليم بفعلكم ، ثم نهاهم عن رفع الصوت فوق صوته والجهر له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض ويرفع صوته ، وقيل : كما ينادى بعضهم بعضا باسمه ، قال أبو محمد مكى : أى لا تسابقوه بالكلام وتغلظوا له بالخطاب ولا تنادوه باسمه نداء بعضكم لبعض ولكن عظموه ووقروه ونادوه بأشرف ما يحب أن ينادى به يا رسول الله ، يا نبى الله ، وهذا كقوله فى الآية الأخرى : ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا﴾ ، وقال غيره : لا تخاطبوه إلا مستفهمين، ثم خوفهم الله تعالى بحبوط أعمالهم إن هم فعلوا ذلك وحذرهم منه .. والآية نزلت فى جماعة أتوا النبى ﷺ فنادوه يا محمد أخرج إلينا ، فذمهم الله تعالى بالجهل ووصفهم بأن أكثرهم لا يعقلون .

يقول عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وما كان أحد أحب إلىَّ من رسول الله ﷺ ولا أجل فى عينى منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالا له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأنى لم أكن أملأ عينى منه . رواه مسلم فى الصحيح ، كتاب الإيمان ، (باب كون الإسلام يهدم ما قبله) .

وروى الترمذى عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس ، فيهم أبوبكر وعمر ، فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبوبكر وعمر ، فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ، ويبتسمان إليه ويبتسم لهما .

وروى أسامة بن شريك قال : أتيت النبى ﷺ وأصحابه حوله كأنما على رؤوسهم الطير ، وفى صفته إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير ، وقال عروة بن مسعود حين وجهته قريش عام القضية إلى رسول الله ﷺ ورأى من تعظيم أصحابه له ما رأى وأنه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه وكانوا يقتتلون عليه ولا يبصق بصاقا ، ولا يتنخم نخامة إلا تلقوها بأكفهم فدلكوا بها وجوههم وأجسادهم ، ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر تعظيما له ، فلما رجع إلى قريش قال : يامعشر قريش إنى جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ، وفى رواية : إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم محمدا أصحابه ، وقد رأيت قوما لا يسلمونه أبدا .

وأخرج الطبرانى وابن حبان فى صحيحه عن أسامة بن شريك رضى الله عنه قال :

«كنا جلوسا عند النبى ﷺ كأنما على رؤوسنا الطير ، ما يتكلم منا متكلم ، إذ جاءه أناس فقالوا : من أحب عباد الله إلى الله تعالى ؟ قال : أحسنهم خلقا» .. كذا فى الترغيب (ج ٤ ص ١٨٧) ، وقال : رواه الطبرانى برجال محتج بهم فى الصحيح .

وأخرج أبو يعلى وصححه عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال :

«لقد كنت أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الأمر ، فأؤخره سنتين من هيبته» .. وأخرج البيهقى عن الزهرى قال :

«حدثنى من لا أتهم من الأنصار أن رسول الله ﷺ كان إذا توضأ أو تنخم ابتدروا نخامته فمسحوا بها وجوههم وجلودهم ، فقال رسول الله ﷺ : لم تفعلون هذا ؟ قالوا : نلتمس به البركة ، فقال رسول الله ﷺ : من أحب أن يحبه الله ورسوله فليصدق الحديث وليؤد الأمانة ولا يؤذ جاره» ..

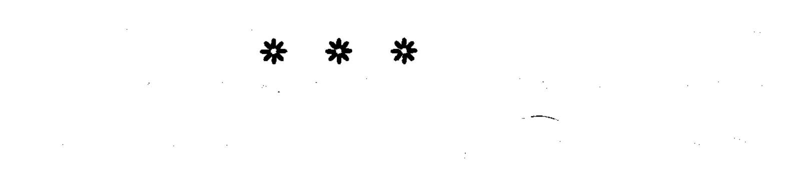
كذا فى الكنز (ج ٨ ص ٢٢٨).

والحاصل أن هنا أمرين عظيمين لا بد من ملاحظتهما ، أحدهما : وجوب تعظيم النبى ﷺ ورفع رتبته عن سائر الخلق ، والثانى إفراد الربوبية واعتقاد أن الله تبارك وتعالى منفرد بذاته وصفاته وأفعاله عن جميع خلقه ، فمن اعتقد فى مخلوق مشاركة البارى سبحانه وتعالى فى شيء من ذلك فقد أشرك ـ كالمشركين الذين كانوا يعتقدون الألوهية للأصنام واستحقاقها العبادة ، ومن قصر بالرسول ﷺ عن شيء من مرتبته فقد عصى أو كفر .

وأما من بالغ فى تعظيمه ﷺ بأنواع التعظيم ، ولم يصفه بشيء من صفات البارى عز وجل فقد أصاب الحق وحافظ على جانب الربوبية والرسالة جميعا ، وذلك هو القول الذى لا إفراط فيه ولا تفريط .

وإذا وجد فى كلام المؤمنين إسناد شيء لغير الله تعالى يجب حمله على المجاز العقلى ، ولا سبيل إلى تكفيرهم ، إذ المجاز العقلى مستعمل فى الكتاب والسنة .

* * *



الواسطة الشركية

يخطىء كثير من الناس فى فهم حقيقة الواسطة فيطلقون الحكم هكذا جزافا بأن الواسطة شرك ، وأن من اتخذ واسطة بأى كيفية كانت فقد أشرك بالله ، وأن شأنه فى هذا شأن المشركين القائلين : ﴿إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى﴾ ، وهذا كلام مردود ، والاستدلال بالآية فى غير محله ، وذلك لأن هذه الآية الكريمة صريحة فى الإنكار على المشركين عبادتهم للأصنام واتخاذها آلهة من دونه تعالى وإشراكهم إياها فى دعوى الربوبية على أن عبادتهم لها تقربهم إلى الله زلفى ، فكفرهم وإشراكهم من حيث عبادتهم لها ومن حيث اعتقادهم أنها أرباب من دون الله .

وهنا مهمة لا بد من بيانها وهى أن هذه الآية تشهد بأن أولئك المشركين ما كانوا جادين فيما يحكى ربنا عنهم من قولهم مسوغين عبادة الأصنام : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فإنهم لو كانوا صادقين فى ذلك لكان الله أجل عندهم من تلك الأصنام ، فلم يعبدوا غيره ، وقد نهى الله المسلمين من سب أصنامهم بقوله تعالى : ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانو يعملون﴾ .

روى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضى الله عنه أنه قال : «كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فيسب الكفار الله عز وجل ، فأنزل الله : ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم﴾ ، هذا سبب نزول هذه الآية . فهى إذن تنهى المؤمنين نهى تحريم شديد أن يقولوا كلمة نقص فى الحجارة التى كان يعبدها الوثنيون بمكة المشرفة ، لأن قول تلك الكلمة يتسبب عنه غضب أولئك الوثنيين غيرة على تلك الأحجار التى كانوا يعتقدون من صميم قلوبهم أنها آلهة تنفع وتضر ، وإذا غضبوا قابلوا المسلمين بالمثل فيسبون ربهم الذى يعبدونه ، وهو رب العالمين ، ويرمونه بالنقائص وهو المنزه عن كل نقص ، ولو كانوا صادقين بأن عبادتهم

لأصنامهم تقربهم إلى الله زلفى ما اجترؤا أن يسبوه انتقاما ممن يسبون آلهتهم فإن ذلك واضح جدا فى أن الله تعالى فى نفوسهم أقل من تلك الحجارة .

وقل ذلك أيضا فى قوله تعالى : ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ ، فإنهم لو كانوا يعتقدون حقا أن الله تعالى الخالق وحده وأن أصنامهم لا تخلق ، لكانت عبادتهم لله وحده دونها أو لكان على الأقل احترامهم له تعالى فوق احترامهم لتلك الحجارة ، وهل هذا يتفق مع شتمهم له عز وجل غيرة على حجارتهم وانتقاما لها منه سبحانه وتعالى ؟ إن البداهة تحكم أنه لا يتفق أبدا ، وليست الآية التى معنا وحدها تدل على أن الله تعالى أقل عند أولئك المشركين من حجارتهم بل لها أمثال ! منها قوله تعالى : ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون﴾ ، فلو لا أن الله تعالى أقل فى نفوسهم من تلك الحجارة ما رجحوها عليه هذا الترجيح الذى تحكيه هذه الآية واستحقوا عليه حكم الله عليهم بقوله : ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ .

ومن هذا القبيل قول أبى سفيان رضى الله عنه قبل إسلامه : «أَعْلُ هُبل» كما رواه البخارى ينادى صنمهم المسمى بهُبل أن يعلو فى تلك الشدة رب السموات والأرض ويقهره ليغلب هو وجيشه جيش المؤمنين الذى يريد أن يغلب آلهتهم ، هذا مقدار ما كان عليه أولئك المشركون مع تلك الأوثان ومع الله رب العالمين .

فليعرف هذا حق المعرفة فإن كثيراً من الناس لايفهمونه ويبنون عليه مايبنون .

ألا ترى أن الله لما أمر المسلمين باستقبال الكعبة فى صلاتهم توجهوا بعبادتهم إليها واتخذوها قبلة ؟ وليست العبادة لها وتقبيل الحجر الأسود إنما هو عبودية لله تعالى ، واقتداء بالنبى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، ولو أن أحدا من المسلمين نوى العبادة لهما لكان مشركا كعبدة الأوثان .

فالواسطة لا بد منها وهى ليست شركا وليس كل من اتخذ بينه وبين الله

واسطة يعتبر مشركا وإلا لكان البشر كلهم مشركين بالله لأن أمورهم جميعا تنبنى على الواسطة ، فالنبى ﷺ تلقى القرآن بواسطة جبريل ، فجبريل واسطة للنبى ﷺ وهو ﷺ الواسطة العظمى للصحابة رضى الله تعالى عنهم ، فقد كانوا يفزعون إليه فى الشدائد فيشكون إليه حالهم ويتوسلون به إلى الله ويطلبون منه الدعاء فما كان يقول لهم أشركتم وكفرتم فإنه لا يجوز الشكوى إلىَّ ولا الطلب منى بل عليكم أن تذهبوا وتدعوا وتسألوا بأنفسكم فإن الله أقرب إليكم منى لا ، لا بل يقف ويسأل مع أنهم يعلمون كل العلم أن المعطى حقيقة هو الله وأن المانع والباسط والرازق هو الله ، وأنه ﷺ يعطى بإذن الله وفضله ، وهو الذى يقول : «إنما أنا قاسم والله معط» ، وبذلك يظهر أنه يجوز وصف أى بشر عادى بأنه فرج الكربة وقضى الحاجة أى كان واسطة فيها فكيف بالسيد الكريم والنبى العظيم أشرف الكونين وسيد الثقلين وأفضل خلق الله على الاطلاق ؟ ألم يقل النبى ﷺ كما جاء فى الصحيح :

«من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا» الخ ؟

فالمؤمن مفرج الكربات .

ألم يقل صلى الله عليه وسلم :

«من قضى لأخيه حاجة كنت واقفا عند ميزانه فإن رجح وإلا شفعت له»؟

فالمؤمن قاض للحاجات .

ألم يقل فى الصحيح :

«من ستر مسلما» .. الحديث ؟

ألم يقل النبى صلى الله عليه وسلم :

أن لله عز وجل خلقا يفزع إليهم فى الحوائج» ؟.

ألم يقل فى الصحيح :

«والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه» ؟.

ألم يقل فى الحديث :

«من أغاث ملهوفا كتب الله له ثلاثا وتسعين حسنة» ؟ رواه أبو يعلى والبزار والبيهقى .

فالمؤمن هنا فرج وأعان وأغاث وقضى وستر وفزع إليه مع أن المفرج والقاضى والستار والمعين حقيقة هو الله عز وجل ، لكنه لما كان واسطة فى ذلك صح نسبة الفعل إليه .

وقد جاء فى الأحاديث النبوية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحاديث كثيرة تفيد أن الله سبحانه وتعالى يدفع العذاب عن أهل الأرض بالمستغفرين وعمار المساجد وأن الله سبحانه وتعالى يرزق بهم أهل الأرض وينصرهم ويصرف عنهم البلاء والغرق .

روى الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى السنن عن مانع الديلمى رضى الله تعالى عنه أنه قال : قال النبى ﷺ :

«لو لا عباد لله ركع وصبية رضع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صبا ثم رضّ رضا» ..

وروى البخارى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال:

«هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم» ..

وروى الترمذى وصححه والحاكم عن أنس رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

«لعلك ترزق به» ..

وعن عبد الله بن عمر أن رسول اله ﷺ قال :

«إن لله عز وجل خلقا خلقهم لحوائج الناس يفزع إليهم الناس فى حوائجهم أولئك الآمنون من عذاب الله تعالى» ..

رواه الطبرانى فى الكبير وأبو نعيم والقضاعى وهو حسن .

وعن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ :

«إن الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون فى حفظ الله عز وجل ما دام فيهم» .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :

«إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه بلاء» ..

ثم قرأ ابن عمر : ﴿ولو لا دفع الله النـاس بعضهـم ببـعض لفسدت الأرض﴾ رواه الطبرانى . وعن ثوبان رفع الحديث قال :

«لا يزال فيكم سبعة بهم تنصرون وبهم تمطـرون وبهم ترزقـون حتى يأتى أمر الله» ..

وعن عبادة بن الصامت قال : قال ﷺ :

«الأبـدال فى أمتـى ثلاثـون ، بهم ترزقـون وبهم تمطـرون وبهم تنصرون» .

قال قتادة : إنى لأرجو أن يكون الحسن منهم .. رواه الطبرانى .

ذكر هذه الأحاديث الأربعة الحافظ ابن كثير فى التفسير عند قوله تعـالى : ﴿ولو لا دفع اللـه النـاس﴾ ـ فى سورة البقـرة ـ وهـى صالحة للاحتجـاج ، ومـن مجموعها يصير الخبر صحيحا .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ :

«لن تخلو الأرض من أربعين رجلا مثل خليـل الرحمن ، فبهم تسقـون وبهم تنصرون ما مات منهم أحـد إلا أبـدل اللـه مكانـه آخـر» .. رواه الـطبرانى فى الأوسط وإسناده حسن . (كذا فى مجمع الزوائد ج ١٠ /٦٢) .

الـواسـطـة العـظمـى :

وفى يوم المحشر الأعظم الذى هو يوم التوحيد ويـوم الإيمان يوم يبرز العـرش ، يظهـر فضل الواسطـة العظمـى صاحب اللـواء المعقـود والمقـام المحمـود والحوض المورود الشافـع المشفـع الـذى لا ترد شفاعتـه ولا تضيـع ضمانته عند من وعده بأن لا يخيب ظنه ولا يخزيه أبدا ولا يحزنه ولا يسوؤه فى أمته حيث يتوجه الخلق إليه ويستشفعون به فيقوم فلا يرجـع إلا بخلعـة الإحسان وتـاج الكرامـة المتمثـل فى قول اللـه له : يا محمـد إرفـع رأسك واشفع تشفع وسل تعط .

* * *

ثوب الـزور

الأدعيـاء والمتطفلـون على بساط الحقيقـة كثيرون ، والحقيقـة بريئـة منهم ولا تعترف لهم بصحة نسبتهم إليها .

وكل يدعى وصلا بليلى :: وليلى لا تـقر لهم بذاكا

هذا بالإضافة إلى أنهم يشوهـون الصورة ويسيئـون السمعـة وهـؤلاء الأدعيـاء يصدق عليهم الوصف النبوى الدقيق الذى يقول :

المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور ..

ولقد بلينا معشر المسلمين بكثير من هؤلاء ، يعكرون صفـو الأمـة ويفرقـون بين الجماعات ويورثون العداوة بين الأخ وأخيه والولد وأبيه .

ويدخلـون إلى تصحيـح مفـاهيم الإسلام من باب العقـــوق ويسلكـــون فى التمسك بآثار السلف سبيل الجحود ويستبدلـون الحكمـة والموعظـة الحسنـة والرأفـة والرحمة بالغلظة والجفوة وسوء الأدب وقلـة الـذوق . إن من الأدعيـاء أولـئك الذيـن ينسبون أنفسهم إلى التصوف وهم أبعد الناس عن حقيقته وجوهره فشوهـوا صورتـه ودنسوا كرامته وأفسدوا سيرته وجروا إليـه وإلى أئمتـه من السادة العـارفين والأساتـذة المربين الانتقاد اللاذع .

إننا لا نعرف التصوف خرافات وأباطيل ودجلا وشعوذة .

إننا لا نعرف التصوف نظريات فلسفية أو أفكـارا أجنبيـة أو عقائـد شركيـة حلولية أو إتحادية .

إننا نبرأ إلى الله من هذا كله ونعتبر أن كل ما يخالـف الكتـاب والسنـة ولا يقبل التأويل هو مكذوب دخيل وملصق بأيد آثمة ونفوس ضعيفة .

إننا نعرف التصوف مدارس علميـة ومعـارف فكريـة وهـى كلهـا بمناهجهـا وبرامجهـا وطرقهـا تمثـل الأفـق الأعلى للفكـرة الإسلاميـة والوجـه الأكمـل لآدابنـــا ومثالياتنـا ، تمثـل الكمـال فى الإيمان والكمـال فى كل شأن من شؤون الحيـاة ، تمثل الخلاصة الزكية لكل دعوة ربانية إنه الصدق والأمانة والوفاء والإيثار والنجدة والكـرم ونصرة الضعيـف وإغاثـة الملهـوف والتعـاون على البر والتقـوى والتـواصى بالحق والصبر

والتسابق إلى فعل الخير التي تمثل الخلق القويم الصحيح .

وبهذه السيرة العاطرة والخلق الزكى ظهرت بطولات الصدر الأول ورجاله وأئمته وأبطاله فبرزت لنا الشخصية الإسلامية فى أبهى حلة وأكمل صفة وأعلى وأطهر نموذج ، وروى لنا عنها التاريخ حديث المجد والفخر والسيادة والعزة والجهاد والنضال ودروس الحضارة الإسلامية .

ومن هنا ندرك بيقين أن النهضات الكبرى لا تنبنى إلا على رسالات الروح وإلهامات الإيمان ، ولا تقوم إلا على الأخلاق الصاعدة القوية التى تستمد مثلها من العقائد المقدسة .

إن الصفات الخلقية والنفسية والروحية هى رأس مال الشعوب وهى المدخرات العظمى التى تصنع الأمم وتدفع بالركب البشرى إلى غاياته العليا ، والناظر فى سير السلف الصالحين والسادات العارفين من القوم يرى كيف أن هذه المثل والمبادىء كانت سببا مباشرا لانتفاضات صريحة مشهودة مشهورة فى التاريخ الإسلامى ، ولم يكن لهم من النفوذ والقوة إلا إيمان هو أعلى صور الإيمان ، إيمان حار متقد حى يرتكز على الشوق والمحبة ، إنه إيمان يطلق فى قلوب أتباعه الشعلة المتوهجة المتطلعة دائماً إلى الله ، ويرى كيف أن الرجل منهم يعيش دائما فى مقام الإحسان يرى الله فى كل شىء ، ويراقبه فى كل حركة من حركاته ، بل يراقبه مع كل نَفَس من أنفاسه من غير حلول ولا اتحاد ولا إلحاد إنه إيمان يبعث اليقظة الشاملة فى الحياة ، ويضفى عليها الإحساس العميق بالربانية السارية فى الكون ، والتى تعيش فى أعماقها وتعلم خواطر القلب وهمسات النجوى وخائنة العين وما تخفى الصدور .

بين نعمت البدعة وبئست البدعة

وإن من الأدعياء أولئك الذين ينسبون أنفسهم إلى السلف الصالح فقاموا يدعون إلى السلفية فى همجية جهلاء وعصبية عمياء وبعقول عقيمة وأفهام سقيمة وصدور ضيقة تحارب كل جديد وتنكر كل مخترع مفيد بدعوى أنه بدعة وأن كل بدعة ضلالة دون التفريق بين أنواع البدعة مع أن روح الشريعة الإسلامية توجب علينا أن نميز بين أنواع البدعة وأن نقول : إن منها البدعة الحسنة ومنها البدعة السيئة ، وهذا ما يقتضيه العقل النير والنظر الثاقب .

وهذا ما حققه علماء الأصول من سلف هذه الأمة رضى الله عنهم كالإمام العز بن عبدالسلام والنووى والسيوطى والمحلى وابن حجر .

والأحاديث النبوية يفسر بعضها بعضا ويكمل بعضها بعضا ، ولا بد من النظر إليها نظرة واحدة متكاملة ، ولا بد من تفسيرها بروح الشريعة ومفهومها المتفق عليه بين أهل النظر .

ولذا نجد كثيرا من الأحاديث الشريفة تحتاج فى تفسيرها إلى عقل عاقل وفكر ثاقب وفهم لائق وقلب ذائق يستمد من بحر الشريعة الغراء ويراعى أحوال الأمة وحاجتها ويسايرها فى حدود القواعد الشرعية والنصوص القرآنية النبوية التى لا يجوز الخروج عنها .

ومن أمثلة ذلك هذا الحديث : كل بدعة ضلالة ـ فلا بد من القول : أن المراد بذلك البدعة السيئة التى لا تدخل تحت أصل شرعى .

وهذا التقييد وارد فى غير هذا الحديث كحديث :

«لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد» ..

فهذا الحديث مع أنه يفيد الحصر فى نفى صلاة جار المسجد إلا أن عمومات الأحاديث تفيد تقييده بأن لا صلاة كاملة .

وكحديث :

«لا صلاة بحضرة الطعام» .. قالوا : أى صلاة كاملة .

وكحديث :

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ..

قالوا : أى إيمانا كاملا .

وكحديث :

«والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن ، قيل : من يارسول الله ؟ قال : من لم يأمن جاره بوائقه .

وكحديث :

«لا يدخل الجنة قتات» .. «ولا يدخل الجنة قاطع رحم» ..

«وعاق لوالديه» ..

فالعلماء قالوا : إنه لا يدخل دخولا أوليا أو لا يدخل إذا كان مستحلا لذلك الفعل .

الحاصل أنهم لم يجروه على ظاهره وإنما أولوه بأنواع التأويل .

وحديث البدعة هذا من هذا الباب فعمومات الأحاديث وأحوال الصحابة تفيد أن المقصود به البدعة السيئة التى لا تندرج تحت أصل كلى .

وفى الحديث :

«من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .

وفى الحديث :

«عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين» ..

ويقول عمر فى صلاة التراويح : نعمت البدعة هذه .

هذا وبالله التوفيق ..

تفريق ضرورى بين البدعة الشرعية واللغوية

ينتقد بعضهم تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة ، وينكر على من يقول ذلك أشد الإنكار ، بل ومنهم من يرميه بالفسق والضلال ، وذلك لمخالفة صريح قول الرسول ﷺ : [كل بدعة ضلالة] . وهذا اللفظ صريح فى العموم وصريح فى وصف البدعة بالضلالة ، ومن هنا تراه يقول : فهل يصح بعد قول المشرّع صاحب الرسالة : أن كل بدعة ضلالة يأتى مجتهد أو فقيه مهما كانت رتبته فيقول : لا - لا - ليست كل بدعة ضلالة ، بل بعضها ضلالة وبعضها حسنة وبعضها سيئة ، وبهذا المدخل يغترّ كثير من الناس فيصيح مع الصّائحين وينكر مع المنكرين ويكثّر سواد هؤلاء الذين لم يفهموا مقاصد الشريعة ، ولم يذوقوا روح الدّين الإسلامي .

ثم لا يلبث إلا يسيرا حتى يضطر إلى إيجاد مخرج يحل له المشاكل التى تصادمه ، ويفسّر له الواقع الذى يعيشه ، إنه يضطر إلى اللّجوء إلى اختراع وسيلة أخرى ، لو لاها لما يستطيع أن يأكل ولا يشرب ولا يسكن ، بل ولا يلبس ولا يتنفس ولا يتزوج ولا يتعامل مع نفسه ولا أهله ولا إخوانه ولا مجتمعه ، هذه الوسيلة هى أن يقول باللفظ الصريح : إن البدعة تنقسم إلى بدعة دينية ودنيوية ، ياسبحان الله - لقد أجاز هذا المتلاعب لنفسه أن يخترع هذا التقسيم أو على الأقل أن يخترع هذه التسمية و لو سلّمنا أن هذا المعنى كان موجودا منذ عهد النبوة لكن هذه التسمية : دينية ودنيوية لم تكن موجودة قطعا فى عهد التشريع النبوي فمن أين جاء هذا التقسيم ؟ ومن أين جاءت هذه التسمية المبتدعة ؟ .

فمن قال : إن تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة لم يأت من الشارع نقول له : وكذا تقسيم البدعة إلى دينية غير مقبولة ، ودنيوية مقبولة هو عين الابتداع والاختراع .

فالشارع يقول : (كل بدعة ضلالة) هكذا بالاطلاق ، وهذا يقول : لا - لا ليست كل بدعة ضلالة بالاطلاق ، بل إن البدعة تنقسم إلى قسمين : دينية وهى الضلالة ، ودنيوية وهى التى لا شئ فيها .

ولذا لا بد أن نوضح هنا مسألة مهمة وبها ينجلى كثير من الأشكال ، ويزول اللبس إن شاء الله .

وهو أن المتكلم هنا هو الشارع الحكيم ، فلسانه هو لسان الشرع ، فلا بد من فهم كلامه على الميزان الشرعى الذى جاء به ، وإذا علمت أن البدعة فى الأصل هى : كل أما أحدث واخترع على غير مثال فلا يغيب عن ذهنك أن الزيادة أو الاختراع المذموم هنا هو الزيادة فى أمر الدين ليصير من أمر الدين ، والزيادة فى الشريعة ليأخذ صبغة الشريعة ، فيصير شريعة متبعة منسوبة لصاحب الشريعة ، وهذا هو الذى حذر منه سيدنا رسول الله ﷺ بقوله : (من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) ، فالحد الفاصل فى الموضوع هو قوله : (فى أمرنا هذا) .

ولذلك فإن تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة فى مفهومنا ليس إلا للبدعة اللغوية التى هى مجرد الاختراع والاحداث ، ولا نشك جميعا فى أن البدعة بالمعنى الشرعى ليست إلا ضلالة وفتنة مذمومة مردودة مبغوضة ، ولو فهم أولئك المنكرون هذا المعنى لظهر لهم أن محل الاجتماع قريب وموطن النزاع بعيد .

وزيادة فى التقريب بين الأفهام أرى أن منكرى التقسيم إنما ينكرون تقسيم البدعة الشرعية بدليل تقسيمهم البدعة إلى دينية ودنيوية ، وإعتبارهم ذلك ضرورة .

وأن القائلين بالتقسيم إلى حسنة وسيئة يرون أن هذا إنما هو بالنسبة للبدعة اللغوية لأنهم يقولون : إن الزيادة فى الدين والشريعة ضلالة وسيئة كبيرة ، ولا شك فى ذلك عندهم فالخلاف شكلى ، غير أنى أرى أن إخواننا المنكرين لتقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة ، والقائلين بتقسيمها إلى دينية ودنيوية لم يحالفهم الحظ فى دقة التعبير،

وذلك لأنهم لما حكموا بأن البدعة الدينية ضلالة - وهذا حق - وحكموا بأن البدعة الدنيوية لا شيئ فيها قد أساؤا الحكم لأنهم بهذا قد حكموا على كل بدعة دنيوية بالإباحة ، وفى هذا خطر عظيم ، وتقع به فتنة ومصيبة ، ولا بد حينئذ من تفصيل واجب وضرورى للقضية ، وهو أن يقولوا : إن هذه البدعة الدنيوية منها ما هو خير ومنها ما هو شر كما هو الواقع المشاهد الذى لا ينكره إلا أعمى جاهل ، وهذه الزيادة لا بد منها ، ويكفى فى تحقيق هذا المعنى بدقة قول من قال : بأن البدعة تنقسم إلى حسنة وسيئة ، ومعلوم أن المراد بها اللغوية كما تقدم ، وهى التى عبر عنها المنكرون بالدنيوية ، وهذا القول فى غاية الدقة والإحتياط ، وهو ينادى على كل جديد بالانضباط والإنصياع لحكم الشرع وقواعد الدين ، ويُلزم المسلمين أن يعرضوا كل ما جدّ لهم وأحدث من أمورهم الدنيوية العامة والخاصة على الشريعة الإسلامية ليرى حكم الإسلام فيها مهما كانت تلك البدعة ، وهذه لا يتحقق إلا بالتقسيم الرائع المعتبر عن أئمة الأصول ، فرضي الله عن أئمة الأصول وعن تحريرهم للألفاظ الصحيحة المجزئة المؤدية إلى المعانى السليمة دون نقص أو تحريف أو تأويل .

دعوة أئمة التصوف إلى العمل بالشريعة

التصوف ذلك المظلوم المتهم ، قليل من ينصفه بل بلغت الجراءة والوقاحة بعضهم إنه جعله من صفات الذم والقدح التى تسقط بها الشهادة وتزول بها العدالة فيقول : فلان ليس بثقة ولا يقبل خبره لماذا ؟ لأنه صوفى .

والعجيب الغريب أننا نرى بعض هؤلاء الذين يذمون التصوف ويحاربون أهله ويناصبونهم العداء ، نرى بعض هؤلاء المنكرين يفعل ما يفعل ، ويقول ما يقول عن التصوف ، ثم لا يستحى على وجهه حينما ينقل كلام هؤلاء الأئمة من الصوفية فى خطبه وكلامه على منابر الجمعة وكراسى الدروس ، فيقول بكل بجاحة ووقاحة : قال الفضيل بن عياض ، وقال الجنيد ، وقال الحسن البصرى ، وقال سهل التسترى ، وقال المحاسبى ، وقال بشر الحافى .

وهؤلاء هم أئمة التصوف وأقطابه وأركانه وقواعده وبنيانه ، وكتب التصوف مشحونة بأقوالهم وأخبارهم ومناقبهم وشمائلهم ، فلا أدرى أهو جهل أم تجاهل ؟ وعمى أو تعامى ؟ .

وقد أحببت أن أنقل كلام أئمة الدين الذين هم أركان التصوف ورجاله ، أردت أن أنقل كلامهم عن الشريعة الإسلامية لنعرف موقفهم الحقيقى ، لأن الواجب أن نعرف الشخص عن الشخص نفسه ، فالإنسان هو خير من يتحدث عن رأيه وأوثق من يظهر ما يضمر .

قال الإمام الجنيد رضى الله عنه : الطرق كلها مسدودة عن الخلق إلا من اقتفى أثر رسول الله ﷺ واتبع سنته ولزم طريقته ، لأن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه ، وعلى المقتفين أثره والمتابعين .

وجاء أن أبا يزيد البسطامى قدس سره قال ذات يوم لأصحابه : قوموا بنا حتى ننظر إلى ذلك الذى قد شهر نفسه بالولاية ، قال : فمضينا ، فإذا بالرجل قد قصد المسجد فرمى بزاقه نحو القبلة فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه . وقال : هذا ليس بمأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه من مقامات الأولياء والصديقين .

قال ذو النون المصرى : مدار الكلام أربع : حب الجليل وبغض القليل واتباع التنزيل وخوف التحويل . من علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله ﷺ فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه .

قال السرى السقطى : التصوف اسم لثلاثة معان : وهو الذى لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله .

قال أبو نصر بشر بن الحارث الحافى : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقال لى : يا بشر ! أتدرى لم رفعك الله بين أقرانك ؟ قلت : لا يا رسول الله ، قال : باتباعك لسنتى وخدمتك للصالحين ، ونصيحتك لإخوانك ومحبتك لأصحابى وأهل بيتى ـ هذا هو الذى بلغك منازل الأبرار .

قال أبو يزيد بن طيفور بن عيسى البسطامى : لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفينى مؤنة الأكل ، ومؤنة النساء ، ثم قلت : كيف يجوز لى أن أسأل الله هذا ، ولم يسأله رسول الله ﷺ إياه ، فلم أسأله ثم إن الله سبحانه وتعالى كفانى مؤنة النساء حتى لا أبالى استقبلتنى امرأة أو حائط ، وقال أيضا : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة .

قال سليمان عبد الرحمن بن عطية الدارانى : ربما وقع فى قلبى النكتة من نكت القوم أياما ، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عادلين : الكتاب والسنة ، وقوله : منه أى من قلبى .

قال أبو الحسن أحمد بن أبى الحوارى : من عمل عملا بلا اتباع سنة رسول الله ﷺ فباطل .

قال أبو حفص عمر بن سلمة الحداد : من لم يزن أفعاله فى كل وقت بالكتاب والسنة ، ولم يتهم خواطره ، فلا تعده فى ديوان الرجال .

قال أبو القاسم الجنيد بن محمد : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر ، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة .

وقال أيضا : مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة ، علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ .

قال أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيرى : ولما تغير على أبى عثمان الحال مزق ابنه أبو بكر قميصا على نفسه ففتح أبو عثمان عينيه ، وقال : السنة يا بنى فى الظاهر علامة كمال فى الباطن .

وقال أيضا : الصحبة مع الله بحسن الأدب ، ودوام الهيبة ، والصحبة مع الرسول ﷺ باتباع سنته ولزوم ظاهر العلم ، والصحبة مع أولياء الله تعالى بالاحترام والخدمة .

والصحبة مع الأهل بحسن الخلق - والصحبة مع الإخوان بدوام البشر ما لم يكن إثما - والصحبة مع الجهال بالدعاء والرحمة .

قال أيضا : من أمَّر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة ، قال تعالى : ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ .

قال أبو الحسن أحمد بن محمد النورى : من رأيته يدعى مع الله حالة تخرجه عن حدِّ العلم الشرعى فلا تقربن منه .

قال أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرمانى : من غض بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشهوات ، وعمر باطنه بدوام المراقبة ، وظاهره باتباع السنة ، وعود نفسه أكل الحلال لم يخطىء له فراسته .

قال أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمى : من ألزم نفسه آداب الشريعة نوَّر الله قلبه بنور المعرفة ، وأعطى به مقام متابعة الحبيب ﷺ فى أوامره ، وأفعاله ، وأخلاقه .

وقال أيضا : كل ما سئلت عنه فاطلبه فى مفازة العلم ، فإن لم تجده ، ففى ميدان الحكمة ، فإن لم تجده فزنه بالتوحيد ، فإن لم تجده فى هذه المواضع الثلاثة فاضرب به وجه الشيطان .

قال أبو حمزة البغدادى البزاز : من علم طريق الحق تعالى سهل عليه سلوكه ، ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول ﷺ ، فى أحواله ، وأفعاله ، وأقواله .

قال أبو إسحاق إبراهيم بن داود الرقى : علامة محبة الله : إيثار طاعته ومتابعة نبيه ﷺ .

قال ممشاد الدينورى : أدب المريد فى التزام حرمات المشايخ ، وخدمة الإخوان ، والخروج عن الأسباب وحفظ آداب الشرع على نفسه .

قال أبو محمد عبد الله بن منازل : لم يضيِّع أحد فريضة من الفرائض إلا إبتلاه الله تعالى بتضييع السنن ، ولم يُبتَل أحد بتضييع السنن إلا أوشك أن يبتلى بالبدع .

* * *

---

(١) هذا وقد ألف العلامة الفاضل الشيخ عبدالحفيظ المكى رسالة قيمة وهي (موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف والصوفية) ، جمع فيها أقوال وآراء الإمام أحمد بن حنبل ، والشيخ ابن تيمية ، وابن القيم ، والذهبي وابن كثير ، وابن رجب ومحمد بن عبدالوهاب ، وموقفهم المؤيِّد للتصوف ، ومدحهم وثناءهم على مشائخ السادة الصوفية .

حقيقة الأشاعرة

يجهل كثير من أبناء المسلمين مذهب الأشاعرة ، ولا يعرفون من هم الأشاعرة ولا طريقتهم فى أمر العقيدة .. ولا يتورع البعض أن ينسبهم إلى الضلال أو يرميهم بالمروق من الدين والإلحاد فى صفات الله .

وهذا الجهل بمذهب الأشاعرة سبب تمزق وحدة [أهل السنة] وشتت شملهم حتى غدا البعض يسلك [الأشاعرة] ضمن طوائف أهل الضلال ، ولست أدرى كيف يقرن بين أهل الإيمان وأهل الضلال ؟ وكيف يساوى بين أهل السنة وبين غلاة المعتزلة وهم الجهمية ؟ .

﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون﴾ ؟ ..

الأشاعرة : هم أئمة أعلام الهدى من علماء المسلمين .. الذين ملأ علمهم مشارق الأرض ومغاربها وأطبق الناس على فضلهم وعلمهم ودينهم هم جهابذة علماء أهل السنة وأعلام علمائها الأفاضل الذين وقفوا فى طغيان المعتزلة .

هم الذين قال عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية : [والعلماء أنصار علوم الدين والأشاعرة أنصار أصول الدين] الفتاوى الجزء الرابع .

إنهم طوائف المحدثين والفقهاء والمفسرين من الأئمة الأعلام شيخ الإسلام [أحمد بن حجر العسقلانى] شيخ المحدثين بلا مراء صاحب كتاب [فتح البارى على شرح البخارى] أشعرى المذهب وكتابه لا يستغنى عنه أحد من العلماء .

وشيخ علماء أهل السنة [الإمام النووى] صاحب شرح صحيح مسلم ، وصاحب المصنفات الشهيرة أشعرى المذهب .

وشيخ المفسرين الإمام القرطبى صاحب تفسير [الجامع لأحكام القرآن] أشعرى المذهب .

وشيخ الإسلام [ابن حجر الهيتمى] صاحب كتاب (الزواجر عن اقتراف الكبائر) أشعرى المذهب .

وشيخ الفقه والحديث الإمام الحجة الثبت [زكريا الأنصارى] أشعرى المذهب .

والإمام [أبو بكر الباقلانى] والإمام العسقلانى والإمام النسفى والإمام الشربينى ، وأبو حيان النحوى صاحب تفسير [البحر المحيط] ، والإمام ابن جزى صاحب (التسهيل فى علوم التنزيل) الخ ... كل هؤلاء من أئمة الأشاعرة .

ولو أردنا أن نعدد هؤلاء الأعلام من المحدثين والمفسرين والفقهاء ، من أئمة الأشاعرة لضاق بنا الحال واحتجنا إلى مجلدات فى سرد أولئك العلماء الأفاضل الذين ملأ علمهم مشارق الأرض ومغاربها .. إن من الواجب أن نرد الجميل لأصحابه وأن نعرف الفضل لأهل العلم والفضل الذين خدموا شريعة سيد المرسلين من العلماء الأعلام .

وأى خير يرجى فينا إن رمينا علماءنا الأعلام وأسلافنا الصالحين بالزيغ والضلال ؟ .

وكيف يفتح الله علينا لنستفيد من علومهم إذا كنا نعتقد فيها الإنحراف والزيغ عن طريق الإسلام .

إننى أقول : هل يوجد بين علماء العصر من [الدكاترة] والعباقرة من يقوم بما قام به شيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى والإمام النووى ، من خدمة السنة النبوية المطهرة كما فعل هذان الإمامان الجليلان تغمدهما الله بالرحمة والرضوان ؟ فكيف نرميهما ــ وسائر الأشاعرة ــ بالضلالة ونحن بحاجة إلى علوم هؤلاء .

وكيف نأخذ العلوم عنهم إذا كانوا على ضلال ، وقد قال الإمام الزهرى رحمه الله : [إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم] .

أفما كان يكفى أن يقول المعارض : إنهم رحمهم الله اجتهدوا فأخطأوا فى تأويل الصفات ، وكان الأولى أن لا يسلكوا هذا المسلك ، بدل أن نرميهم بالزيغ والضلال ، ونغضب على من عدهم من أهل السنة والجماعة .

وإذا لم يكن الإمام النووى والعسقلانى والقرطبى والباقلانى والفخر الرازى والهيتمى وزكريا الأنصارى وغيرهم من جهابذة العلماء ، وفطاحل النبغاء إذا لم يكونوا من أهل السنة والجماعة فمن هم أهل السنة إذن ؟ .

إننى أدعو مخلصا كل الدعاة وكل العاملين فى حقل الدعوة الإسلامية أن يتقوا الله فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم وبخاصة فى أجلة علمائها وأخيار فقهائها ، فأمة محمد بخير إلى قيام الساعة ولا خير فينا إذا لم نعرف لعلمائنا قدرهم وفضلهم[١] .



---

(١) أنظر ما كتبه شيخنا العلامة الشيخ محمد على الصابونى فى مسألة الأشاعرة من بحوث طويلة ومهمة

حقائق تمـوت بالبـحث

يجرى البحث بين العلماء فى حقائق كثيرة من مسائل العقيدة مما لم يكلفنـا به الله تعالى ، وأنا أرى ذلك البحث يذهب بَهـاءَ تلك الحقائـق وجـلالها ، وذلك مثلا كاختلاف العلماء فى رؤية النبى ﷺ للـه سبحانـه وتعـالى كيـف كانت ، والخلاف الطويل العريض الدائر بينهم فى ذلك الباب ، فمـن قائـل رآه بقلبـه ومـن قائل رآه بعينه ، وكل يورد دليله ويستنصر له بما لا طائل تحته ، والـذى أراه أن كل ذلك عبث لا فائـدة فيـه ، بل ضرره أكبر من نفعـه خصوصا إذا سمع هذا العوام فإنه يُدخل التشكيك فى قلوبهم لا محالة ، ولو أننا ألغينا البحث عن هذا واكتفينـا بإيراد هذه الحقيقة كما جاءت لبقيت مكرمة معظمة فى النفوس بأن نقول إنه ﷺ رأى ربِه ونقتصر على هذه الحقيقة ونترك الباق له هو .

وكلم الله موسى تكليما :

ومـن ذلك أيضا ما يجرى بين العلمـاء من البـحث فى حقيقـة كلام اللـه تعالى والخلاف الكبير الدائر فى هذا الباب ، فمن قائل إن كلامه سبحانـه وتعـالى كلام نفسى ، ومن قائل إن كلامه سبحانه وتعـالى بحرف وصوت ، وأنـا أعتقـد أن كلا الطرفين يطلب حقيقة التنزيه لله سبحانه وتعالى ويبعد عن الشرك بكل أنواعه.

ومسألة الكلام حقيقة ثابتـة لا مجال لإنكارهـا إذ هو ينـاف الكمـال الإلهى هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أن صفاته سبحانه وتعالى الواردة فى القـرآن يجب الإيمان بها وإثباتها لأنه لا يعرف الله إلا الله .

والـذى أراه وأدعـو إليـه هو إثبـات هذه الحقيقـة دون الغـوص فى كيفـيتها وشكلها ، فنثبـت للـه سبحانـه وتعـالى الكـلام ونقـول هذا كلام اللـه ونقـول إنـه سبحانه وتعـالى متكلـم ، ونصرف النظـر عمـا بعـد ذلك من الباطـل من كونـه كلامـــا نفسيـــا وغير نفسى بحرف وصوت أو بلا حرف ولا صوت ، وكل هذا تنطع لم يتكلم فيه الذى جاء بالتوحيد وهو المصطفـى صلى اللـه عليـه وسلـم ،

فلم الزيادة على ما جاء به ؟ أليس هذا من أقبح البدع ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

هو صلى الله عليه وسلم يحدثنا عنه يوم نجتمع به عند الله سبحانه وتعالى.

نحن ندعو إلى أن يكون حديثنا دائما عن هذه الحقيقة وأمثالها مجردا عن الغوص فى كيفياتها وصورها وأشكالها .

إنى أراكم من خلفى :

ومن ذلك أيضا ما يجرى بين العلماء من البحث فى حقيقة قوله ﷺ : [إنى أراكم من خلفى كما أراكم من أمامى] . فمن قائل : إن الله تعالى يجعل لنبيه ﷺ عينين من الخلف ، ومن قائل : إن الله سبحانه وتعالى يجعل لعينيه الأماميتين قوة نفاذة ترى بها ما خلفهما، ومن قائل : إن الله سبحانه وتعالى يعكس له ﷺ ما خلفه حتى تكون صورته أمامه بين عينيه ، وكل هذا تنطع يخرج هذه الحقيقة عن جمالها ورونقها ، ويضعف هيبتها وجلالها فى القلوب .

أما كونه ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه فهى حقيقة ثابتة أخبر بها بنفسه فيما صح عنه فلا مجال لإنكارها ، ولكن الذى ندعو إليه ونراه هو أن نثبت هذه الحقيقة هكذا مجردة كما وردت دون الدخول فى كيفيتها وشكلها يجب علينا أن نعتقد إمكان ذلك وثمرته بأن نشهد بخارق من الخوارق التى تضمحل عندها الأسباب وتتلاشى لتظهر قدرة الواحد القهار ومنقبة النبى المختار ﷺ .

جبريل يتمثل رجلا :

ومن ذلك أيضا اختلاف العلماء فى كيفية تشكل جبريل عليه السلام إذا جاء بالوحى على صورة رجل مع هول خلقه .

فمن قائل : إن الله يفنى الزائد من خلقه ، ومن قائل : إنه ينضم بعضه إلى بعض حتى يصير صغيرا ، والذى أراه أن كل ذلك عبث ، وأن البحث فيه تعب لا فائدة منه فنحن نعتقد أن الله سبحانه وتعالى قادر على ذلك ، وأن هذا واقع ومشاهد ، فقد رآه كثير من الصحابة على تلك الصورة ونحن لا يهمنا معرفة الطريقة التى يتم بها تمثل الملك بصورة رجل ، وندعو إخواننا من طلاب العلم إلى إيراد هذه الحقيقة دون التعرض لما وراءها من خلافات لتبقى جليلة عظيمة فى النفوس .

مفهــوم التوســـل

يخطىء كثير من الناس فى فهم حقيقة التوسل ، ولذا فإننا سنبين مفهوم التوسل الصحيح فى نظرنا وقبل ذلك لا بد أن نبين هذه الحقائق :

أولا :

أن التوسل هو أحد طرق الدعاء وباب من أبواب التوجه إلى الله سبحانه وتعالى ، فالمقصود الأصلى الحقيقى هو الله سبحانه وتعالى ، والمتوسَّل به إنما هو واسطة ووسيلة للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى ومن اعتقد غير ذلك فقد أشرك .

ثانيا :

أن المتوسل ما توسل بهذه الواسطة إلا لمحبته لها وإعتقاده أن الله سبحانه وتعالى يحبها ، ولو ظهر خلاف ذلك لكان أبعد الناس عنها وأشد الناس كراهة لها .

ثالثاً :

أن المتوسل لو اعتقد أن من توسل به إلى الله ينفع ويضر بنفسه مثل الله أو دونه فقد أشرك .

رابعاً .

أن التوسل ليس أمرا لازما أو ضروريا وليست الإجابة متوقفة عليه بل الأصل دعاء الله تعالى مطلقا ، كما قال تعالى : ﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب﴾ . وكما قال تعالى : ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّا مَّا تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ .

* * *

المتفق عليه من التوسل

لم يختلف أحد من المسلمين فى مشروعية التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بالأعمال الصالحة ، فمن صام أو صلى أو قرأ القرآن أو تصدق فإنه يتوسل

بصيامه وصلاته وقراءته وصدقته بل هو أرجى فى القبول وأعظم فى نيل المطلوب لا يختلف فى ذلك اثنان ، والدليل على هذا حديث الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار فتوسل أحدهم إلى الله ببره لوالديه ، وتوسل الثانى بابتعاده عن الفاحشة بعد تمكنه من أسبابها ، وتوسل الثالث بأمانته وحفظه لمال غيره وأدائه له كاملا ، وفرج الله عنهم ما هم فيه ، وهذا النوع من التوسل قد فصله وبين أدلته وحقق مسائله الشيخ ابن تيمية رحمه الله فى كتبه وخصوصا فى رسالته (قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة) .

محل الخلاف :

ومحل الخلاف فى مسألة التوسل هو التوسل بغير عمل المتوسل ، كالتوسل بالذوات والأشخاص بأن يقول : اللهم إنى أتوسل إليك بنبيك محمد ﷺ أو أتوسل إليك بأبى بكر الصديق أو بعمر بن الخطاب أو بعثمان أو بعلي رضى الله عنهم ، فهذا هو الممنوع عند بعضهم .

ونحن نرى أن الخلاف شكلى وليس بجوهرى ، لأن التوسل بالذات يرجع فى الحقيقة إلى توسل الإنسان بعمله وهو المتفق على جوازه ، ولو نظر المانع المتعنت فى المسألة بعين البصيرة لا نجلى له الأمر وانحل الإشكال وزالت الفتنة التى وقع بسببها من وقع فحكم على المسلمين بالشرك والضلال .

وسأبين كيف أن المتوسل بغيره هو فى الحقيقة متوسل بعمله المنسوب إليه والذى هو من كسبه .

فأقول : إعلم أن من توسل بشخص ما فهو لأنه يحبه إذ يعتقد صلاحه وولايته وفضله تحسينا للظن به ، أو لأنه يعتقد أن هذا الشخص محب لله سبحانه وتعالى يجاهد فى سبيله ، أو لأنه يعتقد أن الله تعالى يحبه كما قال تعالى : ﴿يحبهم ويحبونه﴾ ، أو لإعتقاد هذه الأمور كلها فى الشخص المتوسل به .

وإذا تدبرت الأمر وجدت أن هذه المحبة وذلك الاعتقاد من عمل المتوسل لأنه اعتقاده الذى انعقد عليه قلبه فهو منسوب إليه ومسئول عنه ومثاب عليه ،

وكأنه يقول : يارب إنى أحب فلانا وأعتقد أنه يحبك وهو مخلص لك ويجاهد فى سبيلك ، واعتقد أنك تحبه وأنت راض عنه فأتوسل إليك بمحبتى له وباعتقادى فيه أن تفعل كذا وكذا ، ولكن أكثر المتوسلين يتسامحون فى التصريح بهذا الأمر مكتفين بعلم من لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

فمن قال : اللهم إنى أتوسل إليك بنبيك . هو ومن قال : اللهم إنى أتوسل إليك بمحبتى لنبيك ـ سواء ، لأن الأول ما أقدم على هذا إلا لمحبته وإيمانه بنبيه ، ولو لا المحبة له والإيمان به ما توسل به ، وهكذا يقال فى حق غيره من أولياء الأمة .

وبهذا ظهر أن الخلاف فى الحقيقة شكلى ولا يقتضى هذا التفرق والعداء بالحكم بالكفر على المتوسلين وإخراجهم عن دائرة الإسلام ﴿ سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ .

* * *

أدلة ما عليه المسلمون من التوسل

قال الله تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسلية﴾ .
والوسيلة : كل ما جعله الله سببا فى الزلفى عنده ووصلة إلى قضاء الحوائج منه والمدار فيها على أن يكون للوسيلة قدر وحرمة عند المتوسل إليه .

ولفظ الوسيلة عام فى الآية كما ترى فهو شامل للتوسل بالذوات الفاضلة من الأنبياء والصالحين فى الحياة وبعد الممات وبالإتيان بالأعمال الصالحة على الوجه المأمور به وللتوسل بها بعد وقوعها .

وفيما ستسمع من الأحاديث والآثار ما يجلى لك هذا العموم واضحا ، فألق السمع وأنت شهيد لترى أنه قد ثبت التوسل به ﷺ قبل وجوده وبعد وجوده فى الدنيا وبعد موته فى مدة البرزخ وبعد البعث فى عرصات القيامة .

* * *

التوسل بالنبي ﷺ قبل وجوده

توسل آدم به :

وقد جاء فى الحديث أن آدم توسل بالنبى صلى الله عليه وسلم ، قال الحاكم فى المستدرك : حدثنا أبو سعيد عمرو بن محمد بن منصور العدل حدثنا أبو الحسن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الحنظلى حدثنا أبو الحارث عبد الله بن مسلم الفهرى حدثنا إسماعيل بن مسلمة أنبأنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر – رضى لله عنه – قال :

«قال رسول الله ﷺ : لما اقترف آدم الخطيئة قال : يارب ! أسألك بحق محمد لما غفرت لى ، فقال الله : ياآدم ! وكيف عرفت محمدا ولم أخلقه ؟ قال : يارب ! لأنك لما خلقتنى بيدك ونفخت فىَّ من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، فقال الله : صدقت ياآدم ، إنه لأحب الخلق إلىَّ ، أدعنى بحقه فقد غفرت لك ، ولو لا محمد ما خلقتك» .

أخرجه الحاكم فى المستدرك وصححه [جـ ٢ صـ ٦١٥][١] ، ورواه الحافظ السيوطى فى الخصائص النبوية وصححه[٢] ، ورواه البيهقى فى دلائل النبوة وهو لا يروى الموضوعات ، كما صرح بذلك فى مقدمة كتابه[٣] ، وصححه أيضا القسطلانى والزرقانى فى المواهب اللدنية [جـ ١ صـ ٦٢][٤] ، والسبكى فى شفاء السقام ، قال الحافظ الهيثمى : رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه من لم أعرفهم (مجمع الزوائد جـ ٨ صـ ٢٥٣) .

وجاء من طريق آخر عن ابن عباس بلفظ : فلو لا محمد ما خلقت آدم ولا الجنة ولا النار . رواه الحاكم فى المستدرك (جـ ٢ ص ٦١٥) وقال : صحيح الإسناد ، وصححه شيخ الإسلام البلقينى فى فتاويه ، ورواه أيضا الشيخ ابن الجوزى فى الوفا فى أول كتابه ونقله ابن كثير فى البداية (جـ ١ ص ١٨٠) .

وقد خالف فى ذلك بعض العلماء فتكلم فى درجة الحديث ورده وحكم بوضعه كالذهبى وغيره ، وبعضهم حكم بضعفه ، وبعضهم حكم بنكارته – وبهذا يظهر أنه لم تتفق كلمتهم على حكم واحد ، وعليه فالمسألة يدور البحث فيها

(١ – ٢ – ٣ – ٤) أنظر هذه الأرقام فى الملحق بآخر الكتاب .

بين الإثبات والنفى والرد والقبول والتوقف بناء على اختلافهم فى درجة الحديث[٥] وهذا من ناحية السند وثبوت الحديث ، أما من ناحية المعنى فلنترك المجال لشيخ الإسلام ابن تيمية ليحدثنا عنه .

شواهد لحديث توسل آدم

روى ابن تيمية حديثين فى هذا الموضوع وأوردهما مستشهدا بهما ، فقال :
روى أبو الفرج ابن الجوزى بسنده إلى ميسرة قال : قلت : يارسول الله ! متى كنتَ نبيا ؟ قال :

«لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ، وخلق العرش كتب على ساق العرش محمد رسول الله خاتم الأنبياء ، وخلق الله الجنة التى أسكنها آدم وحواء فكتب اسمى على الأبواب والأوراق والقباب والخيام ، وآدم بين الروح والجسد ، فلما أحياه الله تعالى نظر إلى العرش فرأى اسمى فأخبره الله إنه سيد ولدك ، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمى إليه» .

وروى أبو نعيم الحافظ فى كتاب دلائل النبوة ومن طريق الشيخ أبى الفرج حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا أحمد بن رشيد حدثنا أحمد بن سعيد الفهرى حدثنا عبد الله بن إسماعيل المدنى عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ :

«لما أصاب آدم الخطيئة رفع رأسه فقال : يارب ! بحق محمد الا غفرت لى ، فأوحى إليه : وما محمد ومن محمد ؟ فقال : يارب ! إنك لما اتممت خلقى رفعت رأسى إلى عرشك فإذا عليه مكتوب : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنه أكرم خلقك عليك إذ قرنت اسمه مع اسمك ، فقال : نعم ، قد غفرت لك ، وهو آخر الأنبياء من ذريتك ، ولو لاه ما خلقتك» ..

فهذا الحديث يؤيد الذى قبله ، وهما كالتفسير للأحاديث الصحيحة [اهـ من الفتاوى جـ ٢ ص ١٥٠] .

قلت : فهذا يدل على أن الحديث عند ابن تيمية صالح للاستشهاد والاعتبار لأن الموضوع أو الباطل لا يستشهد به عند المحدثين ، وأنت ترى أن الشيخ استشهد به هنا على التفسير[٦] .

(٥ - ٦) أنظر فى الملحق بآخر الكتاب تعليقا مهما على هذه المسألة .

تصحيح ابن تيمية لمعنى هذه الخصوصية

تكلم الشيخ ابن تيمية عن هذه المسألة كلاما جيدا نفيسا يدل على عقل وبصيرة واتزان كبير ، فهو وإن كان قد نفى وجود حديث عن النبى ﷺ فى هذا المعنى [وهذا حسب علمه فى ذلك الوقت] إلا أنه رجع فأيد المعنى وفسره تفسيرا معقولا وأثبت فيه صحة القول وهو بهذا يرد ردا واضحا على من زعم أن ذلك شرك أو كفر وعلى من زعم أن المعنى فاسد وباطل و على من زعم أن فيه قدحا فى مقام التوحيد والتنزيه ، وما هو إلا الهوى والعمى وسوء الفهم وضيق العقل فالله ينور بصائرنا ويرشدنا إلى الحق والصواب وهو الهادى إلى سواء السبيل.

قال الشيخ الإمام ابن تيمية فى الفتاوى (جـ ١١ ص ٩٦) :

و محمد سيد ولد آدم وأفضل الخلق وأكرمهم عليه ومن هنا قال من قال : إن الله خلق من أجله العالم أو أنه لولاه لما خلق عرشا ولا كرسيا ولا سماء ولا أرضا ولا شمسا ولا قمراً ، لكن ليس هذا حديثا عن النبى ﷺ لا صحيحا ولا ضعيفا ، ولم ينقله أحد من أهل العلم بالحديث عن النبى ﷺ بل ولا يعرف عن الصحابة بل هو كلام لا يدرى قائله ، ويمكن أن يفسر بوجه صحيح كقوله تعالى ﴿ سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ ، وأمثال ذلك من الآيات التى يبين فيها أنه خلق المخلوقات لبنى آدم ، ومعلوم أن لله فيها حكما عظيمة غير ذلك وأعظم من ذلك ، ولكن يبين لبنى آدم ما فيها من المنفعة وما أسبغ عليهم من النعمة .

فإذا قيل : فعل كذا لكذا لم يقتض أن لا يكون فيه حكمة أخرى ، وكذلك قول القائل : لو لا كذا ما خلق كذا لا يقتضى أن لا يكون فيه حكم أخرى عظيمة ، بل يقتضى إذا كان أفضل صالحى بنى آدم محمد ، وكانت خلقته غاية مطلوبة وحكمة بالغة مقصودة [أعظم] من غيره صار تمام الخلق ونهاية الكمال حصل بمحمد صلى الله عليه وسلم . (اهـ من الفتاوى) .

تحليل مهم لرأى ابن تيمية غاب عن عقول أتباعه

فانظر هداك الله إلى كلام الشيخ ابن تيمية وبعد نظره ، وسعة فهمه فى تفسير هذه الخصوصية التى انتشرت واشتهرت ، وجاء فيها حديث توسل آدم الذى رواه الحاكم ، والذى صححه من صححه ، وحسنه من حسنه ، وقبله من قبله ممن تقدم ذكرهم من أئمة الحديث .

وها هو الشيخ ابن تيمية هنا يقول : إن هذا الكلام له وجه صحيح فأين هذا القول من قول من أقعد الدنيا وأقامها ، وأخرج القائلين بذلك عن دائرة الإسلام ، ووصفهم بالضلال والشرك ، أو بالبدعة والتخريف ، ثم يدعى زورا وبهتانا أنه سلفى تيمى ، وهو بعيد كل البعد عن ابن تيمية ، وعن السلفية ، وليس هذا الصنيع منه فى هذه المسألة فقط ، بل الملاحظ أنه مع ابن تيمية فى كل مسألة إلا فيما فيه تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو تأييد كرامته وعظمته ومكانته ، فإنه يتوقف فيها ويفكر وينظر ، وهنا فقط تظهر عنده حماية مقام التوحيد أو حمية التوحيد ، سبحانك هذا بهتان عظيم .

الشاهد الثالث لحديث توسل آدم :

الشاهد الثالث لحديث توسل آدم هو ما أخرجه ابن المنذر فى تفسيره عن محمد بن علي بن حسين بن علي عليهم السلام قال : لما أصاب آدم الخطيئة عظم كربه واشتد ندمه فجاءه جبريل عليه السلام فقال : «يا آدم ! هل أدلك على باب توبتك الذى يتوب الله عليك منه ؟ قال : بلى يا جبريل ، قال : قم فى مقامك الذى تناجى فيه ربك فمجده وامدح ، فليس شيء أحب إلى الله من المدح ، قال : فأقول ماذا يا جبريل ؟ قال : فقل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير كله وهو على كل شيء قدير ، ثم تبوء بخطيئتك فتقول : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت رب إنى ظلمت نفسى وعملت السوء فاغفرلى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، اللهم إنى أسألك بجاه محمد عبدك وكرامته عليك أن تغفرلى خطيئتى». قال : ففعل آدم ، فقال الله : يا آدم ! من علّمك هذا ؟ فقال : يارب ! إنك لما نفخت فيّ الروح فقمت بشرا سويا أسمع وأبصر وأعقل وأنظر رأيت على ساق عرشك مكتوبا بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله ، فلما لم أر على أثر اسمك اسم ملك مقرب ، ولا نبى مرسل غير اسمه علمت أنه أكرم خلقك عليك ، قال : صدقت ، وقد تبت عليك وغفرت لك . (كذا فى الدر المنثور للسيوطى ج ١ ص ١٤٦) .

ومحمد بن علي بن الحسين هو أبو جعفر الباقر من ثقات التابعين وساداتهم خرّج له الستة ، روى عن جابر وأبى سعيد وابن عمر وغيرهم .

الشاهد الرابع لحديث توسل آدم :

الشاهد الرابع ما رواه أبو بكر الآجرى فى كتاب الشريعة قال : حدثنا هارون بن يوسف التاجر قال : حدثنا أبو مروان العثمانى قال : حدثنى أبو عثمان بن خالد عن عبدالرحمن بن أبى الزناد عن أبيه أنه قال : من الكلمات التى تاب الله بها على آدم قال : اللهم إنى أسألك بحق محمد عليك ، قال الله تعالى : وما يدريك ما محمد ؟ قال : يارب ! رفعت رأسى فرأيت مكتوبا على عرشك لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنه أكرم خلقك .
فانضمام هذا الأثر إلى حديث عبدالرحمن بن زيد يفيده قوة كما لا يخفى .

الجنة حرام على الأنبياء حتى يدخلها محمد ﷺ

ومن أمثال هذا التفضل الإلهى على حضرة النبى ﷺ ما جاء فى الحديث من كون الجنة حراما على الأنبياء حتى يدخلها نبينا ﷺ ، عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال :

«الجنة حرمت على الأنبياء وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتى» ..

(رواه الطبرانى فى الأوسط ، وقال الهيثمى : إسناده حسن) .. [مجمع الزوائد جـ ١٠ ص ٦٩] .

ارتباط الكون باسمه صلى الله عليه وسلم

ومن أمثال هذا التفضل الإلهى ما جاء فى الآثار من انتشار اسمه محمد فى الملأ الأعلى ، قال كعب الأحبار : إن الله أنزل على آدم عصيا بعدد الأنبياء والمرسلين ، ثم أقبل على ابنه شيث فقال : ابنى أنت خليفتى من بعدى فخذها بعمارة التقوى والعروة الوثقى ، وكلما ذكرت الله فاذكر إلى جنبه اسم محمد فإنى رأيت اسمه مكتوبا على ساق العرش وأنا بين الروح والطين ، ثم إنى طفت السماوات فلم أر فى السماوات موضعا إلا رأيت اسم محمد مكتوبا عليه ، وإن ربى أسكننى الجنة فلم أر فى الجنة قصرا ولا غرفة إلا اسم محمد مكتوبا عليه ، ولقد رأيت اسم محمد مكتوبا على نحور الحور العين وعلى ورق قصب آجام الجنة وعلى ورق شجرة طوبى ، وعلى ورق سدرة المنتهى ، وعلى أطراف الحجب وبين أعين الملائكة ، فأكثروا ذكره فإن الملائكة تذكره فى كل ساعاتها . اهـ (المواهب اللدنية جـ ١ ص ١٨٦) .

قال الزرقانى فى شرحه : رواه ابن عساكر .

قلت : وقد ذكر نحو هذا الخبر الشيخ ابن تيمية ، فقال : وقد روى أن الله كتب اسمه على العرش وعلى ما فى الجنة من الأبواب والقباب والأوراق ، وروى فى ذلك عدة آثار توافق هذه الأحاديث الثابتة التى تبين التنويه باسمه وإعلاء ذكره حينئذ .

وفى رواية لابن الجوزى عن ميسرة قال : قلت : يارسول الله ! متى كنت نبيا ؟

قال :

«لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وخلق العرش كتب على ساق العرش محمد رسول الله خاتم الأنبياء وخلق الله الجنة التى أسكنها آدم وحواء فكتب اسمى على الأبواب والأوراق والقباب والخيام وآدم بين الروح والجسد ، فلما أحياه الله تعالى ، نظر إلى العرش فرأى اسمى فأخبره الله أنه سيد ولدك ، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمى إليه» .

اهـ (الفتاوى جـ٢ ص ١٥٠) .

فوائد مهمة من حديث توسل آدم :

وفى الحديث التوسل برسول الله ﷺ قبل أن يتشرف العالم بوجوده فيه وأن المدار فى صحة التوسل على أن يكون للمتوسل به القدر الرفيع عند ربه عز وجل وأنه لا يشترط كونه حيا فى دار الدنيا .

ومنه يعلم أن القول بأن التوسل لا يصح بأحد إلا وهو حى فى دار الدنيا قول من اتبع هواه بغير هدى من الله .

حاصل البحث فى درجة الحديث :

والحاصل أن هذا الحديث صححه بشواهده[٧] ونقله جماعة من فحول العلماء وأئمة الحديث وحفاظه الذين لهم مقامهم المعروف ومكانتهم العالية وهم الأمناء على السنة النبوية فمنهم الحاكم والسيوطى والسبكى والبلقينى .

ونقله البيهقى فى كتابه الذى شرط فيه أن لا يخرج الموضوعات ، والذى قال فيه الذهبى : عليك به فإنه كله هدى ونور . [كذا فى شرح المواهب وغيره] .

وذكره ابن كثير فى البداية واستشهد به ابن تيمية فى الفتاوى ، وكون العلماء اختلفوا فيه فرده بعضهم وقبله البعض ليس بغريب لأن كثيرا من الأحاديث النبوية جرى فيها الخلاف بأكثر من هذا وانتقدها النقاد بأعظم من هذا .

وبسبب ذلك ظهرت هذه المؤلفات العظيمة ، وفيها الاستدلالات والتعقبات والمراجعات والمؤاخذات ، ولم يصل ذلك إلى الرمى بالشرك والكفر والضلال والخروج عن دائرة الإيمان لأجل الاختلافات فى درجة حديث من الأحاديث ، وهذا الحديث من جملة تلك الأحاديث[٨] .

(٧ - ٨) أنظر الملحق آخر الكتاب رقم ٧ /٨ .

توسل اليهود به ﷺ

قال تعالى : ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾ .

قال القرطبى : قوله تعالى : ولما جاءهم ـ يعنى اليهود ـ كتاب ـ يعنى القرآن ـ من عند الله مصدق ـ نعت لكتاب ويجوز فى غير القرآن نصبه على الحال وكذلك هو فى مصحف أبى بالنصب فيما روى ـ لما معهم ـ يعنى التوراة والإنجيل يخبرهم بما فيها ـ وكانوا من قبل يستفتحون ـ أى يستنصرون ، والاستفتاح : الاستنصار استفتحت استنصرت ، وفى الحديث كان النبى ﷺ يستفتح بصعاليك المهاجرين أى يستنصر بدعائهم وصلاتهم . ومنه :

فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده ، والنصر فتح شىء مغلق فهو يرجع إلى قولهم : فتحت الباب .

وروى النسائى عن أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال :

إنما نصر الله هذه الأمة بضعائفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم» ..

وروى النسائى أيضا عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

أبغونى الضعيف فإنكم إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم» ..

قال ابن عباس : كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فلما التقوا هزمت يهود فدعت يهود بهذا الدعاء ، وقالوا : إنا نسألك بحق النبى الأمى الذى وعدتنا أن تخرجه لنا فى آخر الزمان أن تنصرنا عليهم ، قال : فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان ، فلما بعث النبى ﷺ كفروا ، فأنزل الله تعالى : ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ أى بك يا محمد إلى قوله : ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ . تفسير القرطبى (جـ ٢ ص ٢٦ و ٢٧)[٩] .

* * *

التوسل بالنبى ﷺ فى حياته وبعد وفاته

عن عثمان بن حنيف رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ وجاءه رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره ، فقال : يارسول الله ! ليس لى قائد وقد شق علىَّ ، فقال رسول الله ﷺ :

«ائت الميضاة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل اللهم إنى أسئلك وأتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ نبى الرحمة يامحمد إنى أتوجه بك إلى ربك فيجلى لى عن بصرى ، اللهم شفعه فىَّ وشفعنى فى نفسى ، قال عثمان : فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل الرجل وكأنه لم يكن به ضر» ..

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وقال الذهبى عن الحديث : أنه صحيح (ج ١ ص ٥١٩) .

وقال الترمذى في أبواب الدعوات آخر السنن : هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي جعفر وهو غير الخطمى .

قلت : والصواب أن أباجعفر هو الخطمي المدني كما جاء مصرحا به في روايات الطبراني والحاكم والبيهقي ، وزاد الطبراني في المعجم الصغير أن اسمه عمير ابن يزيد وأنه ثقة ، قال العلامة المحدث الغماري في رسالته «اتحاف الأذكيا» : وليس من المعقول أن يجمع الحفاظ على تصحيح حديث في سنده مجهول خصوصاً الذهبي والمنذري والحافظ .

قال المنذرى : ورواه أيضا النسائى وابن ماجه وابن خزيمه فى صحيحه . (كذا فى الترغيب كتاب النوافل باب الترغيب فى صلاة الحاجة (ج ١ ص ٤٣٨).

وليس هذا خاصا بحياته ﷺ بل قد استعمل بعض الصحابة هذه الصيغة من التوسل بعد وفاته ﷺ فقد روى الطبرانى هذا الحديث وذكر فى أوله قصة وهى أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه فى حاجة له ، وكان عثمان رضى الله عنه لا يلتفت إليه ولا ينظر فى حاجته ، فلقى الرجل عثمان ابن حنيف فشكا ذلك إليه ، فقال له عثمان بن حنيف : ائت الميضاة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل :

اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد ﷺ نبى الرحمة ، يامحمد ! إنى أتوجه بك إلى ربك فيقضى حاجتى . وتذكر حاجتك ..

فانطلق الرجل فصنع ما قال له ، ثم أتى باب عثمان فجاء البواب حتى أخذه بيده فأدخله على عثمان فأجلسه معه على الطنفسة وقال : ماحاجتك ؟ فذكر حاجته فقضاها له ، ثم قال : ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة ثم قال : ما كانت لك حاجة فائتنا ، ثم إن الرجل لما خرج من عنده لقى عثمان ابن حنيف وقال له : جزاك الله خيرا ما كان ينظر فى حاجتى ولا يلتفت إلىَّ حتى كلمته فىَّ ، فقال عثمان بن حنيف : والله ما كلمته ، ولكن شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره ، فقال له النبى ﷺ :

أو تصبر ؟ فقال : يارسول الله ! ليس لى قائد ، وقد شق علىَّ ، فقال له النبى :

«إئت الميضاة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات ، فقال عثمان ابن حنيف : فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط» ..

قال المنذرى : رواه الطبرانى ، وقال بعد ذكره : والحديث صحيح . (كذا فى الترغيب ، [ج ١ ص ٤٤٠ وكذا فى مجمع الزوائد ج ٢ ص ٢٧٩] .

وقال الشيخ ابن تيمية : قال الطبرانى روى هذا الحديث شعبة عن أبى جعفر واسمه عمر بن يزيد وهو ثقة تفرد به عثمان بن عمر عن شعبة ، قال أبو عبدالله المقدسى : والحديث صحيح .

قلت : قال الشيخ ابن تيمية : ذكر تفرده بمبلغ علمه ولم تبلغه رواية روح ابن عبادة عن شعبة ، وذلك إسناد صحيح يبين أنه لم ينفرد به عثمان بن عمر (اهـ . التوسل والوسيلة ص ١٠١) .

وبهذا ظهر أن هذه القصة صححها الحافظ الطبرانى والحافظ أبو عبدالله المقدسى ، ونقل ذلك التصحيح الحافظ المنذرى والحافظ نور الدين الهيثمى والشيخ ابن تيمية(١٠) .

وحاصل القصة أن عثمان بن حنيف الراوى للحديث المشاهد للقصة

---

(١٠) أنظر الملحق فى آخر الكتاب رقم ١٠ .

علم من شكا إليه إبطاء الخليفة عن قضاء حاجته هذا الدعاء الذى فيه التوسل بالنبى ﷺ والنداء له مستغيثا به بعد وفاته ﷺ ، ولما ظن الرجل أن حاجته قضيت بسبب كلام عثمان مع الخليفة ، بادر ابن حنيف بنفى ذلك الظن وحدثه بالحديث الذى سمعه وشهده ليثبت له أن حاجته إنما قضيت بتوسله به ﷺ وندائه له واستغاثته به ، وأكد ذلك له بالحلف أنه ما كلم الخليفة فى شأنه .

استعمال آخر وتأييد ابن تيميّة له

روى ابن أبى الدنيا فى كتاب مجابى الدعاء قال : حدثنا أبو هاشم سمعت كثير بن محمد بن كثير بن رفاعة يقول : جاء رجل إلى عبدالملك بن سعيد ابن أبجر فجس بطنه فقال : بك داء لا يبرأ ، قال : ما هو ؟ قال : الدُّبَيْلَة ، وهى خرّاج ودمل كبير تظهر فى الجوف فتقتل صاحبها غالبا ، قال : فتحول الرجل فقال : اللّه اللّه ، اللّه ربى لا أشرك به شيئا ، اللهم إنى أتوجه إليكِ بنبيك محمد نبىّ الرحمة ﷺ ، يامحمد إنى أتوجه بك إلى ربك وربّى يرحمنى ممّا بى . قال : فجس بطنه فقال : قد برئت ، ما بك علة .

قال الشيخ ابن تيمية : قلت : فهذا الدعاء ونحوه قد روي أنه دعا به السّلف . اهـ [رواه الشيخ ابن تيمية فى قاعدة جليلة ص ٩٤] .

ومعلوم أن ابن تيمية أورد هذا الخبر ليبين به مقصوده ويوجهه كما يريد ، ولكن الذى يهمنا هنا هو أنه أثبت استعمال السلف لذلك وحصول الشفاء به ، وهذا القدر من المسألة هو الذى يهمنا ، أما تعليقه عليه فهذا رأيه هو، ونحن لا يهمنا إلا ثبوت النص فقط لنستدل به على ما نريد ، وهو له أن يستدل به كما يريد .

[محاولات يائسة]

وقد طنطن ودندن بعضهم حول حديث توسل آدم وعثمان بن حنيف وغيره ، وبذل جهده فى ردّها بكل ما أوتي من قوة ، وحاول وحاور وجادل وقام وقعد وأرغى وأزبد فى هذا الموضوع ، وكل ذلك لا فائدة منه لأنه مهما حاول ردّ الأحاديث الواردة فى هذا الباب فقد قال ساداته من العلماء الكبار كلمتهم وهم أوفر منه عقلا وأوسع علما وأطول باعا وأعمق فهما وأكثر نورا وتقوى وإخلاصا ، مثل الإمام أحمد بن حنبل ، وهو يقول بالتوسل كما نقله عنه ابن تيمية والعز ابن عبدالسلام ، وابن تيمية نفسه فى قول له بالتوسل بالنبى ﷺ خاصة ، ثم نهاية المطاف عند الشيخ محمد بن عبدالوهاب الذى أنكر على من نسب القول إليه بتكفير المتوسلين ، بل وصرح فى فتاواه بأن التوسل من الفروع ، لا من الأصول وكل ذلك سيأتى مفصلا إن شاء الله فى هذا الكتاب .

هذا وقد صنف الشيخ العلامة المحدث عبدالله الغمارى رسالة خاصة فى الكلام عن هذا الحديث سماها «مصباح الزجاجة فى صلاة الحاجة» ، أجاد فيها وأفاد وأتى بما يشفى ويكفى ويغنى ، جزاه الله خير الجزاء .

التوسل به ﷺ فى عرصات يوم القيامة

أما التوسل به فى عرصات يوم القيامة فلا حاجة للاطالة فيه فإن أحاديث الشفاعة بلغت مبلغ التواتر وكل ذلك فيه النصوص الصريحة التى تفيد بأن أهل الموقف إذا طال عليهم الوقوف واشتد الكرب استغاثوا فى تفريج كربتهم بالأنبياء فيستغيثون بآدم ثم بنوح ثم بإبراهيم ثم بموسى ثم بعيسى فيحيلهم على سيد المرسلين حتى إذا استغاثوا به ﷺ ، سارع إلى إغاثتهم وأسعف طلبتهم ، وقال : أنا لها أنا لها ، ثم يخر ساجدا ولا يزال كذلك حتى ينادى أن ارفع رأسك واشفع تشفع .

فهذا إجماع من الأنبياء والمرسلين وسائر المؤمنين وتقرير من رب العالمين بأن الاستغاثة عند الشدائد بأكابر المقربين من أعظم مفاتيح الفرج ومن موجبات رضى رب العالمين .

مشروعية التوسل على طريقة الشيخ ابن تيمية

يقول الشيخ ابن تيمية فى كتابه [قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة] عند الكلام على قوله تعالى : ﴿يأأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾ ، فابتغاء الوسيلة إلى الله سبحانه وتعالى إنما يكون لمن توسل إلى الله بالإيمان بمحمد وإتباعه ، وهذا التوسل بالإيمان به وبطاعته فرض على كل أحد فى كل حال باطنا وظاهرا فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد موته فى مشهده ومغيبه لا يسقط التوسل بالإيمان به وبطاعته عن أحد من الخلق فى حال من الأحوال بعد قيام الحجة عليه ولا بعذر من الأعذار ولا طريق إلى كرامة الله ورحمته والنجاة من هوانه وعذابه إلا بالتوسل به وبطاعته وهو صلى الله عليه وسلم شفيع الخلائق ، صاحب المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون فهو أعظم الشفعاء قدرا وأعلاهم جاها عند الله ، وقال تعالى عن موسى : ﴿وكان عند الله وجيها﴾ ، وقال عن المسيح : ﴿وجيها فى الدنيا والآخرة﴾ ، ومحمد ﷺ أعظم جاها من الأنبياء والمرسلين ، ولكن شفاعته ودعاؤه إنما ينتفع به من شفع له الرسول ودعا له فمن دعا له الرسول وشفع له توسل إلى الله بشفاعته ودعائه كما كان أصحابه يتوسلون إلى الله بدعائه وشفاعته وكما يتوسل الناس يوم القيامة إلى الله تعالى بدعائه وشفاعته صلى الله عليه وآله وسلم تسليما .

وفى الفتاوى الكبرى : سئل شيخ الإسلام رحمه الله هل يجوز التوسل بالنبى ﷺ أم لا ؟ فأجاب : الحمد لله ، أما التوسل بالإيمان به ومحبته وطاعته والصلاة والسلام عليه وبدعائه وشفاعته ونحو ذلك مما هو من أفعاله وأفعال العباد المأمور بها فى حقه فهو مشروع بإتفاق المسلمين .

[الفتاوى الكبرى ج ١ ص ١٤٠] .

قلت : فيستفاد من كلام الشيخ ابن تيمية أمران :

الأول :

أن المسلم المطيع المحب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المتبع له

المصدق بشفاعته يشرع له أن يتوسل بطاعته ومحبته وتصديقه ذلك .

وإننا إذا توسلنا بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم فالله يشهد أننا إنما نتوسل بالإيمان به وبمحبته وبفضله، وشرفه فهذا هو المقصود الأصلى من التوسل ولا يتصور أن يتوسل أحد بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم لغير هذا المعنى ، ولا يمكن أن يكون سوى ذلك من جميع المسلمين المتوسلين ، غير أن المتوسل قد يصرح به وقد لا يصرح اعتمادا على المقصود الأصلى من التوسل الذى هو الإيمان بالنبى ومحبته صلى الله عليه وآله وسلم لا غير .

الثانى :

مما يستفاد من كلام الشيخ ابن تيمية أن من دعا له الرسول ﷺ صح له أن يتوسل إلى الله بدعائه ﷺ له ، وقد جاء أنه ﷺ قد دعا لأمته كما ثبت ذلك فى أحاديث كثيرة .

منها : عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت لما رأيت من النبى ﷺ طيب النفس ، قلت : يارسول الله ! أدع الله لى ، فقال :

«اللهم اغفر لعائشة ما تقدم من ذنبها وما تأخر وما أسرت وما أعلنت فضحكت عائشة حتى سقط رأسها فى حجرها من الضحك ، فقال لها رسول الله ﷺ أيسرك دعائى ، فقالت : وما لى لا يسرنى دعاؤك ، فقال ﷺ : إنها لدعائى لأمتى فى كل صلاة» .

رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن منصور الرمادى وهو ثقة ، (كذا فى مجمع الزوائد) ، لذا فإنه يصح لكل مسلم أن يتوسل إلى الله سبحانه وتعالى بذلك فيقول : اللهم إن نبيك محمدا ﷺ قد دعا لأمته وأنا من أفراد هذه الأمة فأتوسل إليك بهذا الدعاء أن تغفر لى وأن ترحمنى إلى آخر ما يريد ، فإذا قال ذلك لم يخرج عن الأمر المتفق عليه بين كافة علماء المسلمين ، فإن قال : اللهم إنى أتوسل إليك بنبيك محمد ﷺ فقد فاته التصريح بما ينويه وبيان ما ينعقد عليه قلبه وهو مقصود كل مسلم ومراده لا يخرج عن هذا الحد لأن المتوسل بالنبى ﷺ لا يقصد بذلك إلا تلك المعانى المتعلقة بذاته ﷺ من محبة وقربة وجاه ورتبة وفضل ودعاء وشفاعة ، خصوصا وأنه صلى الله عليه وسلم فى برزخه

يسمع الصلاة والسلام ويرد على ذلك بما يليق ويناسب من سلام وإستغفار لما قد جاء فى الحديث عن النبى ﷺ :

«حياتى خير لكم ومماتى خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، تعرض أعمالكم علىَّ فإن وجدتُ خيرا حمدت الله ، وإن وجدت شرا استغفرت الله لكم».

رواه الحافظ إسماعيل القاضى فى جزء الصلاة على النبى ﷺ ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد وصححه بقوله : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح كما سيأتى.

وهذا صريح بأنه صلى الله عليه وسلم يستغفر للأمة فى برزخه والاستغفار دعاء والأمة تنتفع بذلك

وجاء فى الحديث أن النبى ﷺ قال :

«ما من أحد يسلم علىَّ إلا رد الله علىَّ روحى حتى أرد السلام» ..

رواه أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال النووى : إسناده صحيح .

فهذا صريح بأن النبى ﷺ يرد السلام على المسلم ، والسلام هو الأمان فهو دعاء بالأمان للمسلم وهو ينتفع بذلك .

* * *

مشروعية التوسل بالنبى ﷺ خاصة عند الإمام أحمد بن حنبل وابن تيمية

على أن الشيخ ابن تيمية فى بعض المواضع من كتبه أثبت جواز التوسل بالنبى ﷺ دون تفريق أو تفصيل بين حياته وموته وحضوره وغيابه ، ونقل عن الإمام أحمد والعز بن عبدالسلام جواز ذلك فى الفتاوى الكبرى .

قال الشيخ : وكذلك مما يشرع التوسل به صلى الله عليه وسلم فى الدعاء

كما فى الحديث الذى رواه الترمذى وصححه :

«أن النبى ﷺ علم شخصا أن يقول : اللهم إنى أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد ﷺ نبى الرحمة يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربك فيجلى حاجتى ليقضيها فشفعه فىَّ» ..

فهذا التوسل به حسن . اهـ (الفتاوى ج ٣ ص ٢٧٦) .

وقال أيضا : والتوسل إلى الله بغير نبينا ﷺ سواء سمى استغاثة أو لم يسم لا نعلم أحدا من السلف فعله ولا روى فيه أثارا ولا نعلم فيه إلا ما أفتى به الشيخ من المنع ، وأما التوسل بالنبى ﷺ ففيه حديث فى السنن ، رواه النسائى والترمذى وغيرهما : أن أعرابيا أتى النبى ﷺ فقال : يارسول الله ! إنى أصبت فى بصرى فادع الله لى ، فقال له النبى ﷺ :

«توضأ وصل ركعتين ، ثم قل : اللهم أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد يامحمد إنى أتشفع بك فى رد بصرى اللهم شفع نبيك فىَّ ، وقال : فإن كانت لك حاجة فمثل ذلك . فرد الله بصره» ..

فلأجل هذا الحديث استثنى الشيخ التوسل به . اهـ

(الفتاوى ج ١ ص ١٠٥)

وقال الشيخ ابن تيمية أيضا فى موضع آخر :

ولذلك قال أحمد فى منسكه الذى كتبه للمروزى صاحبه : أنه يتوسل بالنبى ﷺ فى دعائه ، ولكن غير أحمد قال : إن هذا إقسام على الله به ، ولا يقسم على الله بمخلوق ، وأحمد فى إحدى الروايتين قد جوَّز القسم به ، فلذلك جوَّز التوسل به .

(ج ١ ص ١٤٠ من الفتاوى)

* * *

جواز التوسل عند الإمام الشوكانى

قال الإمام المحدث السلفى الشيخ محمد بن على الشوكانى فى رسالته (الدر النضيد فى إخلاص كلمة التوحيد) : أما التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بأحد من خلقه فى مطلب يطلب العبد من ربه فقد قال الشيخ عز الدين ابن عبد السلام : إنه لا يجوز التوسل إلى الله تعالى إلا بالنبى ﷺ إن صح الحديث فيه . ولعله يشير إلى الحديث الذى أخرجه النسائى فى سننه والترمذى وصححه ابن ماجه وغيرهم أن أعمى أتى النبى ﷺ فذكر الحديث ، قال : وللناس فى معنى هذا قولان : أحدهما أن التوسل هو الذى ذكره عمر بن الخطاب لما قال : كنا إذا أجدبنا نتوسل بنبينا إليك فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا هو فى صحيح البخارى وغيره ، فقد ذكر عمر رضى الله عنه أنهم كانوا يتوسلون بالنبى ﷺ فى حياته فى الاستسقاء ثم توسل بعمه العباس بعد موته وتوسلهم هو استسقاؤهم بحيث يدعو ويدعون معه فيكون هو وسيلتهم إلى الله تعالى والنبى ﷺ كان فى مثل هذا شافعا وداعيا لهم .

والقول الثانى : أن التوسل به ﷺ يكون فى حياته وبعد موته وفى حضرته ومغيبه ، ولا يخفاك أنه قد ثبت التوسل به ﷺ فى حياته ، وثبت التوسل بغيره بعد موته بإجماع الصحابة إجماعا سكوتيا لعدم إنكار أحد منهم على عمر رضى الله عنه فى توسله بالعباس رضى الله عنه ، وعندى أنه لا وجه لتخصيص جواز التوسل بالنبى ﷺ كما زعمه الشيخ عز الدين بن عبد السلام لأمرين :

الأول : ماعرفناك به من إجماع الصحابة رضى الله تعالى عنهم .

والثانى : أن التوسل إلى الله بأهل الفضل والعلم هو فى التحقيق توسل بأعمالهم الصالحة ومزاياهم الفاضلة إذ لا يكون فاضلا إلا بأعماله ، فإذا قال القائل : اللهم إنى أتوسل إليك بالعالم الفلانى فهو بإعتبار ما قام به من العلم ، وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما أن النبى ﷺ حكى عن الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة أن كل واحد منهم توسل إلى الله بأعظم عمل عمله فارتفعت الصخرة ، فلو كان التوسل بالأعمال الفاضلة غير جائز أو كان شركا كما زعمه المتشددون

فى هذا الباب كابن عبد السلام ، ومن قال بقوله من أتباعه لم تحصل الاجابة لهم ولا سكت النبى ﷺ عن إنكار ما فعلوه بعد حكايته عنهم ، وبهذا تعلم أن ما يورده المانعون من التوسل بالأنبياء والصلحاء من نحو قوله تعالى : ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ ، ونحو قوله تعالى : ﴿فلا تدعوا مع الله أحدا﴾ ، ونحو قوله تعالى : ﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء﴾ . ليس بوارد بل هو من الاستدلال على محل النزاع بما هو أجنبى عنه ، فإن قولهم : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، مصرح بأنهم عبدوهم لذلك ، والمتوسل بالعالم مثلا لم يعبده بل علم أن له مزية عند الله بحمله العلم فتوسل به لذلك ، وكذلك قوله : ﴿فلا تدعوا مع الله أحدا﴾ فإنه نهى عن أن يدعى مع الله غيره كأن يقول بالله وبفلان ، والمتوسل بالعالم مثلا لم يدع إلا الله فإنما وقع منه التوسل عليه بعمل صالح عمله بعض عباده كما توسل الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة بصالح أعمالهم ، وكذلك قوله : ﴿والذين يدعون من دونه﴾ الآية .

فإن هؤلاء دعوا من لا يستجيب لهم ولم يدعوا ربهم الذى يستجيب لهم ، والمتوسل بالعالم مثلا لم يدع إلا الله ولم يدع غيره دونه ولا دعاء غيره معه ، فإذا عرفت هذا لم يخف عليك دفع ما يورده المانعون للتوسل من الأدلة الخارجة عن محل النزاع خروجا زائدا على ما ذكرناه كإستدلالهم بقوله تعالى : ﴿وما أدراك ما يوم الدين ، ثم ما أدراك ما يوم الدين ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله﴾ . فإن هذه الآية الشريفة ليست فيها دلالة إلا أنه تعالى هو المنفرد بالأمر فى يوم الدين وأنه ليس لغيره من الأمر شىء ، والمتوسل بنبى من الأنبياء أو عالم من العلماء هو لا يعتقد أن لمن توسل به مشاركة لله جل جلاله فى أمر يوم الدين ، ومن اعتقد هذا لعبد من العباد سواء كان نبيا أو غير نبى فهو فى ضلال مبين ، وهكذا الإستدلال على منع التوسل بقوله : ﴿ليس لك من الأمر شىء﴾ قل ﴿لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا﴾ فإن هاتين الآيتين مصرحتان بأنه ليس لرسول الله ﷺ من أمر الله شىء وأنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فكيف يملك لغيره ، وليس فيهما منع التوسل به اوبغيره من الأنبياء أو الأولياء أو العلماء ، وقد جعل الله

لرسول الله ﷺ المقام المحمود مقام الشفاعة العظمى وأرشد الخلق إلى أن يسألوه ذلك ويطلبوه منه ، وقال له : سل تعطه واشفع تشفع ، وقيل ذلك فى كتابه العزيز بأن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه ولا تكون إلا لمن ارتضى ، وهكذا الاستدلال على منع التوسل بقوله ﷺ لما نزل قوله تعالى : ﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾ : يا فلان بن فلان لا أملك لك من الله شيئا ، يا فلانة بنت فلان لا أملك لك من الله شيئا ، فإن هذا ليس فيها إلا التصريح بأنه ﷺ لا يستطيع نفع من أراد الله ضره ولا ضر من أراد الله تعالى نفعه ، وأنه لا يملك لأحد من قرابته فضلا عن غيرهم شيئا من الله ، وهذا معلوم لكل مسلم ، وليس فيه أنه لا يتوسل به إلى الله فإن ذلك هو طلب الأمر ممن له الأمر والنهى وإنما أراد الطالب أن يقدم بين يدى طلبه ما يكون سببا للإجابة ممن هو المنفرد بالعطاء والمنع وهو مالك يوم الدين . انتهى كلام الشوكانى .

* * *

الشيخ محمد بن عبد الوهاب يقول بجواز التوسل

سئل الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن قولهم فى الاستسقاء : [(لا بأس بالتوسل بالصالحين) وقول أحمد : (يتوسل بالنبى ﷺ خاصة) مع قولهم : إنه لا يستغاث بمخلوق] ؟

فقال : فالفرق ظاهر جدا ، وليس الكلام مما نحن فيه ، فكون بعض يرخص بالتوسل بالصالحين ، وبعضهم يخصه بالنبى ﷺ ، وأكثر العلماء ينهى عن ذلك ويكرهه ، فهذه المسألة من مسائل الفقه ، وإن كان الصواب عندنا قول الجمهور من أنه مكروه ، فلا ننكر على من فعله ، ولا إنكار فى مسائل الاجتهاد ، ولكن إنكارنا على من دعا لمخلوق أعظم مما يدعو الله تعالى ويقصد القبر يتضرع عند ضريح الشيخ عبد القادر أو غيره يطلب فيه تفريج الكربات وإغاثة اللهفات وإعطاء الرغبات ، فأين هذا ممن يدعو الله مخلصا له الدين لا يدعو مع الله أحدا ولكن يقول فى دعائه : أسألك بنبيك أو بالمرسلين أو بعبادك الصالحين ،

أو يقصد قبرا معروفا أو غيره يدعو عنده ، لكن لا يدعو إلا الله مخلصا له الدين فأين هذا مما نحن فيه .

(انتهى من فتاوى الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب فى مجموعة المؤلفات القسم الثالث ص ٦٨ التى نشرتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فى أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب) .
وهذا يدل على جواز التوسل عنده غاية ما يرى أنه مكروه فى رأيه عند الجمهور ، والمكروه ليس بحرام فضلا عن أن يكون بدعة أو شركا .

الشيخ محمد بن عبدالوهاب يتبرأ عمّن يكفر المتوسلين

وقد جاء عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب فى رسالته الموجهة لأهل القصيم الإستنكار الشديد على من نسب إليه تكفير المتوسل بالصالحين ، وقال : إن سليمان بن سحيم إفترى عليَّ أمورا لم أقلها ، ولم يأت أكثرها على بالى ، فمنها : أنى أكفر من توسل بالصالحين ، وأنى أكفر البوصيرى لقوله : يا أكرم الخلق ، وأنى أحرق دلائل الخيرات .

وجوابى عن هذه المسائل : أنى أقول سبحانك هذا بهتان عظيم .

وجاء أيضا تأييد قوله هذا فى رسالة أخرى له بعثها إلى أهل المجمعة يقول فيها : إذا تبين هذا فالمسائل التى شنع بها ، منها ما هو من البهتان الظاهر ، وهو قوله : أنى أكفر من توسل بالصالحين ، وأنى أكفر البوصيرى إلى آخر ما قال ، ثم قال : وجوابى فيها أن أقول سبحانك هذا بهتان عظيم .
[أنظر الرسالة الأولى والحادية عشرة من رسائل الشيخ محمد بن عبدالوهاب القسم الخامس ١٢ وص ٦٤] .



التوسـل بآثاره ﷺ

ثبت أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يتبركون بآثاره ﷺ وهذا التبرك ليس له إلا معنى واحد ألا وهو التوسل بآثاره إلى الله تعالى لأن التوسل يقع على وجوه كثيرة لا على وجه واحد .

أفتراهم يتوسلون بآثاره ولا يتوسلون به ؟

هل يصح أن يتوسل بالفرع ولا يصح بالأصل ؟ .

هل يصح أن يتوسل بالأثر الذى ما شرف ولا عظم وكرم إلا بسبب صاحبه محمد ﷺ ، ثم يقول قائل : إنه لا يصح أن يتوسل به ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم ! .

والنصوص الواردة فى هذا الباب كثيرة جدا نقتصر على أشهرها ، فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يحرص كل الحرص على أن يدفن بقرب رسول الله ﷺ لما حضرته الوفاة فيبعث ولده عبد الله ليستأذن السيدة عائشة فى ذلك وإذا بالسيدة عائشة تعلن أنها كانت تريد هذا المكان لنفسها ، فتقول كنت أريده لنفسى ولأوثرنه على نفسى فيذهب عبد الله ويبشر أباه بهذه البشارة العظيمة وإذا بعمر يقول : الحمد لله ما كان شيء أهم إلىَّ من ذلك . وانظر تفصيل القصة فى البخارى فما معنى هذا الحرص من عمر ومن عائشة ؟ .

ولماذا كان الدفن بقرب رسول الله ﷺ أهم شيء وأحب شيء إلى عمر ؟ ليس لذلك تفسير إلا التوسل بالنبى ﷺ بعد وفاته بالتبرك بالقرب منه .

وهذه أم سليم تقطع فم القربة التى شرب منها رسول الله ﷺ يقول أنس فهو عندنا .

وهؤلاء الصحابة يتسابقون لأخذ شعرة واحدة من شعر رأسه لما حلقه .

وهـذه أسماء بنت أبى بكـر تحتفـظ بجبـة رسول اللـه ﷺ وتقـول : فنحـن نغسلها للمرضى نستشفى بها .

وهذا خاتم رسول الله ﷺ يحتفظ به بعده أبو بكر وعمر وعثمان ثم يسقـط منه فى البئر .

وكل هذه الأحاديث ثابتـة وصحيحـة كما ذكرنـاه فى مبـحث التبرك والـذى نريد أن نقولـه هو أننـا نتساءل لماذا هذه المحافظـة منهم رضى اللـه تعـالى عنهم على آثار النبى صلى الله عليه وسلم .

[فم القربة ، الشعر ، العـرق ، الجبـة ، الخاتم ، المصلى] فمـا مقصودهـم من ذلك أهى الذكرى مجرد الذكرى أم هى المحافظة على الآثار التاريخيـة لوضعهـا فى المتحـف ، فإن كانت الأولى فلمـاذا يعتنـون بها عنـد الدعـاء والتوجـه إلى اللـه إذا أصابهم البلاء أو المرض ، وإذا كانت الثانية فأيـن هذا المتحـف ومـن أيـن جاءتهم هذه الفكرة المبتدعة ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

لم يبق إلا الـتبرك بآثـاره ﷺ للتـوسل بها إلى اللـه فى الدعـاء لأن اللـه هو المعطى وهو المسؤول والكل عبيده وتحت أمره لا يملكون شيئا لأنفسهـم فضلا عن غيرهم إلا بإذن الله سبحانه وتعالى .



التوسل بآثار الأنبياء

قال تعالى : ﴿وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ الآية من سورة البقرة .

قال الحافظ ابن كثير فى التاريخ : قال ابن جرير عن هذا التابوت : وكانوا إذا قاتلوا أحدا من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذى كان فى قبة الزمان كما تقدم ذكره ، فكانوا ينصرون ببركته وبما جعل الله فيه من السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، فلما كان فى بعض حروبهم مع أهل غزة وعسقلان غلبوهم وقهروهم على أخذه فانتزعوه من أيديهم اهـ .
قال ابن كثير : وقد كانوا ينصرون على أعدائهم بسببه ، وكان فيه طست من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء اهـ (البداية ج ٢ ص ٨) .

وقال ابن كثير فى التفسير : كان فيه عصا موسى وعصا هارون ولوحان من التوراة وثياب هارون ومنهم من قال : العصا والنعلان اهـ .
[تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣١٣] .

وقال القرطبى : والتابوت كان من شأنه فيما ذكر أنه أنزله الله على آدم عليه السلام فكان عنده إلى أن وصل إلى يعقوب عليه السلام فكان فى بنى إسرائيل يغلبون به من قاتلهم حتى عصوا فغلبوا على التابوت غلبهم عليه العمالقة وسلبوا التابوت منهم . اهـ . (تفسير القرطبى ج ٣ ص ٢٤٧) .

وهذا فى الحقيقة ليس إلا توسلا بآثار أولئك الأنبياء إذ لا معنى لتقديمهم التابوت بين أيديهم فى حروبهم إلا ذلك والله سبحانه وتعالى راض عن ذلك بدليل أنه رده إليهم وجعله علامة وآية على صحة ملك طالوت ولم ينكر عليهم ذلك الفعل .

* * *

توسل النبى ﷺ بحقه وحق الأنبياء والصالحين

جاء فى مناقب فاطمة بنت أسد أم علي بن أبى طالب إنها لما ماتت حفر رسول الله ﷺ لحدها بيده وأخرج ترابه بيده فلما فرغ دخل رسول الله ﷺ فاضطجع فيه فقال :

«الله الذى يحي ويميت وهو حى لا يموت اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى فإنك أرحم الراحمين . وكبر عليها أربعا وأدخلوها اللحد هو والعباس وأبو بكر الصديق رضى الله عنهم» .. رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط . وفيه روح بن صلاح وثقه ابن حبان والحاكم ، وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح . [كذا بمجمع الزوائد ج ٩ ص ٢٥٧] .

واختلف بعضهم فى [روح بن صلاح] أحد رواته ، ولكن ابن حبان ذكره فى الثقات ، وقال الحاكم : ثقة مأمون ، وكلا الحافظين صحح الحديث ، وهكذا الهيثمى فى [مجمع الزوائد] ورجاله رجال الصحيح[١١] .

ورواه كذلك ابن عبد البر عن ابن عباس ، وابن أبى شيبة عن جابر ، وأخرجه الديلمى وأبو نعيم ، فطرقه يشد بعضه بعضا بقوة وتحقيق[١٢] .

قال الشيخ الحافظ الغمارى في إتحاف الأذكياء ص ٢٠ : وروح هذا ضعفه خفيف عند من ضعفه كما يستفاد من عباراتهم ، ولذا عبر الحافظ الهيثمى بما يفيد خفة الضعف كما لايخفى على من مارس كتب الفن . فالحديث لا يقل عن رتبة الحسن بل هو على شرط ابن حبان صحيح .

ونلاحظ هنا أيضا أن الأنبياء الذين توسل النبى ﷺ بحقهم على الله فى هذا الحديث وغيره قد ماتوا فثبت جواز التوسل إلى الله [بالحق] وبأهل الحق أحياء وموتى .

(١١ - ١٢) أنظر الملحق آخر الكتاب رقم ١١ /١٢ .

توسل النبي ﷺ بحق السائلين

عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من خرج من بيته إلى الصلاة ، فقال : اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا فإنى لم أخرج اشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة ، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، فأسألك أن تعيذنى من النار ، وأن تغفرلى ذنوبى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، أقبل الله بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك .

قال المنذرى فى الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١١٩ : رواه ابن ماجه بإسناد فيه مقال ، وحسنه شيخنا الحافظ أبو الحسن .

وقال الحافظ ابن حجر فى نتائج الأفكار ج ١ ص ٢٧٢ : هذا حديث حسن ، أخرجه أحمد وابن خزيمة فى كتاب التوحيد ، وأبو نعيم وابن السنى .

وقال العراق فى تخريج أحاديث الاحياء ج ١ ص ٣٢٣ عن الحديث : بأنه حسن.

وقال الحافظ البوصيرى فى زوائد ابن ماجه المسمى «بمصباح الزجاجة» ج ١ ص ٩٨ : رواه ابن خزيمة فى صحيحه .

وقال الحافظ شرف الدين الدمياطى فى المتجر الرابع ص ٤٧١ : إسناده حسن إن شاء الله .

وذكر العلامة المحقق المحدث السيد علي بن يحي العلوى فى رسالته اللطيفة هداية المتخبطين : أن الحافظ عبدالغنى المقدسى حسّن الحديث ، وقبله ابن أبى حاتم، وبهذا يتبين لك أن هذا الحديث صححه وحسنه ثمانية من كبار حفاظ الحديث وأئمته ، وهم : ابن خزيمة والمنذرى وشيخه أبو الحسن والعراق والبوصيرى وابن حجر وشرف الدين الدمياطي وعبدالغني المقدسي وابن أبي حاتم ، وهؤلاء منهم

فهل يبقى بعد قول هؤلاء كلام المتكلم ، وهل يصح من عاقل أن يترك حكم هؤلاء الفحول من الرجال الحفاظ المتقنين إلى قول المتطفلين على موائد الحديث . ﴿أتستبدلون الذي هو أدني بالذي هو خير﴾ . ﴿فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ .

التوسل بقبر النبي ﷺ بإرشاد السيدة عائشة

قال الإمام الحافظ الدارمي فى كتابه السنن [باب ماأكرم الله تعالى نبيه ﷺ بعد موته] : حدثنا أبو النعمان حدثنا سعيد بن زيد حدثنا عمرو بن مالك النكرى حدثنا أبو الجوزاء أوس بن عبدالله قال : قحط أهل المدينة قحطا شديدا فشكوا إلى عائشة ، فقالت : أنظروا قبر النبى ﷺ فاجعلوا منه كوا إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف ، قال : ففعلوا ، فمطرنا مطرا حتى نبت العشب وسمنت الإبل (تفتقت من الشحم فسمى عام الفتق ، ومعنى كوا أى نافذة) . أهـ سنن الدارمى ج ١ ص ٤٣ .

فهذا توسل بقبره ﷺ لا من حيث كونه قبرا ، بل من حيث كونه ضم جسد أشرف المخلوقين وحبيب رب العالمين ، فتشرف بهذه المجاورة العظيمة واستحق بذلك المنقبة الكريمة .

تخريج الحديث :

أما أبو النعمان فهو محمد بن الفضل الملقب بعارم شيخ البخارى ، قال الحافظ فى التقريب عنه : - ثقة ثبت - تغير فى آخر عمره .

قلت : وهذا لا يضره ولا يقدح فى روايته لأن البخارى روى له فى صحيحه أكثر من مائة حديث وبعد اختلاطه لم تحمل عنه رواية ، قاله الدار قطنى ، ولا ينبّئك مثل خبير .

وقد ردّ الذهبى على ابن حبان قوله : (بأنه وقع له أحاديث منكرة) فقال : ولم يقدر ابن حبان أن يسوق له حديثا منكرا فأين ما زعم ؟ (كذا فى ميزان الإعتدال ج ٤ ص ٨) .

وأما سعيد بن زيد فهو صدوق له أوهام ، وكذلك حال عمرو بن مالك النكرى كما قال الحافظ ابن حجر عنهما فى التقريب .

وقد قرر العلماء بأن هذه الصيغة وهي - صدوق يهم - من صيغ التوثيق لا من صيغ التضعيف (كذا فى تدريب الراوى) .

وأما أبو الجوزاء فهو أوس بن عبدالله الربعى وهو ثقة من رجال الصحيحين فهذا سند لا بأس به ، بل هو جيّد عندى ، فقد قبل العلماء واستشهدوا بكثير من أمثاله وبمن هم أقل حالا من رجاله .

السيدة عائشة وموقفها من قبر النبي ﷺ :

أما قول بعضهم : بأن هذا الأثر موقوف على عائشة وهي صحابية ، وعمل الصحابة ليس بحجة ، فالجواب هو أنه وإن كان رأيا لعائشة إلا أنها رضى الله عنها معروفة بغزارة العلم ، وفعلت ذلك فى المدينة بين علماء الصحابة .
ويكفينا من هذه القصة أنها دليل على أن عائشة أم المؤمنين تعلم أن رسول الله ﷺ لا زال بعد وفاته رحيما وشافعا لأمته وأن من زاره واستشفع به شفع له ، كما فعلت أم المؤمنين ، وليس هو من قبيل الشرك أو من وسائل الشرك كما يلغط به هؤلاء المكفرون المضللون ، فإن عائشة ومن شهدها لم يكونوا ممن يجهلون الشرك ولا ما يمت إليه .
فالقصة تدمغ هؤلاء وتثبت أن النبي ﷺ يهتم بأمته في قبره حتى بعد وفاته ، وقد ثبت أن أم المؤمنين عائشة قالت : كنت أدخل بيتى الذى فيه رسول الله ﷺ وأضع ثيابى ، وأقول إنما هو زوجى وأبى ، فلما دفن عمر معهمافوالله ما دخلت إلا وأنا مشدودة حياء من عمر . (رواه أحمد) .
قال الحافظ الهيثمي : رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٦) ورواه الحاكم فى المستدرك ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يعترضه الذهبى بشىء (ج ٤ ص ٧) .
ولم تعمل عائشة هذا باطلا بل هي تعلم أن النبى ﷺ وصاحبيه يعلمان من هو عند قبورهم .
وقد قال النبى ﷺ لمعاذ لما أرسله لليمن : فلعلك تمر بقبرى ومسجدى . (رواه أحمد والطبرانى ورجالهما ثقات إلا يزيد لم يسمع من معاذ «كذا فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٥٥») فتوفى رسول الله ﷺ وجاء معاذ إلى قبر النبى ﷺ باكيا . وشاهده عمر بن الخطاب على هذا الحال وجرت بينهما هذه المحادثة كما رواها زيد ابن أسلم عن أبيه قال : خرج عمر إلى المسجد فوجد معاذ بن جبل عند قبر النبى ﷺ يبكى ، قال : ما يبكيك ؟ قال : حديث سمعته عن رسول الله ﷺ : «اليسير من الرياء شرك» . قال الحاكم : صحيح ولا يعرف له علة ، ووافقه الذهبى فقال : صحيح ولا علة له . (كذا فى المستدرك ج ١ ص ٤) .
وقال المنذرى فى الترغيب والترهيب : رواه ابن ماجه والبيهقى والحاكم وقال : صحيح لا علة له ، وأقره أعنى المنذرى (ج ١ ص ٣٢) .

التوسل بقبر النبي ﷺ في خلافة عمر رضي الله عنه

وقال الحافظ أبوبكر البيهقي : أخبرنا أبونصر بن قتادة وأبوبكر الفارسي قالا : حدثنا أبوعمر بن مطر حدثنا إبراهيم بن علي الذهلي حدثنا يحيى بن يحيى حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى صالح عن مالك قال : أصاب الناس قحط فى زمن عمر ابن الخطاب فجاء رجل إلى قبر النبى ﷺ فقال : يارسول الله استسق الله لأمتك فإنهم قد هلكوا ، فأتاه رسول الله ﷺ فى المنام فقال :

«ائت عمر فاقرئه منى السلام وأخبرهم أنهم مسقون ، وقل له : عليك بالكيس الكيس» ..

فأتى الرجل فأخبر عمر ، فقال : يارب ! ما آلو إلا ما عجزت عنه . وهذا إسناد صحيح .

[كذا قال الحافظ ابن كثير فى البداية (ج ١ ص ٩١) فى حوادث عام ثمانية عشر] .

وروى ابن أبى شيبة بإسناد صحيح من رواية أبى صالح السمان عن مالك الدارى ـ وكان خازن عمر ـ قال : «أصاب الناس قحط فى زمن عمر رضى الله عنه فجاء رجل إلى قبر النبى ﷺ فقال : يارسول الله ! استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا فأتى الرجل فى المنام فقيل له : ائت عمر ، الحديث .

وقد روى سيف فى الفتوح : أن الذى رأى فى المنام المذكور هو بلال ابن الحارث المزنى أحد الصحابة . قال ابن حجر : إسناده صحيح اهـ . (صحيح البخارى كتاب الاستسقاء) ، [فتح البارى ص ٤١٥ ج ٢][(١٤)] .

ولم يقل أحد من الأئمة الذين رووا الحديث ولا من بعدهم ممن مر بتصانيفهم من الأئمة أنه كفر وضلال ولا طعن أحد فى متن الحديث به ، وقد أورد هذا الحديث ابن حجر العسقلانى وصحح سنده كما تقدم ، وهو من هو فى علمه وفضله ووزنه بين حفاظ الحديث مما لايحتاج إلى بيان وتفصيل .

---

(١٣) أنظر الملحق آخر الكتاب رقم ١٣ .

توسل المسلمين به يوم اليمامة

ذكر الحافظ ابن كثير إن شعار المسلمين فى موقعة اليمامة كان :

[محمـــداه] ..

قال ما نصه :

وحمل خالد بن الوليد حتى جاوزهم وسار لجبال مسيلمة وجعل يترقب أن يصل إليه فيقتله ثم رجع ثم وقف بين الصفين ودعا البراز وقال : أنا ابن الوليد العود أنا ابن عامر وزيد ، ثم نادى بشعار المسلمين ، وكان شعارهم يومئذ [يا محمـــداه] [15] ..

[البداية والنهاية ج ٦ ص ٣٢٤]

التوسل به فى المرض والشدائد

عن الهيثم بن خنس قال : كنا عند عبدالله بن عمر رضى الله عنهما فخدرت رجله فقال له رجل : أذكر أحب الناس إليك ، فقال : يا محمد ، فكأنما نشط من عقال .

وعن مجاهد قال : خدرت رِجْل رَجُل عند ابن عباس رضى الله عنهما ، فقال له ابن عباس : أذكر أحب الناس إليك ، فقال : محمد ﷺ ، فذهب خدره.

[ذكره الشيخ ابن تيمية فى الكلم الطيب فى الفصل السابع والأربعين ص ١٦٥].

فهذا توسل فى صورة النداء .

التوسل بغير النبى ﷺ

عن عتبة بن غزوان عن نبى الله ﷺ قال :

«إذا أضل أحدكم شيئا أو أراد عونا وهو بأرض ليس بها أنيس فليقل : يا عباد الله أعينونى ، فإن لله عبادا لا نراهم . وقد جرب ذلك» ..

رواه الطبرانى ورجاله وثقوا على ضعف فى بعضهم إلا أن يزيد بن على لم يدرك عتبة .

وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١٥) أنظر الملحق آخر الكتاب رقم ١٥ .

«إن لله ملائكة فى الأرض سوى الحفظة يكتبون ما يسقط من ورق الشجر ، فإذا أصاب أحدكم عرجة بأرض فلاة فليناد أعينونى يا عباد الله» ..

رواه الطبرانى ورجاله ثقات .

وعن عبدالله بن مسعود أنه قال : قال رسول الله ﷺ :

إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد : يا عباد الله احبسوا.يا عباد الله احبسوا ، فإن لله حاضرا فى الأرض سيحبسه» ..

رواه أبو يعلى والطبرانى وزاد سيحبسه عليكم ، وفيه معروف بن حسان وهو ضعيف . اهـ . من مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين على ابن أبى بكر الهيثمى (ج ١٠ ص ١٣٢) .

فهذا توسل فى صورة النداء أيضا ،

وجاء فى الحديث أن النبى ﷺ كان يقول بعد ركعتى الفجر :

«اللهم رب جبريل وإسرافيل وميكائيل ومحمد النبى ﷺ أعوذ بك من النار» .

قال النووى فى الأذكار : رواه ابن السنى ، وقال الحافظ بعد تخريجه : هو حديث حسن . (شرح الأذكار لابن علان ج ٢ ص ١٣٩) .

وتخصيص هؤلاء بالذكر فى معنى التوسل بهم ، فكأنه يقول :

اللهم إنى أسألك وأتوسل إليك بجبريل إلخ ..

وقد أشار ابن علان إلى هذا فى الشرح ، فقال : التوسل إلى الله بربوبية هذه الأرواح العظيمة . وقد صرح ابن علان في شرح الأذكار ج ٢ ص ٢٩ بمشروعية التوسل فقال معلقا على حديث «اللهم إني أسألك بحق السائلين» : فيه التوسل بحق أرباب الخير على سبيل العموم من السائلين ومثلهم بالأولى الأنبياء والمرسلون .

معنى توسل عمر بالعباس

أخرج البخارى فى صحيحه عن أنس أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ كانوا إذا قحطوا ـ استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال : [اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا] .

وأخرج الزبير بن بكار فى الأنساب من طريق غيره هذه القصة بأبسط من هذا

وتلخيصها : عن عبد الله بن عمر قال : استسقى عمر بن الخطاب عام الرمادة [بفتح الراء وتخفيف الميم] سميت بذلك لكثرة تطاير الرماد لاحتباس المطر بالعباس ابن عبدالمطلب ، فخطب الناس فقال : يأيها الناس إن رسول الله ﷺ كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد ـ فاقتدوا أيها الناس برسول الله ﷺ فى عمه العباس ، واتخذوه وسيلة إلى الله : أدع يا عباس فكان من دعائه رضى الله عنه : اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة ـ وقد توجه القوم بى إليك لمكانى من نبيك وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة فاسقنا الغيث واحفظ اللهم نبيك فى عمه ، فأرخت السماء مثل الجبال حتى اخصبت الأرض وعاش الناس وأقبل الناس على العباس يتمسحون به ، ويقولون له : هنيئا لك ياساقى الحرمين ، وقال عمر ـ رضى الله عنه ـ ذلك : هذا والله الوسيلة إلى الله والمكان منه ـ وفى ذلك أنشد عباس بن عتبة ابن أخيه أبياتا منها :

بعمى سقى الله الحجاز وأهله :: عشية يستسقى بشيبته عمر

وقال ابن عبدالبر : وفى بعض الروايات فارخت السماء عزاليها فجاءت بأمثال الجبال حتى استوت الحفر بالاكام واخصبت الأرض وعاش الناس ، فقال عمر رضى الله عنه : هذا والله الوسيلة إلى الله عز وجل ، والمكان منه .

وقال حسان بن ثابت :

سأل الإمام وقد تتابع جدبنا ... فسقى الغمام بغرة العباس

عم النبى وصنو والده الذى ... ورث النبى بذاك دون الناس

أحيا الإله به البلاد فأصبحت ... مخضرة الأجناب بعد اليأس

وقال الفضل بن عباس بن عتبة :

بعمى سقى الله الحجاز وأهله ... عشية يستسقى بشيبته عمر

توجه بالعباس فى الجدب راغبا ... فماكر حتى جاء بالديمة المطر

وفى رواية: وطفق الناس بالعباس يمسحون أركانه ويقولون: هنيئا لك ساقى الحرمين. كذا فى الاستيعاب لابن عبدالبر فى ترجمة العباس .

وكان الحق لعمر فى أن يؤم الناس مستسقيا لهم لكنه تأخر عن حقه وقدم العباس للاستسقاء تعظيما لرسول الله ﷺ وتفخيما لأهله وتقديما لعمه صلى الله عليه وآله وسلم على نفسه مبالغة فى التوسل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما استطاع ، وحث الناس على اتخاذ الناس لعباس وسيلة إلى الله جل شأنه وكذلك اتخذه هو وسيلة بتقديمه ليدعو ليقيمه بذلك مقام رسول الله ﷺ حين كان حيا فاستسقى لهم بالمصلى ليكون أبلغ فى تعظيمه والإشادة بفضل أهل بيته.

وبين عمر ذلك فى دعائه حيث قال : [اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا] .. يعنى كنا نتوسل إليك بخروجه بالناس إلى المصلى ودعائه لهم وصلاته بهم ، وإذ قد تعذر ذلك علينا بوفاته عليه الصلاة والسلام فإنى أقدم من هو من أهل بيته ليكون الدعاء أرجى للقبول وأرجى للإجابة .

ولما دعا العباس توسل برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : وقد تقرب القوم بى لمكانى من نبيك أى لقرابتى منه فاحفظ اللهم نبيك فى عمه ، يعنى اقبل دعائى لأجل نبيك .

فالقضية فى الاستسقاء ولا صلة لها بالتوسل الذى نحن بصدد الكلام عنه والذى وقع فيه الخلاف وهذا أمر يعرفه كل ذى عينين لأن القصة تدل على هذا بوضوح فقد أصابهم القحط واحتاجوا إلى إقامة الاستغاثة بصلاة الاستسقاء وهذا يحتاج إلى إمام يصلى بهم ويدعو لهم ويقيم هذه الشعيرة الإسلامية التى كان يقيمها

النبى ﷺ لما كان فى دار التكليف كغيرها من شعائر الدين من إمامة وجمعة وخطبة فهى وظائف تكليفية لا يقوم بها أهل البرزخ لانقطاع التكليف عنهم واشتغالهم بما هو أعظم من ذلك .

ومن فهم من كلام أمير المؤمنين أنه إنما توسل بالعباس ـ ولم يتوسل برسول الله ﷺ لأن العباس حى والنبى ميت ـ فقد مات فهمه وغلب عليه وهمه ونادى على نفسه بحالة ظاهرة ـ أو عصبية لرأيه قاهرة ، فإن عمر لم يتوسل بالعباس إلا لقرابته من رسول الله ﷺ تلمح ذلك فى قوله وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ـ وهو بذلك قد توسل برسول الله ﷺ على أبلغ الوجوه .

وقد بعد عن الصواب كل البعد من رمى المسلمين بالشرك بسبب ذلك مع قوله بجواز التوسل بالحى ، فإن التوسل لو كان شركا ما جاز بالحى ولا الميت ـ ألا ترى أن إعتقاد الربوبية واستحقاق العبادة لغير الله من نبى أو ملك أو ولى هو شرك وكفر لا يجوز هنا فى حياته الدنيا ولا الآخرة .

فهل سمعت من يقول : إن إعتقاد الربوبية لغير الله جائز إذا كان حيا أما بعد وفاته فشرك .

وقد عرفت أن اتخاذ المعظم وسيلة إلى الله تعالى لا يكون عبادة للوسيلة إلا إذا اعتقد أنه رب كما كان ذلك شأن عباد الأوثان مع أوثانهم فإذا لم يعتقد ذلك فيه وكان مأمورا منه عز وجل باتخاذه وسيلة كان ذلك الاتخاذ عبادة للآمر سبحانه .

* * *

قصة العتبى فى التوسل

قال الإمام الحافظ الشيخ عماد الدين ابن كثير :

ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الصباغ فى كتابه الشامل « الحكاية المشهورة » عن العتبى قال : كنت جالسا عند قبر النبى ﷺ فجاء أعرابى فقال السلام عليك يارسول الله سمعت الله يقول : ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما﴾ وقد جئتك مستغفرا لذنبى مستشفعا بك إلى ربى ثم أنشد يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه :: فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه :: فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابى فغلبتنى عينى فرأيت النبى ﷺ فى النوم فقال : [إلحق الأعرابى فبشره أن الله قد غفر له] .

فهذه القصة رواها الإمام النووى فى كتابه المعروف بالإيضاح فى الباب السادس ص ٤٩٨ ، ورواها أيضا الحافظ عماد الدين ابن كثير فى تفسيره الشهير عند قوله تعالى : ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾ .. الآية .

ورواها أيضا الشيخ أبو محمد ابن قدامة فى كتابه المغنى (ج ٣ ص ٥٥٦) ، ونقلها أيضا الشيخ أبو الفرج ابن قدامة فى كتابه الشرح الكبير (ج ٣ ص ٤٩٥)، ونقلها أيضا الشيخ منصور بن يونس البهوتى فى كتابه المعروف بكشاف القناع من أشهر كتب المذهب الحنبلى (ج ٥ ص ٣٠)[١٦] .

وذكر الإمام القرطبى عمدة المفسرين قصة تشبهها فى تفسيره المعروف بالجامع قال: روى أبو صادق عن علي قال : قدم علينا أعرابى بعد ما دفنّا رسول الله ﷺ بثلاثة أيام فرمى بنفسه على قبر رسول الله ﷺ وحثا على رأسه من ترابه فقال : قلت يارسول الله فسمعنا قولك ، ووعيت عن الله فوعينا عنك وكان فيما أنزل الله عليك ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾ .. الآية ، وقد ظلمت نفسى وجئتك تستغفر لى فنودى من القبر : إنه قد غفر لك . [تفسير القرطبى ج ٥ ص ٢٦٥] .

---

(١٦) أنظر الملحق رقم ١٦ آخر الكتاب .

هذه قصة العتبى وهؤلاء هم الذين نقلوهـا وسواء أكانت صحيحـة أم ضعيفة من ناحية السند الذى يعتمد عليه المحدثون فى الحكم على أى خبر فإننا نتساءل ونقول هل نقل هؤلاء الكفر والضلال ؟ .. أو نقلوا ما يدعو إلى الوثنية وعبادة القبور ؟ .

إذا كان الأمر كذلك فأى ثقة فيهم أو فى كتبهم؟؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

أبيات العتبى على شباك النبى ﷺ

تقدم ذكر البيتين الذين أنشدهما الأعرابى عند زيارته للنبى ﷺ ، ورواها العتبى وهى :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه   فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه   فيه العفاف وفيه الجود والكرم

وهـذه الأبيات مكتوبة بفضل الله على المواجهة النبوية الشريفة فى العامود الذى بين شباك الحجرة النبوية يراها القاصى والدانى منذ مئات السنين حتى فى عهد المرحوم الملك عبدالعزيز ، فالملك سعود فالملك فيصل فالملك خالد رحمهم الله تعالى ، فالملك فهد خادم الحرمين الشريفين حفظه الله ، وستبقى بإذن الله بناء على توجيهات خادم الحرمين بالمحافظة على كل ما فى المسجد النبوى الشريف وعدم إزالة أي أثر قديم .

* * *

الخلاصة :

والخلاصة أنه مما لا شك فيه أن النبى ﷺ له عند الله قدر عليّ ومرتبة رفيعة ، وجاه عظيم ، فأى مانع شرعى أو عقلى يمنع التوسل به فضلا عن الأدلة التى تثبته فى الدنيا والآخرة - ولسنا فى ذلك سائلين غير الله تعالى ولا داعين إلا إياه فنحن ندعوه بما أحب أيا كان ، تارة نسأله بأعمالنا الصالحة لأنه يحبها وتارة نسأله بمن يحبه من خلقه كما فى حديث آدم السابق ، وكما فى حديث فاطمة بنت أسد الذى ذكرناه ، وكما فى حديث عثمان بن حنيف المتقدم ، وتارة نسأله بأسمائه الحسنى كما فى قوله - ﷺ - [أسألك بأنك أنت الله] أو بصفته أو فعله كما فى قوله فى الحديث الآخر : [أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك] ، وليس مقصورا على تلك الدائرة الضيقة التى يظنها المتعنتون .

وسر ذلك أن كل ما أحبه الله صح التوسل به ، وكذا كل من أحبه من نبى أو ولىّ ، وهو واضح لدى كل ذى فطرة سليمة ولا يمنع منه عقل ولا نقل بل تضافر العقل والنقل على جوازه والمسؤول فى ذلك كله الله وحده لا شريك له ، لا النبى ولا الولى ولا الحى ولا الميت ، ﴿قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾ .

وإذا جاز السؤال بالأعمال فبالنبى ﷺ أولى لأنه أفضل المخلوقات والأعمال منها والله أعظم حبًا له - ﷺ - من الأعمال وغيرها - وليت شعرى ما المانع من ذلك ، واللفظ لا يفيد شيئا أكثر من أن للنبى قدرا عند الله ، والمتوسل لا يريد غير هذا المعنى ، ومن ينكر قدره عند الله فهو كافر كما قلنا .

وبعد : فمسألة التوسل تدل على عظمة المسؤول به ومحبته ، فالسؤال بالنبى إنما هو لعظمته عند الله أو لمحبته إياه وذلك مما لا شك فيه على أن التوسل بالأعمال متفق عليه ، فلماذا لا نقول : إن من يتوسل بالأنبياء أو الصالحين هو متوسل بأعمالهم التى يحبها الله ، وقد ورد حديث أصحاب الغار فيكون من محل الاتفاق ؟ .

ولا شك أن المتوسل بالصالحين إنما يتوسل بهم من حيث أنهم صالحون فيرجع الأمر إلى الأعمال الصالحة المتفق على جواز التوسل بها ، كما قلنا فى صدر هذا البحث .

* * *

شبهة مردودة

فهذه الأحاديث والآثار كلها تثبت التوسل وتؤيده ، فإن قيل : إن ذلك خاص بحياته ﷺ .

فالجواب : أن هذا التخصيص لا دليل عليه خصوصا وأن الروح باقية وهى التى يكون بها الإحساس والإدراك والشعور .

ومذهب أهل السنة والجماعة أن الميت يسمع ويحس ويشعر وأنه ينتفع بالخير ويفرح ويتأذى بالشر ويحزن ، وهذا بالنسبة لكل إنسان ، ولذا نادى ﷺ أهل القليب من كفار قريش يوم بدر فقال : يا عتبة يا شيبة يا ربيعة ، فقيل له : كيف تناديهم وقد جيفوا ؟ فقال : ما أنتم بأسمع منهم لكنهم لا يستطيعون الجواب .

فإذا كان هذا عاما لكل إنسان فكيف بأفضل البشر وأكرمهم وأجلهم ، لا شك أنه أكمل إحساسا وأتم إدراكا وأقوى شعورا على أنه قد جاء التصريح فى الأحاديث الكثيرة بأنه يسمع الكلام ويرد السلام وتعرض عليه أعمال الأمة وأنه يستغفر لسيئاتهم ويحمد الله على حسناتهم .

وقيمة الإنسان فى الحقيقة إنما هى بمقدار شعوره وإحساسه وإدراكه لا بحياته ، ولذلك نرى كثيرا من الأحياء قد حرمهم الله تعالى الإحساس والشعور الإنسانى مع بلادة الطبع وقلة الذوق ولكنهم لا ينتفع بهم بل هم فى صفوف الأموات والعياذ بالله .

* * *

زعم بعض الجهلة أن النبى ﷺ لا يسمعنا ولا يرانا ولا يعرفنا

ومن هؤلاء الموتى من زعم أن النبى ﷺ لا يسمع ولا يرى ولا يعرف عنا ولا يدعو الله تعالى لنا ، فأى جراءة أعظم من هذا ؟ وأى جهل أقبح من هذا ؟ إضافة إلى سوء الأدب والانتقاص لقدر النبى ﷺ ، ولقد تضافرت الأحاديث والآثار التى تثبت أن الميت يسمع ويحس ويعرف سواء أكان مؤمنا أم كافرا .

قال ابن القيم فى كتاب الروح : والسلف مجمعون على هذا وقد تواترت الآثار عنهم .

وقد سئل الشيخ ابن تيمية عن هذه المسألة فأفتى بما يؤيد ذلك (أنظر الفتاوى ج ٢٤ ص ٣٣١ وص ٣٦٢) .

فإذا كان هذا فى حق عامة البشر فما بالك بعامة المومنين بل بخاصة عباد الله الصالحين بل بسيد الأولين والآخرين سيدنا محمد ﷺ ، وقد فصلنا هذه المسألة فى مبحث خاص بها فى كتابنا هذا بعنوان : « الحياة البرزخية حياة حقيقية » بعنوان « حياة خاصة بالنبى ﷺ » .

* * *

بيان أسماء المتوسلين من أئمة المسلمين[17]

ونذكر هنا أسماء أشهر من يقول بالتوسل ، أو ممن نقل أدلته ـ من كبار الأئمة وحفاظ السنة .

١ ـ فمنهم الإمام الحافظ أبو عبدالله الحاكم فى كتابه [المستدرك] على الصحيحين ، فقد ذكر حديث توسل آدم بالنبى ﷺ وصححه .

٢ ـ ومنهم الإمام الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتابه [دلائل النبوة] ، فقد ذكر حديث آدم وغيره ، وقد التزم أن لا يخرج الموضوعات .

٣ ـ ومنهم الإمام الحافظ جلال الدين السيوطى فى كتابه [الخصائص الكبرى] فقد ذكر حديث توسل آدم .

٤ ـ ومنهم الإمام الحافظ أبو الفرج ابن الجوزى فى كتابه (الوفاء) ، فقد ذكر الحديث وغيره .

٥ ـ ومنهم الإمام الحافظ القاضى عياض فى كتابه «الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى» ، فقد ذكر فى باب الزيارة وباب فضل النبى ﷺ كثيرا من ذلك .

٦ ـ ومنهم الإمام الشيخ نور الدين القارى المعروف بملا على قارى فى شرحه على الشفا فى المواطن السابقة .

٧ ـ ومنهم العلامة أحمد شهاب الدين الخفاجى فى شرحه على الشفا المسمى «بنسيم الرياض» ، فى المواطن السابقة .

٨ ـ ومنهم الإمام الحافظ القسطلانى فى كتابه [المواهب اللدنية] فى المقصد الأول من الكتاب .

٩ ـ ومنهم العلامة الشيخ محمد عبد الباقى الزرقانى فى شرحه على المواهب (ج ١ ص ٤٤) .

١٠ ـ ومنهم الإمام شيخ الإسلام أبو زكريا يحي النووى فى كتابه الإيضاح [فى الباب السادس ص ٤٩٨] .

---

(١٧) أنظر الملحق آخر الكتاب رقم ١٧ .

١١ ـ ومنهم العلامة ابن حجر الهيتمى فى حاشيته على الإيضاح ص ٤٩٩ ، وله رسالة خاصة فى هذا الباب تسمى بـ[الجوهر المنظم] .

١٢ ـ ومنهم الحافظ شهاب الدين محمد بن محمد بن الجوزى الدمشقى فى كتابه [عدة الحصن الحصين] فى فضل آداب الدعاء .

١٣ ـ ومنهم العلامة الإمام محمد بن على الشوكانى فى كتابه [تحفة الذاكرين] ص ١٦١ .

١٤ ـ ومنهم العلامة الإمام المحدث على بن عبد الكافى السبكى فى كتابه [شفاء السقام فى زيارة خير الأنام] .

١٥ ـ ومنهم الحافظ عماد الدين ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾ .. فقد ذكر قصة العتبى مع الأعرابى الذى جاء زائرا قاصدا مستشفعا بالنبى ﷺ ، ولم يعترض عليها بشىء ، وذكر قصة توسل آدم بالنبى ﷺ فى [البداية والنهاية] ولم يحكم بوضعها (ج ١ ص ١٨٠) .

وذكر قصة الرجل الذى جاء إلى قبر النبى ﷺ وتوسل به وقال : إن إسنادها صحيح (ج ١ ص ٩١) .

ـ وذكر أن شعار المسلمين يامحمداه (ج ٦ ص ٣٢٤) .

١٦ ـ ومنهم الإمام الحافظ ابن حجر الذى ذكر قصة الرجل الذى جاء إلى قبر النبى ﷺ وتوسل به وصحح سندها فى فتح البارى (ج ٢ ص ٤٩٥) .

١٧ ـ ومنهم الإمام المفسر أبو عبدالله القرطبى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾ (ج ٥ ص ٢٦٥) .

* * *

الصحابة يطلبون من النبى ﷺ الشفاعة

زعم بعضهم أنه لا يجوز أن تطلب الشفاعة من النبى ﷺ فى الدنيا بل ذهب البعض الآخر من المتعنتين إلى أن ذلك شرك وضلال ويستدلون على ذلك بقوله تعالى : ﴿بل لله الشفاعة جميعا﴾ وهذا الاستدلال باطل ولا يدل على فهمهم الفاسد وذلك من وجهين .

أولا :

أنه لم يرد نص لا فى الكتاب ولا فى السنة ينهى عن طلب الشفاعة من النبى ﷺ فى الدنيا .

ثانيا :

أن هذه الآية لا تدل على ذلك بل شأنها شأن غيرها من الآيات التى جاءت لبيان اختصاص الله سبحانه وتعالى بما هو ملك له دون غيره بمعنى أنه هو المتصرف فيه ، وهذا لا ينفى أنه يعطيه من يشاء إذا أراد فهو مالك الملك يعطى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، ونظير هذا قوله عز وجل ﴿له الملك وله الحمد﴾ ، ووصف نفسه أنه مالك الملك مع قوله سبحانه وتعالى : ﴿تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾ ، وقوله تعالى : ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعا﴾ مع قوله عز وجل : ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ ، وكذلك فى الشفاعة قال : ﴿قل لله الشفاعة جميعا﴾ .. مع قوله تعالى : ﴿لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا﴾ ، وقوله عز وجل : ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ ، فكما أنه سبحانه وتعالى أعطى من شاء ما شاء ـ وجعل من العزة التى هى له ما شاء لرسوله والمؤمنين ـ كذلك الشفاعة كلها له وقد أعطاها للأنبياء وعباده الصالحين بل وكثير من عامة المؤمنين كما نطقت به صحاح الأحاديث المتواترة معنويا .

وأى حرج فى أن يطلب الإنسان من المالك بعض ما يملكه لا سيما إذا

كان المسئول كريما والسائل فى أشد الحاجة إلى ما سأله ، وهل الشفاعة إلا الدعاء والدعاء مأذون فيه ، مقدور عليه ، مقبول لا سيما الأنبياء والصالحين فى الحياة وبعد الوفاة فى القبر ويوم القيامة فالشفاعة معطاة لمن اتخذ عند الله عهدا ، ومقبولة لديه عز وجل فى كل من مات على التوحيد .

وقد ثبت أن بعض الصحابة سأل النبى ﷺ الشفاعة ، ولم يقل ﷺ : إن طلبك الشفاعة منى شرك فاطلبها من الله ولا تشرك بربك أحدا .

هذا أنس بن مالك رضى الله عنه يقول : يانبى الله اشفع لى يوم القيامة فيقول له ﷺ :

«أنا فاعل إن شاء الله» ..

رواه الترمذى فى السنن وحسنه فى باب ما جاء فى صفة الصراط ، وكذلك سأل الشفاعة غير أنس .

فهذا سواد بن قارب يقول بين يدى رسول الله ﷺ :

وأشهد أن الله لا رب غيره :: وأنك مأمون على كل غائب

وأنك أدنى المرسلين وسيلة :: إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب

إلى أن يقول :

فكن لى شفيعا يوم لا ذو شفاعة :: سواك مغن عن سواد بن قارب

رواه البيهقى فى دلائل النبوة ، ورواه أيضا ابن عبد البر فى الاستيعاب ، وأقره رسول الله ﷺ ولم ينكر طلب الشفاعة منه .

وطلب الشفاعة منه أيضا مازن بن العضوب لما جاء مسلما وأنشد يقول :

إليك رسول الله خبت مطيتى :: تجوب الفيافى من عمان إلى العرج

لتشفع لى يا خير من وطىء الحصا :: فيغفر لى ربى فأرجع بالفلج

(رواه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص ٧٧)

وطلب الشفاعة منه عكاشة بن محصن حين ذكر ﷺ السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، فقال عكاشة : أدع الله أن يجعلنى منهم ، فقال مباشرة وبلا مراجعة : (أنت منهم) .

ومعلوم أنه لا ينال أحد كائنا من كان هذه الأسبقية إلا بعد شفاعته الكبرى ﷺ فى أهل الموقف كما هو ثابت فى الأحاديث المتواترة ، فهذا فى معنى طلب الشفاعة .

ونظائر هذا كثيرة فى كتب السنة المشرفة وهى كلها تدل على جواز طلب الشفاعة منه ﷺ فى الدنيا ، منهم من طلبها بالتعيين بقوله : إشفع لى أو طلب دخول الجنة أو طلب أن يكون من السابقين ، أو طلب أن يكون من أهل الحوض أو طلب مرافقته فى الجنة كما حصل من ربيعة الأسلمى إذ قال : أسألك مرافقتك فى الجنة فأرشده النبى صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطريق بقوله : أعنّى على نفسك بكثرة السجود ، ولم يقل له ولا لغيره ممن طلب الجنة أو طلب المعية أو تمنى أن يكون من أهل الجنة ، أو أن يكون من أهل الحوض ، أو أن يكون من المغفور لهم : إن هذا حرام ، ولا يجوز أن يطلب الآن ، وأن وقته لم يأت ، وانتظر حتى يأذن الله فى الشفاعة ، أو فى دخول الجنة ، أو فى الشرب من الحوض مع أن هذه الأمور المطلوبة كلها لا تكون إلا بعد الشفاعة العظمى فهى فى معنى طلب الشفاعة والنبى ﷺ بشرهم بذلك ووعدهم بما جبر خواطرهم وأقر أعينهم ، وحاشا أن يكون ذلك ممنوعا ثم لا يبين لهم حكمه مجاملة أو مداراة وهو الذى لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، وإنما يجبر الخواطر ويرضى النفوس بما هو دائر فى فلك الحق ونابع من أصل الدين وبعيد عن كل باطل أو نفاق .

وإذا صح طلب الشفاعة منه فى الدنيا قبل الآخرة فإن معنى ذلك أنه سينالها حقيقة فى محلها يوم القيامة وبعد أن يأذن الله تعالى للشفعاء بالشفاعة ، لا أنه ينالها هنا قبل وقتها .

وهذا فى الحقيقة نظير بشارته بالجنة لكثير من المؤمنين فإن معناه أنهم سيدخلون الجنة يوم القيامة وبعد أن يأذن الله تعالى بالدخول فى الوقت المعلوم ،

لا أنه سيدخلها هنا فى الدنيا أو البرزخ ، ولا أظن أن عاقلا من عوام المسلمين يعتقد خلاف ذلك .

وإذا صح طلب الشفاعة منه فى الدنيا فى حياته فإننا نقول : لا بأس بطلبها منه أيضا بعد موته بناء على ما هو مقرر عند أهل السنة والجماعة من حياة الأنبياء الحياة البرزخية ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم أكملهم وأعظمهم فى ذلك إذ يسمع الكلام وتعرض عليه أعمال الأمة ويستغفر الله لهم ويحمد الله ، وتبلغه صلاة من يصلى عليه ولو كان فى أقصى المعمورة ، كما جاء فى الحديث الذى صححه جمع من الحفاظ وهو : حياتى خير لكم تحدثون وتحدث لكم ، ومماتى خير لكم تعرض أعمالكم علىَّ فإن وجدت خيرا حمدت الله ، وإن وجدت شرا استغفرت الله لكم .

وهذا الحديث صححه من الحفاظ ، العراق والهيثمى والقسطلانى والسيوطى وإسماعيل القاضى ، وقد فصلنا تخريجه فى غير هذا الموضع .

فلو طلبت منه الشفاعة فإنه قادر على أن يدعو الله ويسأله ، كما كان يفعل فى حياته ، ثم ينالها العبد في محلها بعد أن يأذن الله تعالى ، كما تحصل الجنة لمن بشّر بها فى الدنيا ، فإنه ينالها فى وقتها بعد أن يأذن الله بدخول الجنة ، فهذه وتلك سواء .

هذا ما نعتقده ونعقد عليه قلوبنا .



تفسير ابن تيمية لآيات الشفاعة

ويستفاد منه جواز طلب الشفاعة من النبى ﷺ فى الدنيا

ذكر الشيخ ابن تيمية فى الفتاوى تحليلا نفيسا للآيات الواردة فى منع الشفاعة وعدم الانتفاع بها والنهى عن طلبها مع أن هذه الآيات هى التى يستدل بها بعضهم على منع طلب الشفاعة من النبى ﷺ فى الدنيا .

ويظهر من كلام الشيخ ابن تيمية فى معنى تلك الآيات أن الاستدلال بها على ما يزعمون فى غير محله وتحريف لها عن مواضعها . قال الشيخ :

واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى : ﴿واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل﴾ وبقوله : ﴿ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة﴾ ، وبقوله : ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ ، وبقوله : ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ .

وجواب أهل السنة أن هذا يراد به شيئان :

أحدهما :

أنها لا تنفع المشركين ، كما قال تعالى فى نعتهم : ﴿ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ فهؤلاء نفى عنهم نفع شفاعة الشافعين لأنهم كانوا كفارا .

والثانى :

أنه يراد بذلك نفى الشفاعة التى يثبتها أهل الشرك ومن شابههم من أهل البدعة من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه ، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض ، فيقبل المشفوع إليه شفاعة شافع لحاجته إليه رغبة ورهبة ، وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة .

فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين ، ويصورون تماثيلهم فيتشفعون بها ويقولون : هؤلاء خواص الله .

قلت هذا كلام الشيخ ابن تيمية بلفظه ، ومنه يظهر جليا حقيقة هذه الآيات التى يستدل بها المنكرون لطلب الشفاعة من النبى ﷺ فى الدنيا ، أو القائلون بأنها شرك وضلال .

وخلاصة كلامه هو أن المراد بذلك هو أن الشفاعة لا تنفع المشركين . فالآيات واردة فى هذه القضية ، أو أن المراد بذلك هو نفى الشفاعة التى يثبتها أهل الشرك وهى أن يعتقد أن الشافع يملك ذلك بغير إذن الله سبحانه وتعالى ، وهذا الذى ذكره الشيخ هو ما نعتقده بفضل الله ، ونقول : إن طالب الشفاعة منه ﷺ إن اعتقد أو ظن أنه ﷺ يشفع بغير إذن الله فهذا شرك أو ضلال لا نشك فى ذلك ولا نرتاب ـ ولكنه حاشا وكلا ثم حاشا وكلا أن نعتقد ذلك أو نظنه ونبرأ إلى الله من ذلك .

وإننا حين نطلب الشفاعة فإننا نعتقد تمام الاعتقاد أنه لا يشفع أحد إلا بإذنه سبحانه وتعالى ، ولا يقع شىء إلا برضاه وتأييده .

وإنما هذا كطلب دخول الجنة وطلب الشرب من الحوض المورود وطلب النجاة على الصراط ، فكلها لا تحصل إلا بإذن الله وفى وقتها الذى قدره الله تعالى لها ، وهل يشك فى ذلك عاقل أو يخفى على من له أدنى معرفة أو قراءة فى كتب السلف من أصغر طلاب العلم الشريف .

اللهم افتح مسامع قلوبنا ونور أبصارنا .

* * *

إياك نعبد وإياك نستعين

إننا نعتقد اعتقادا جازما لازما لا شك فيه ولا ريب أن الأصل فى الاستعانة والاستغاثة والطلب والنداء ، والسؤال هو أن يكون لله سبحانه وتعالى فهو المعين والمغيث والمجيب .

قال الله تعالى : ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو﴾ ، وقال : ﴿فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه﴾ ، وقال : ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾ الآيتين ، وقال : ﴿أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾ فالعبادة بجميع أنواعها لا بد أن تصرف لله وحده ولا يجوز صرف شيء منها لغير الله كائنا من كان ﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ .

فلا نذر إلا لله ولا دعاء إلا له ولا ذبح إلا له ولا استغاثة ولا استعاذة ولا استعانة ولا حلف إلا بالله ولا توكل إلا عليه سبحانه وتعالى عما يشرك به المشركون علوا كبيرا .

ونحن نعتقد أن الله هو الخالق للعباد وأفعالهم لا تأثير لأحد سواه لا لحى ولا ميت ، وليس لأحد مع الله فعل أو ترك أو رزق أو إحياء أو إماتة ، وليس أحد من الخلق قادرا على الفعل أو الترك بنفسه استقلالا دون الله أو بالمشاركة مع الله أو أدنى من ذلك .

فالمتصرف فى الكون هو الله سبحانه وتعالى ولا يملك أحد شيئا إلا إذا ملكه الله ذلك وأذن له فى التصرف فيه ، ولا يملك أحد لنفسه فضلا عن غيره نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا إلا ما شاء الله بإذن الله فالنفع والضر حينئذ محدود بهذا الحد ومقيد بهذا القيد ونسبته إلى الخلق على سبيل التسبب والتكسب لا على سبيل الخلق أو الايجاد أو التأثير أو العلة أو القوة والنسبة فى الحقيقة مجازية

ليست حقيقية ، ولكن الناس يختلفون فى التعبير عن هذه الحقائق[1] ، فمنهم من يسرف فى استعمال المجاز إسرافا شديدا حتى يقع فى شبه لفظية هو منها برىء وقلبه سليم منعقد على كمال التوحيد والتنزيه لله سبحانه وتعالى .

ومنهم من يتمسك بالحقيقة تمسكا زائدا عن حد الاعتدال فيصل به إلى التعنت والتشدد والإساءة إلى الناس بمعاملتهم على خلاف معتقدهم وحملهم على ما لا يقصدون وإلزامهم بما لا يريدون والحكم عليهم بما هم عنه بريئون والواجب الاعتدال والبعد عن كل ذلك فهو أسلم للدين وأحوط فى حماية مقام التوحيد . والله أعلم .

وقد ذكر الشيخ ابن تيمية خلاصة موجزة مفيدة فى بيان ما يختص بالحق سبحانه وتعالى وهو عين ما نعتقده وندين الله تعالى به .. لأن عقيدتنا سلفية بفضل الله وطريقتنا محمدية ونقول بهذا الذى يقول به ابن تيمية .

قال الشيخ ابن تيمية والله قد جعل له حقا لا يشركه فيه مخلوق فلا تصلح العبادة إلا له ، ولا الدعاء إلا له ، ولا التوكل إلا عليه ، ولا الرغبة إلا إليه ، ولا الرهبة إلا منه ، ولا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه ، ولا يأتى بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب السيئات إلا هو ، ولا حول ولا قوة إلا به ، ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ ، ﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾ .
﴿إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ، لقد أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا﴾ ، وقال تعالى : ﴿ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾ فجعل الطاعة لله وللرسول ، وجعل الخشية والتقوى لله وحده ، وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا : حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾ ، فالإيتاء لله والرسول ، وإما التوكل فعلى الله وحده ، والرغبة إلى الله وحده.
(كذا فى الفتاوى ج ١١ ص ٩٨)



(١) هذه النقطة مفصلة فى مبحث خاص بها بعنوان : (المجاز العقلى وإستعماله) .

الاستعانة والتوجه بالطلب للنبى ﷺ

ذكرنا فيما تقدم أننا نعتقد أعتقادا جازما لا شك فيه ولا ريب أن الأصل فى الاستعانة والاستغاثة والطلب والنداء والسؤال هو أن يكون لله سبحانه وتعالى فهو المعين والمغيث والمجيب ، يقول الله عز وجل : ﴿وقال ربكم ادعونى أستجب لكم﴾ فمن استعان بمخلوق أو استغاث به أو ناداه أو سأله أو طلبه سواء كان حيا أو ميتا معتقدا أنه ينفع أو يضر بنفسه استقلالا دون الله فقد أشرك ، لكن الله أجاز للخلق أن يستعين بعضهم ببعض وأن يستغيث بعضهم ببعض ، وأمر من استعين أن يعين ، ومن استغيث أن يغيث ومن نودى أن يجيب ، والأحاديث على هذا كثيرة جدا كلها تدل على إغاثة الملهوف وإعانة المحتاج وتفريج الكربات والنبى ﷺ أعظم من يستغاث به إلى الله سبحانه وتعالى فى كشف الكربات وقضاء الحاجات .

فأى شدة أكبر من شدة يوم القيامة حين تطول الوقفة وتشتد الزحمة ويتضاعف الحر ويلجم العرق من شاء الله ومع عظم هذه الشدة وبلوغها الغاية فإن الناس يستغيثون إلى الله بخيرة خلقه كما قال الرسول ﷺ : وبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ، الحديث ، وقد عبر فيه ﷺ بلفظ الاستغاثة ، وهو بهذا اللفظ فى صحيح البخارى .

وقد كان الصحابة رضى الله تعالى عنهم يستعينون به ﷺ ويستغيثون ويطلبون منه الشفاعة ويشكون حالهم إليه من الفقر والمرض والبلاء والدين والعجز ويفزعون إليه عند الشدائد ويطلبون منه ويسألونه معتقدين أنه ليس إلا واسطة وسببا فى النفع والضر والفاعل حقيقة هو (الله) .

* * *

أبو هريرة يشكو النسيان

أخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه شكا إلى النبى صلى الله عليه وسلم النسيان لما يسمعه من حديثه الشريف وهو يريد

أن يزول عنه ذلك ـ فقال رضى الله عنه : يا رسول الله ! [إنى أسمع منك حديثا كثيرا فأنساه فأحب أن لا أنسى فقال ﷺ :

«أبسط ردائك» فبسطه فقذف بيده الشريفة من الهواء فى الرداء ثم قال : ضمه فضمه ، قال أبو هريرة : فما نسيت شيئا بعد .

رواه البخارى فى كتاب العلم باب حفظ العلم [رقم الحديث ١١٩] .

فها هو أبو هريرة يطلب منه عليه الصلاة والسلام عدم نسيان شيء وهو مما لايقدر عليه إلا الله عز وجل ـ فلم ينكره ولم يرمه بشرك ، لما يعلم كل أحد أن الموحد إذا طلب شيئا من ذوى الجاه عند الله فلا يريد منهم أن يخلقوا شيئا ولا هو معتقد فيهم شيئا من ذلك وإنما يريد أن يتسببوآ له بما أقدرهم الله عليه من دعاء وما شاء الله من تصرف .

وها أنت ذا ترى أنه عليه الصلاة والسلام أجابه إلى مطلبه ، ولم يرد أنه دعا له فى هذه القصة ، وإنما غرف له من الهواء ، وألقاه فى الرداء وأمره فضمه إلى صدره فجعل الله ذلك تفضلا سببا لقضاء حاجته .

وكذلك لم يقل له عليه الصلاة والسلام : مالك تسألنى والله أقرب إليك منى ؟ لما هو معلوم عند كل أحد أن المعول عليه فى قضاء الحوائج من بيده مقاليد الأمور إنما هو أقربية الطالب منه عز وجل وكمال مكانته عنده .

قتادة يستغيث به لإصلاح عينه :

وقد ثبت أن قتادة بن النعمان أصيبت عينه فسالت حدقته على وجنته فأرادوا أن يقطعوها ، فقال : لا حتى أستأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستأمره ، فقال : لا ، ثم وضع راحته على حدقته ثم غمزها فعادت كما كانت فكانت أصح عينيه .

رواه البغوى وأبو يعلى وأخرجه الدار قطنى وابن شاهين والبيهقى فى الدلائل ، ونقلها الحافظ ابن حجر فى الإصابة (ج ٣ ص ٢٢٥) ، والحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد (ج ٤ ص ٢٩٧) ، والحافظ السيوطى فى الخصائص الكبرى .

وآخر يستعين به فى زوال سلعته :

عن محمد بن عقبة بن شرحبيل عن جده عبد الرحمن عن أبيه قال : أتيت رسول الله ﷺ وبكفى سلعة فقلت : يا نبى الله ! هذه السلعة قد أورمتنى لتحول بينى وبين قائم السيف أن أقبض عليه وعن عنان الدابة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«أدن منى» ..

قال : فدنوت ففتحها فنفث فى كفى ثم وضع يده على السلعة فما زال يطحنها بكفه حتى رفع عنها وما أرى أثرها .

رواه الطبرانى وذكره الحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد (ج ٨ ص ٢٩٨) .

والسلعة (دمل) تظهر تحت الجلد .

معاذ يطلب منه إصلاح يده :

وفى يوم بدر ضرب عكرمة بن أبى جهل معاذ بن عمرو بن الجموح على عاتقه أثناء القتال يقول معاذ : فضرب يدى فتعلقت بجلدة من جنبى واجهضنى القتال عنه فلقد قاتلت عامة يومى وإنى لأسحبها خلفى فلما آذتنى وضعت عليها قدمى ثم تمطيت عليها حتى طرحتها .

قال فى المواهب : وجاء معاذ بن عمرو يحمل يده ، وضربه عليها عكرمة ، إلى رسول الله ﷺ ، كما ذكر القاضى عياض عن ابن وهب ، فبصق عليه الصلاة والسلام عليها فلصقت .

ذكر هذه القصة الزرقانى وأسندها إلى ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم .

الاستعانة والاستغاثة به إلى الله فى البلاء :

وقد استفاضت النصوص الصحيحة التى تنطق بأنهم كانوا إذا أصابهم القحط وانقطع عنهم المطر فزعوا إليه مستشفعين متوسلين طالبين مستغيثين به إلى الله فيعرضون عليه حالهم ويشكون ما نزل بهم من البلاء والشر .

فهذا أعرابى يناديه وهو صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ويقول :

« يارسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله أن يغيثنا فدعا الله وجاء المطر إلى الجمعة الثانية ، فجاء وقال : يارسول الله تهدمت البيوت

وتقطعت السبل وهلكت المواشى .. يعنى من كثرة المطر فدعا ﷺ فانجاب السحاب وصار المطر حول المدينة» ..

(رواه البخارى فى كتاب الاستسقاء باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا) .

وروى أبو داود بسند جيد عن عائشة رضى الله عنها قالت شكا الناس إلى رسول الله قحوط المطر .

رواه أبو داود فى كتاب الصلاة أبواب الإستسقاء .

وأخرج البيهقى فى دلائل النبوة عن أنس ، بسند ليس فيه متهم بالوضع وانظر فتح البارى (ج ٢ ص ٤٩٥) .

عن أنس بن مالك أن أعرابيا جاء إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله ! أتيناك ومالنا بعير يئط ، ولا صبى يغط ، ثم أنشد :

أتيناك والعذراء يدمى لبانها
وقد شغلت أم الصبى عن الطفل
وألقى بكفيه الفتى استكانة
من الجوع ضعفا ما يمر ولا يحلى
ولا شىء مما يأكل الناس عندنا
سوى الحنظل العامى والعلهز الغسل
وليس لنا إلا إليك فرارنا
وأين فرار الناس إلا إلى الرسل

فقام يجر رداءه حتى صعد المنبر فرفع يديه فقال :

«اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريئا مريعا غدقا طبقا نافعا غير ضار عاجلا غير رائث تملأ به الضرع ، وتنبت به الزرع ، وتحيى به الأرض بعد موتها . قال فما رد رسول الله ﷺ يديه حتى ألقت السماء بأردافها ، وجاء الناس يضجون الغرق ، فقال ﷺ : حوالينا ولا علينا» ..

فانجاب السحاب عن المدينة .

فانظر كيف أسند ﷺ الإغاثة والنفع ونحوهما ـ إلى الغيث على سبيل المجاز فى الإسناد ، وكيف أقر الشاعر على قوله وليس لنا إلا إليك فرارنا ـ البيت ولم يعده مشركا ـ لأن القصر فيه إضافى ، وهل كان يخفى عليه ﷺ قوله تعالى : ﴿ففروا إلى الله﴾ ، وقد أنزلت عليه .

والمعنى أن الفرار المرجو نفعه المؤكد ـ إليك لا إلى من دونك ، وإلى الرسل لا إلى من دونهم ـ فإن المرسلين أعلى من بهم يتوسل إلى الله عز وجل ، وأعظم من يقضى الله الحوائج على أيديهم للملتجئين إليهم والمستغيثين وتأمل جيدا ـ تأثره الشديد ﷺ بما أنشده هذا الشاعر ، وشدة سرعته إلى نجدتهم وإغاثتهم حيث قام إلى المنبر يجر رداءه ـ ولم يتمهل حتى يصلحه إستعجالا لإجابة داعيه ، وإسراعا إلى إغاثة مناديه ، عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام .

* * *

النبى ﷺ هو ركننا وعصمتنا وملاذنا

ولقد ناداه حسان بن ثابت ووصفه بأنه الركن الذى يعتمد عليه والعصمة الذى يلجأ إليه ، فقال :

ياركن معتمد وعصمة لائذ
ومـلاذ منتجع وجـار مجاور

يامن تخيره الإله لخلقه
فحباه بالخلق الزكى الطاهر

أنت النبى وخير عصبة آدم
يامن يجود كفيض بحر زاخر

ميكال معك وجبرئيل كلاهما
مدد لنصرك من عزيز قادر

أنظر الإصابة : (١ /٢٦٤) والروض الأنف : (٢ /٩١) .

حمزة فاعل الخيرات وكاشف الكربات

عند ابن شاذان من حديث ابن مسعود : ما رأينا رسول الله ﷺ باكيا قط أشد من بكائه على حمزة بن عبدالمطلب وضعه فى القبلة ثم وقف على جنازته وانتحب حتى نشغ من البكاء يقول : ياحمزة ياعم رسول الله ﷺ وأسد الله وأسد رسوله يا حمزة يا فاعل الخيرات ياحمزة يا كاشف الكربات يا ذاب عن وجه رسول الله ـ اهـ من المواهب اللدنية (ج ١ ص ٢١٢) .

لا فرق بين الحياة والموت :

فإن قال قائل : إن الاستغاثة به ﷺ وشكوى الحال إليه وطلب الشفاعة والعون منه وكل ما يكون فى هذا الباب إنما يصح فى حياته ، أما بعد موته فهو كفر وربما تسامح فقال : (غير مشروع) أو قال : (لا يجوز) .

فنقول : إن الاستغاثة والتوسل إن كان المصحح لطلبها هو الحياة كما يقولون فالأنبياء أحياء فى قبورهم وغيرهم من عباد الله المرضيين .

ولو لم يكن للفقيه من الدليل على صحة التوسل والاستغاثة به ﷺ بعد وفاته إلا قياسه على التوسل والاستغاثة به فى حياته الدنيا لكفى فإنه حيى الدارين دائم العناية بأمته ، متصرف بإذن الله فى شؤونها خبير بأحوالها تعرض عليه صلوات المصلين عليه من أمته ويبلغه سلامهم على كثرتهم .

ومن اتسع علمه بشئون الأرواح وماجعلها الله عليه من الخصائص لا سيما العالية منها اتسع قلبه للإيمان بذلك فكيف بروح الأرواح ونور الأنوار نبينا عليه الصلاة والسلام .

ولو كان طلب الشفاعة أو الاستغاثة أو التوسل به عليه الصلاة والسلام شركا وكفرا ـ كما توهموه ـ لما جاز فى حال من الأحوال لا فى الحياة الدنيا ولا فى الحياة الأخرى لا يوم القيامة ولا قبلها فإن الشرك ممقوت عند الله فى كل حال .

* * *

دعــوى باطلــة

أمـا دعـوى أن الميت لا يقـدر على شيء فهـى باطلـة لأنـــه إن كان ذلك لكونهم يعتقدون أن الميت صار ترابـا فهـذا عين الجهـل بما ورد عن نبينـا ﷺ بل عن ربنا جل جلاله من ثبـوت حيـاة الأرواح وبقائهـا بعـد مفارقـة الأجسام ومنـاداة النبى ﷺ ـ لها يوم بدر :

«يا عمرو بن هشام ويا عتبة بن ربيعة ويـا فلان ابـن فلان إنـا وجدنـا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا» ..

فقيل له : ما ذلك ؟ فقال :

«ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» ..

ومن ذلك تسليمه على أهل القبور ومناداته لهم بقوله :

«السلام عليكم يا أهل الديار» ..

ومن ذلك عذاب القبر ونعيمـه ، وإثبـات المجىء والذهـاب إلى الأرواح إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة التى جاء بها الإسلام وأثبتتها الفلسفة قديما وحديثا .

ولنقتصر هنا على هذا السؤال :

أيعتقدون أن الشهداء أحياء عنـد ربهم كما نطـق القـرآن بذلك أم لا ؟ فإن لم يعتقدوا فلا كلام لنا معهـم لأنهم كذبـوا القـرآن حيث يقـول : ﴿ولا تقولـوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ .. ولا تحسبن الذيـن قتلـوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ .

وإن اعتقـدوا ذلك فنقـول لهم : إن الأنبيـاء وكثيرا من صالحى المسلـــمين الذين ليسوا بشهداء كأكابر الصحابـة أفضل من الشهـداء بلا شك ولا مريـة فإذا ثبتت الحياة للشهداء فثبوتها لمن هو أفضل منهم أولى على أن حياة الأنبيـاء مصرح بها فى الأحاديث الصحيحة .

فإذن نقـول : حيث ثبـتت حيـاة الأرواح بالأدلـة القطعيـة فلا يسعنـا بعـد

ثبوت الحياة إلا إثبات خصائصها فإن ثبوت الملزوم يوجب ثبوت اللازم كما إن نفى اللازم يوجب نفى الملزوم كما هو معروف .

وأى مانع عقلا من الاستغاثة إلى الله بها والاستمداد منها كما يستعين الرجل بالملائكة فى قضاء حوائجه أو كما يستعين الرجل بالرجل [وأنت بالروح لا بالجسم إنسان] .

وتصرفات الأرواح على نحو تصرفات الملائكة لا تحتاج إلى مماسة ولا آلة ، فليست على نحو ما تعرف من قوانين التصرفات عندنا فإنها من عالم آخر ، ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى﴾ ، وماذا يفهمون من تصرف الملائكة أو الجن فى هذا العالم ؟

ولا شك أن الأرواح لها من الاطلاق والحرية ما يمكنها من أن تجيب من يناديها وتغيث من يستغيث بها كالأحياء سواء بسواء بل أشد وأعظم .
فإن كانوا لا يعرفون إلا المحسوسات ولا يعترفون إلا بالمشاهدات فهذا هو شأن الطبيعيين لا المؤمنين على أننا نتنزل معهم ونسلم لهم أن الأرواح بعد مفارقة الأجساد لا تستطيع أن تعمل شيئا ولكن نقول لهم : إذا فرضنا ذلك وسلمنا جدلا فلنا أن نقرر أنه ليست مساعدة الأنبياء والأولياء للمستغيثين بهم من باب تصرف الأرواح فى هذا العالم ، بل مساعدتهم لمن يزورهم أو يستغيث بهم بالدعاء لهم كما يدعو الرجل الصالح لغيره ، فيكون من دعاء الفاضل للمفضول ، أو على الأقل من دعاء الأخ لأخيه ، وقد علمت أنهم أحياء يشعرون ويحسون ويعلمون ، بل الشعور أتم والعلم أعم بعد مفارقة الجسد لزوال الحجب الترابية وعدم منازعات الشهوات البشرية .

وقد جاء فى الحديث[1] : أن أعمالنا تعرض عليه ـ ﷺ ـ فإن وجد خيرا حمد الله وإن وجد غير ذلك استغفر لنا ، ولنا أن نقول : إن المستغاث به والمطلوب منه الإغاثة هو الله تعالى ، ولكن السائل يسأل متوسلا إلى الله بالنبى ﷺ فى أنه يقضى حاجته ، فالفاعل هو الله ، ولكن أراد السائل أن يسأله تعالى

---

(١) ذكرنا هذا الحديث فى غير موضع من هذا الكتاب مع تخريجه .

بعض المقربين لديه الأكرمين عليه ، فكأنه يقول : أنا من محبيه [أو محسوبيه] فارحمني لأجله وسيرحم الله كثيرا من الناس لأجل النبي ﷺ - وغيره من الأنبياء والأولياء والعلماء .

وبالجملة فإكرام الله لبعض أحباب النبي ﷺ لأجل نبيه بل بعض العباد لبعض ، أمر معروف غير مجهول ، ومن ذلك الذين يصلون على الميت ويطلبون من الله أن يكرمه ويعفو عنه لأجلهم بقولهم : وقد جئناك شفعاء فشفعنا .

* * *

هل طلب ما لا يقدر عليه إلا الله شرك ؟

ومن جملة الدعاوى الباطلة التي يستمسك به هؤلاء المكفرون لمن يتوسل بالنبي ﷺ أو يطلب منه هو قولهم : إن الناس يطلبون من الأنبياء والصالحين الميتين ما لا يقدر عليه إلا الله وذلك الطلب شرك .

وجوابه أن هذا سوء فهم لما عليه المسلمون في قديم الدهر وحديثه فإن الناس إنما يطلبون منهم أن يتسببوا عند ربهم في قضاء ما طلبوه من الله عز وجل بأن يخلقه سبحانه بسبب تشفعهم ودعائهم وتوجههم كما صح ذلك في الضرير وغيره ممن جاء طالبا مستغيثا متوسلا به إلى الله وقد أجابهم إلى طلبهم وجبر خواطرهم وحقق مرادهم بإذن الله ولم يقل ﷺ لواحد منهم : أشركت ، وهكذا كل ما طلب منه من خوارق العادات كشفاء الداء العضال بلا دواء وإنزال المطر من السماء حين الحاجة إليه ولا سحاب ، وقلب الأعيان ونبع الماء من الأصابع ، وتكثير الطعام وغير ذلك فهو مما لا يدخل تحت قدرة البشر عادة وكان يجيب إليه ولا يقول عليه الصلاة والسلام لهم : إنكم أشركتم فجددوا إسلامكم فإنكم طلبتم مني ما لا يقدر عليه إلا الله .

أفيكون هؤلاء أعلم بالتوحيد وبما يخرج عن التوحيد من رسول الله وأصحابه ، هذا ما لا يتصوره جاهل فضلا عن عالم .

وحكى القرآن المجيد قول نبى الله سليمان لأهل مجلسه من الجن والإنس : ﴿يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين﴾ .. فهو يطلب منهم الاتيان بالعرش العظيم من اليمن إلى موضعه بالشام على طريقة خارقة للعادة ليكون ذلك آية لصاحبته داعية إلى إيمانها .

ولما قال عفريت من الجن : ﴿أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾ ، يعنى فى ساعات قليلة ، قال نبى الله عليه الصلاة والسلام : أريد أعجل من ذلك ، فقال الذى عنده علم من الكتاب وهو أحد الصديقين من أهل مجلسه من الإنس : ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ يعنى قبل أن يرجع إليك طرفك إذا أرسلته ، فقال عليه الصلاة والسلام : ذلك أريد فدعا الرجل فإذا بالعرش بين يديه .

فالإتيان بالعرش على هذه الطريقة هو مما لا يقدر عليه إلا الله وليس داخلا تحت مقدور الإنس ولا الجن عادة وقد طلبه سليمان من أهل مجلسه ، وقال ذلك الصديق له : أنا أفعل ذلك ، أفكفر نبى الله سليمان بذلك الطلب وأشرك ولىّ الله بهذا الجواب حاشاهما من ذلك ، وإنما إسناد الفعل فى الكلامين على طريقة المجاز العقلى ، وهو سائغ بل شائع .

وكشف الخفاء عن هذا اللبس إن كان ثم خفاء هو أن الناس إنما يطلبون منهم التشفع إلى الله فى ذلك وهو مما أقدرهم الله عليه ، وملكهم إياهم ، فالقائل يا نبى الله إشفنى أو اقض دينى ، فإنما يريد إشفع لى فى الشفاء وادع لى بقضاء دينى وتوجه إلى الله فى شأنى فهم ما طلبوا منه إلا ما أقدرهم الله عليه وملكهم إياه من الدعاء والتشفع .

وهذا هو الذى نعتقده فيمن قال ذلك وندين الله على هذا فالإسناد فى كلام الناس من المجاز العقلى الذى لا خطر فيه على من نطق به كقوله سبحانه وتعالى : ﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض﴾ ، وقوله عليه الصلاة والسلام : **«إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم»** ..

وهو فى كلام الله ورسوله والخاصة والعامة كثير جدا وليس فيه محذور فإن صدوره من الموحدين قرينة على مرادهم وليس فيه شىء من سوء الأدب ، وقد فصلنا هذه الحقيقة فى مبحث خاص بها من هذا الكتاب .

إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله

[هذا طرف من الحديث المشهور الذى رواه الترمذى وصححه عن ابن عباس مرفوعا] .

وهذا الحديث يخطىء كثير من الناس فى فهمه ، إذ يستدل به على أنه لا سؤال ولا استعانة مطلقا من كل وجه وبأى طريق إلا بالله ويجعل السؤال والاستعانة بغير الله من الشرك المخرج عن الملة ، وهو بهذا ينفى الأخذ بالأسباب والاستعانة بها ويهدم كثيرا من النصوص الواردة فى هذا الباب .

والحق أن هذا الحديث الشريف ليس المقصود به النهى عن السؤال والاستعانة بما سوى الله كما يفيده ظاهر لفظه ، وإنما المقصود به النهى عن الغفلة عن أن ماكان من الخير على يد الأسباب فهو من الله ، والأمر بالانتباه إلى أن ما كان من نعمة على يد المخلوقات فهو من الله وبالله ، فالمعنى : وإذا أردت الاستعانة بأحد من المخلوقين ، ولا بد لك منها فاجعل كل اعتمادك على الله وحده ولا تحجبنك الأسباب عن رؤية المسبب جل جلاله ، ولا تكن ممن يعلمون ظاهرا من هذه الارتباطات والعلاقات بين الأشياء المترتب بعضها على بعض ، وهم عن الذى ربط بينها غافلون .

وقد أومأ هذا الحديث نفسه إلى هذا المعنى ، وذلك فى قوله عليه الصلاة والسلام عقب هذه الجملة الشريفة : واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعت على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك» فأثبت لهم كما نرى نفعا وضرا بما كتبه الله للعبد أو عليه .

فهذا منه ﷺ يوضح مراده .

وكيف ننكر الاستعانة بغيره ، وقد جاء الأمر بها فى مواضع كثيرة من الكتاب والسنة ، قال تعالى : ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ ، وقال : ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ .

وحكى عن العبد الصالح ذى القرنين قوله : ﴿فأعينونى بقوة﴾ ، وفى مشروعية صلاة الخوف الثابتة بالكتاب والسنة مشروعية استعانة بعض الخلق ببعض ، وكذا فى أمره تعالى المؤمنين بأن يأخذوا حذرهم من عدوهم .

وكذا فى ترغيبه عليه الصلاة والسلام للمؤمنين فى قضاء حوائج بعضهم بعضا ، والتيسير على المعسر والتفريج عن المكروب ، وفى ترهيبه من اهمال ذلك ، وهو فى السنة كثير ، روى الشيخان : من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته .

وروى مسلم وأبو داود وغيرهما عنه عليه الصلاة والسلام : «والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه» . وقال ﷺ :

إن لله خلقا خلقهم لحوائج الناس يفزع الناس إليهم فى حوائجهم ، أولئك الآمنون من عذاب الله» .

فانظر إلى قوله ﷺ :

«يفزع إليهم فى حوائجهم» ولم يجعلهم مشركين بل ولا عاصين ..

وروى أيضا مرفوعا :

«إن لله عند أقوام نعما أقرها عندهم ما كانوا فى حوائج المسلمين ما لم يملوهم ، فإذا ملوهم نقلها إلى غيرهم» ..

وروى هو وابن أبى الدنيا عنه ﷺ :

«إن لله أقواما اختصهم بالنعم لمنافع العباد ، يقرهم فيها ما بذلوها فإذا منعوها نزعها منهم فحولها إلى غيرهم» ..

قال الحافظ المنذرى : ولو قيل بتحسين سنده لكان ممكنا . وقال ﷺ :

«لأن يمشى أحدكم مع أخيه فى قضاء حاجته ـ وأشار باصبعه ـ أفضل من أن يعتكف فى مسجدى هذا شهرين» ..

رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

* * *

وإذا سألت فاسأل الله

أما قوله صلى الله عليه وسلم :
«وإذا سألت فاسأل الله» ..

فإنه لا مستمسك فيه ولا دليل لمنع السؤال أو التوسل ، ومن فهم من ظاهره منع السؤال من الغير مطلقا أو منع التوسل بالغير على الإطلاق فقد أخطأ الطريق وغالط نفسه كل المغالطة وذلك لأن من اتخذ الأنبياء والصالحين وسيلة إلى الله ، لجلب خير منه عز وجل أو دفع خير كذلك ، فهو ليس إلا سائلا الله وحده أن ييسر له ما طلب أو يصرف عنه ما شاء متوسلا إليه بمن توسل به ، وهو فى ذلك آخذ بالسبب الذى وضعه الله لينجح العبيد فى قضاء حوائجهم منه عز وجل ، ومن أخذ بالسبب الذى أمر الله بسلوكه لنيل جوده فما سأل السبَب بل سأل واضعه فقول القائل : يارسول الله أريد أن ترد عينى أو يزول عنا البلاء أو أن يذهب مرضى ، فمعنى ذلك طلب هذه الأشياء من الله بواسطة شفاعة رسوله ﷺ وهو كقوله : أدع لى بكذا واشفع لى فى كذا ، لا فرق بينهما إلا أن هذه أصرح فى المراد من ذلك ، ومثلهما فى ذلك أوضح قول المتوسل : اللهم إنى أسألك بنبيك تيسير كذا مما ينفع أو دفع كذا من الشر ، فالمتوسل فى ذلك كله ما سأل فى حاجته إلا الله عز وجل .

وبهذا تعلم أن الاحتجاج على منع التوسل بقوله عليه الصلاة والسلام :
«إذا سألت فاسأل الله» ..

هو مغالطة فى حمل الحديث على ما هو ظاهر الفساد ، من أنه لا يصح لأحد أن يسأل غير الله شيئا ، فإن من فهم هذا من الحديث فقد أخطأ الخطأ كله ويكفى فى بيان الخطأ ، أن الحديث نفسه ، إنما هو جواب منه عليه الصلاة والسلام لسؤال ابن عباس راوى الحديث بعد تشويق رسول الله ﷺ أن يسأله فإنه قال : يا غلام ! ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، فأى تحريض على السؤال أجمل من هذا ؟

قال ابن عباس : بلى ، فأجابه عليه الصلاة والسلام بهذا الحديث الذى منه هذه الجملة .

ولوجرينا على هذا الوهم ، ما صح على مقتضاه ، أن يسأل جاهل عالما ، ولا واقع فى مهلكة غوثا ، ممن تتوقف نجاته على إغاثته ، ولا دائن مدينا قضاء ما عليه ، ولا مستقرض قرضا ، ولما صح للناس يوم القيامة أن يسألوا النبيين الشفاعة ولا صح لنبى الله عيسى أن يأمرهم بسؤالها سيد المرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام ، فإن الدليل على هذا الوهم الذى توهموه عام ، يشمل عدم صحة ما ذكرناه وما لم نذكره .

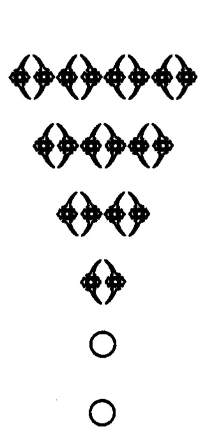
فإن قالوا : إن الممنوع إنما هو سؤال الأنبياء والصالحين من أهل القبور فى برازخهم لأنهم غير قادرين ، وقد سبق رد هذا الوهم مبسوطا ، وإجماله : إنهم أحياء قادرون على الشفاعة والدعاء ، وحياتهم حياة برزخية لائقة بمقامهم يصح بها نفعهم بالدعاء والاستغفار ، والمنكر لذلك أخف أحواله أنه جاهل بما كاد يلحق بالتواتر من سنته عليه الصلاة والسلام ، الدال على أن موتى المؤمنين لهم فى حياتهم البرزخية العلم والسماع والقدرة على الدعاء وما شاء الله من التصرفات فما الظن بأكابر أهل البرزخ من النبيين وسائر الصالحين .

وفى حديث الإسراء الصحيح بل المشهور ـ ما فعل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع خيرهم محمد ﷺ من الصلاة خلفه والخطب بين يديه ـ والدعاء له فى السماوات ـ حتى أن الأمة ما ظفرت بتخفيف خمسين صلاة ـ إلى خمس فى كل يوم وليلة بشفاعته ﷺ المتعددة ـ إلا بعد إشارة كليم الله موسى بن عمران بها عليه ، صلى الله عليهما وسلم .

وبهذايتبين أن المقصود من الحديث ـ ليس ما توهموه فإنه فاسد واضح الفساد كما تبين ، وإنما المقصود منه الترهيب من سؤال الناس أموالهم بلا محاجة طمعا فيها ، والقناعة بما يسر الله ولو كان قليلا ، والتعفف عما لا تدعو إليه الحاجة مما بأيدى الناس ، وأن يستغنى بسؤال الله من فضله فإنه يحب الملحين فى الدعاء ـ والناس على العكس .

الله يغضب إن تركت سؤاله :: وبنى آدم حين يسأل يغضب

فالمعنى - إنك إذا رأيت في يد أحد من المال ما أعجبك وطمحت إليه نفسك فلا تسأله مافي يده واستعن بسؤال الله من فضله - عن سؤال عبده فالحديث إرشاد إلى القناعة ، والتنزه عن الطمح ، وأين هذا من سؤال الله بأنبيائه وأليائه أو سؤال أنبياءه الشفاعة للسائلين فيما جعل الله شفاعتهم فيه الذي هو من أقوى الأسباب في النجاح ، ولكن الإنسان إذا ركب الهوى شط به في مجال الأوهام ، وخرج به عن جادة الأفهام .



إنه لا يستغاث بى

جاء فى الحديث إنه كان فى زمن النبى ﷺ منافق يؤذى المؤمنين ، فقال أبوبكر الصديق : قوموا بنا لنستغيث برسول اله ﷺ من هذا المنافق ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

«إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله» ..

رواه الطبرانى فى معجمه الكبير .

وهذا الحديث قد يستدل به من يقول بمنع الاستغاثة به ﷺ ، وهذا استدلال باطل من أصله وذلك لأنه لو أجراه على ظاهره لكان المقصود به منع الاستغاثة به ﷺ مطلقا ، كما هو ظاهر اللفظ ، وهذا منقوض بفعل الصحابة معه ﷺ إذ كانوا يستغيثون ويستسقون به ويطلبون منه الدعاء وهو يستجيب لذلك بفرح وسرور وحينئذ فلا بد من تأويله بما يناسب عمومات الأحاديث لينتظم شمل النصوص فنقول : إن المراد بقوله ذلك هو إثبات حقيقة التوحيد فى أصل الاعتقاد وهو أن المغيث حقيقة هو الله تعالى والعبد ما هو إلا واسطة فى ذلك أو أنه أراد أن يعلمهم أنه لا يطلب من العبد ما لا يقدر عليه كالفوز بالجنة والنجاة من النار والهداية التى هى العصمة من الغواية وضمان الختم على السعادة .

والحديث لا يدل على تخصيص الاستعانة والاغاثة بالحى دون الميت ولا يمت بصلة إلى هذا التفريق بل إن ظاهره يمنع الاستغاثة أبدا بما سوى الله دون تفريق بين حى وميت وهذا غير مقصود لما قدمناه .

وقد أشار الشيخ ابن تيمية فى الفتاوى إلى نحو هذا المعنى حيث قال : قد يكون فى كلام الله ورسوله عبارة لها معنى صحيح لكن بعض الناس يفهم من تلك غير مراد الله ورسوله فهذا يرد عليه فهمه ، كما روى الطبرانى فى معجمه الكبير أنه كان فى زمن النبى ﷺ منافق يؤذى المؤمنين ، فقال أبوبكر الصديق : قوموا بنا لنستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فقال النبى ﷺ :

«إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله» ..

فهذا إنما أراد به النبى ﷺ المعنى الثانى وهو أن يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله ، وإلا فالصحابة كانوا يطلبون منه الدعاء ويستسقون به كما فى صحيح البخارى عن ابن عمر قال : ربما تذكّرت الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبى ﷺ يستسقى فما ينزل حتى يجيش له ميزاب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه :: ثمال اليتامى عصمة للأرامل

الفاظ مستعملة وردت فى هذا الباب

وقد وردت ألفاظ فى مدح النبى ﷺ حصل بسببها اللبس عند بعضهم فحكم بالكفر على قائليها وذلك كقولهم : ليس لنا ملاذ سوى النبى ﷺ .

ولا رجاء إلا هو ..

وأنا مستجير به ..

وإليه يفزع فى المصائب

وإن توقفت فمن أسأل

ومقصودهم ليس لنا ملاذ أى من الخلق ، ولا رجاء أى من البشر ، وإليه يفزع فى المصائب أى من سائر الخلق لكرامته عند مولاه وليقوم هو بالتوجه إلى الله والطلب منه وإن توقفت فمن أسأل أى من عباد الله .

ومع أننا فى دعائنا وتوسلنا لا نستعمل مثل هذه الألفاظ ولا ندعو إليها ولا نحث عليها دفعا للإيهام وابتعادا عن الألفاظ المختلف فيها وتمسكا بالظاهر الذى لا خلاف فيه إلا أننا نرى أن الحكم على قائليها بالكفر تسرع ليس بمحمود وتصرف لا حكمة فيه وذلك لأنه لا بد من أن نأخذ فى الاعتبار أن قائليها هم من الموحدين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيمون الصلاة ويصدقون بجميع أركان الدين ويؤمنون بالله ربا وبمحمد نبيا وبالإسلام دينا وبذلك صارت لهم ذمة أهل الدين وحرمة الإسلام ، فعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«من صلى صلاتنا وأسلم واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذى له ذمة الله ورسوله فلا تخفروا الله فى ذمته» ..

رواه البخارى .

ومن هنا فإن الواجب علينا أننا إذا وجدنا فى كلام المؤمنين إسناد شيء لغير الله سبحانه وتعالى فإنه يجب حمله على المجاز العقلى ولا سبيل إلى تكفيرهم إذ المجاز العقلى مستعمل فى الكتاب والسنة فصدور ذلك الإسناد من موحد كاف فى جعله إسنادا مجازيا لأن الاعتقاد الصحيح هو إعتقاد أن الله هو الخالق للعباد وأفعالهم لا تأثير لأحد سواه لا لحى ولا لميت فهذا الاعتقاد هو التوحيد بخلاف من اعتقد غير هذا فإنه يقع فى الإشراك وليس فى المسلمين إطلاقا من يعتقد لأحد مع الله فعل أو ترك أو رزق أو إحياء أو إماتة وما جاء من الألفاظ الموهمة فإن مقصود أصحابها هو الاستشفاع إلى الله بتلك الوسيلة فالمقصود هو الله سبحانه وتعالى وليس من المسلمين رجل واحد يعتقد فيمن يطلبه أو يسأله أنه قادر على الفعل والترك دون التفات إلى الله تعالى من قريب أو بعيد أو مع التفات هو أدنى إلى الشرك بالله ونعوذ بالله أن نرمى مسلما بشرك أو كفر من أجل خطأ أو جهل أو نسيان أو اجتهاد[1] .

ونحن نقول : إن كان كثير من هؤلاء يخطئون فى التعبير بطلب المغفرة والجنة والشفاء والنجاح وسؤالهم ذلك من رسول الله ﷺ مباشرة فإنه لا يخطئهم التوحيد ، لأن المقصود هو الاستشفاع إلى الله بتلك الوسيلة فكأنه يقول : يا رسول الله ! اسأل الله أن يغفر لى وأن يرحمنى ، وأنا أتوسل بك إليه فى قضاء حاجتى وتفريج كربتى وتحقيق رغبتى .

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يستعينون به صلى الله عليه وسلم ويستغيثون ويطلبون منه الشفاعة ويشكون حالهم إليه من الفقر والمرض والبلاء والدين والعجز ، كما ذكرناه .

---

(١) تكرر ايراد هذه الحقيقة فى كتابنا هذا لتعدد المناسبات ، وقد عقدنا لها مبحثا خاصا بعنوان : «المجاز العقلى» وبه ينجلى كثير من الأشكال وسوء الفهم .

ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لا يفعل ذلك بنفسه إستقلالا بذاته أو بقوته ، وإنما هو بإذن الله وأمره وقدرته وهو عبد مأمور له مقامه وجاهه عند ربه ، وله كرامته التى يدخل بها على الله عامة البشر ممن يؤمنون به ويصدقون برسالته ويعتقدون فضله وكرامته .

ونحن نعتقد أن من اعتقد خلاف هذا فقد أشرك بلا خلاف .

ولذلك تراه صلى الله عليه وسلم فى بعض الأحيان ينبه على هذا إذا ظهر له بطريق الوحى أو الحال أن السائل أو السامع ناقص الاعتقاد ففى موقف يخبر أنه سيد ولد آدم ، وفى موقف آخر ينبههم على أن السيد هو الله ، وفى موقف يستغيثون به ويعلمهم أن يتوسلوا به ، وفى موقف يقول لهم : إنما يستغاث بالله ولا يستغاث بى ، وفى موقف يسألونه ويستغيثون به فيجيبهم إلى طلبهم ، بل ويخيرهم بين أمرين ، الصبر على البلاء مع ضمانة الجنة أو كشف البلاء سريعا كما خير الأعمى وخير المرأة التى تصرع ، وخير قتادة الذى ذهبت عينه ، وفى موقف يقول لهم : إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، وفى موقف يقول : من فرج عن مؤمن كربة .. وفى موقف يقول : لا يأتى بالخيرات إلا الله .

وبهذا يظهر لك أن عقيدتنا بحمد الله أصفى عقيدة وأطهر ، فالعبد لا يفعل شيئا بنفسه مهما كانت رتبته أو درجته حتى أفضل الخلق صلى الله عليه وسلم ، إنما يعطى ويمنع ويضر وينفع ويجيب ويعين بالله سبحانه وتعالى .
فإذا استغيث به أو استعين أو طلب فإنما يتوجه إلى المولى جل شأنه سبحانه وتعالى ، فيطلب ويدعو ويسأل ويشفع فيجاب ويشفع .

وما كان يقول لهم : لا تطلبوا منى شيئا ولا تسألونى ولا تشكوا حالكم إلىّ بل توجهوا إلى الله واسألوه فبابه مفتوح وهو قريب مجيب لا يحتاج إلى أحد ، وليس بينه وبين خلقه حجاب ولا بواب .



موقف الشيخ محمد بن عبدالوهاب من هذه الألفاظ التى زعموا أنها شرك أو ضلال

وللشيخ محمد بن عبدالوهاب موقف عظيم ورأي حكيم فى هذا الباب وخصوصا بالنسبة لبعض الألفاظ المشتهرة على الألسنة ، والتى زعم من يدعى حماية التوحيد والغيرة عليه أنه شرك ، وإن قائلها مشرك – وها هو إمام التوحيد ورأس الموحدين يقول : كلمته السديدة بحكمته الرشيدة التى بسببها انتشرت دعوته بين الأنام واشتهرت طريقته عند الخاص والعام ، استمع إلى قوله رحمه الله فى عقيدته ضمن رسالته رحمه الله إلى عبدالله بن سحيم مطوع أهل المجمعة :

إذا تبين هذا فالمسائل التى شنع بها منها : ما هو من البهتان الظاهر ، وهي قوله : إنى مبطل كتب المذاهب ، وقوله : إنى أقول : إن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شئ ، وقوله : إنى أدعى الإجتهاد ، وقوله : إنى خارج عن التقليد ، وقوله : إنى أقول : إن اختلاف العلماء نقمة ، وقوله : إنى أكفر من توسل بالصالحين ، وقوله : إنى أكفر البوصيرى لقوله : ياأكرم الخلق ، وقوله : إنى أكفر من توسل بالصالحين ، وقوله : إنى أقول : لو أقدر على هدم حجرة الرسول لهدمتها ، ولو أقدر على الكعبة لأخذت ميزابها وجعلت لها ميزابا من خشب ، وقوله : إنى أنكر زيارة قبر النبى ﷺ ، وقوله : إنى أنكر زيارة قبر الوالدين وغيرهم ، وإنى أكفر من يحلف بغير الله ، فهذه اثنتا عشرة مسألة ، جوابى فيها أن أقول : ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ ، ولكن قبله من بهت النبى محمدا ﷺ أنه يسب عيسى ابن مريم ، ويسب الصالحين ، ﴿تشابهت قلوبهم﴾ .

كذا فى الرسالة الحادية عشرة من رسائل الشيخ ضمن مجموعة مؤلفاته القسم الخامس ص ٦١ .

وقد نشرتها جامعة محمد بن سعود الإسلامية فى أسبوع الشيخ محمد ابن عبدالوهاب .

الخلاصة

والحاصل أنه لا يكفر المستغيث إلا إذا اعتقد الخلق والايجاد لغير الله تعالى ، والتفرقة بين الأحياء والأموات لا معنى لها فإنه إن اعتقد الإيجاد لغير الله كفر على خلاف للمعتزلة فى خلق الأفعال ، وإن اعتقد التسبب والاكتساب لم يكفر .

وأنت تعلم أن غاية ما يعتقد الناس فى الأموات هو أنهم متسببون ومكتسبون كالأحياء لا أنهم خالقون موجدون كالإله إذ لا يعقل أن يعتقد فيهم الناس أكثر من الأحياء وهم لا يعتقدون فى الأحياء إلا الكسب والتسبب ، فإذا كان هناك غلط فليكن فى اعتقاد التسبب والاكتساب لأن هذا هو غاية ما يعتقده المؤمن فى المخلوق وإلا لم يكن مؤمنا والغلط فى ذلك ليس كفرا ولا شركا .

ولا نزال نكرر على مسامعك أنه لا يعقل أن يعتقد فى الميت أكثر مما يعتقد فى الحى فيثبت الأفعال للحى على سبيل التسبب ، ويثبتها للميت على سبيل التأثير الذاتى والإيجاد الحقيقى فإنه لا شك أن هذا مما لا يعقل .

فغاية أمر هذا المستغيث بالميت ـ بعد كل تنزل ـ أن يكون كمن يطلب العون من المقعد غير عالم أنه مقعد ، ومن يستطيع أن يقول : إن ذلك شرك ؟ على أن التسبب مقدور للميت وفى إمكانه أن يكتسبه كالحى بالدعاء لنا فإن الأرواح تدعوا لأقاربهم .

وجاء عن النبى ﷺ أنه قال : إن أعمالكم تعرض على أقاربكم من الأموات فإن كان خيراً استبشروا به وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم لاتمتهم حتى تهديهم إلى ماهديتنا ، أخرجه أحمد وله طرق يشد بعضها بعضا ، أنظر الفتح الرباني ترتيب المسند ج ٧ ص ٨٩ وشرح الصدور للسيوطي .

وجاء عن ابن المبارك بسنده إلى أبى أيوب ، قال : تعرض أعمال الاحياء على الموتى ، فإذا رأوا حسنا فرحوا واستبشروا ، وإن رأوا سوءا قالوا : أللهم راجع بهم . (أنظر كتاب الروح لابن القيم) .

الباب الثانى

مبَاحث نبويّـة

وفيها بيان خصائص النبىّ صلى الله عليه وسَلم
وحقيقة النبوّة وحقيقة البشرية وحقيقة الحياة البرزخية

الخصائص المحمدية وموقف العلماء منها

اعتنى العلماء بالخصائص النبوية اعتناء عظيما بالتأليف والشرح والجمع والإفراد بالبحث وأشهرها وأجمعها «الخصائص الكبرى» للإمام الحافظ جلال الدين السيوطى .

وهذه الخصائص كثيرة جدا منها ما صح سنده ومنها ما لم يصح ومنها ما هو مختلف فيه بين العلماء إذ يرى بعضهم أنه صحيح ويرى الآخرون خلاف ذلك فهى مسائل خلافية .

والكلام فيها دائر بين العلماء من قديم بين الصواب والخطأ والصحة والبطلان ، لا بين الكفر والإيمان ، والعلماء يختلفون فى كثير من الأحاديث ويرد بعضهم على بعض فى تصحيحها وتضعيفها أوردها لاختلاف أنظارهم فى تقييم أسانيدها ونقد رجالها ، فمن صحح منها الضعيف أو ضعف الصحيح أو أثبت المردود أو رد الثابت بحجة أو تأويل أو شبهة دليل فقد سلك مسلك العلماء فى البحث والنظر ، وذلك من حقه كإنسان له عقله وفهمه والمجال مفتوح والميدان فسيح والعلم مشاع بين الجميع .

وقد شجع عليه إمام العقلاء وسيد العلماء النبى الأعظم والرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم إذ جعل للمجتهد المصيب أجرين وللمجتهد المخطىء أجراً .

ولم يزل العلماء يتسامحون فى نقل الخصائص النبوية وينظرون إليها على أنها داخلة فى فضائل الأعمال ولا تتعلق بالحلال والحرام وعلى هذا بنى العلماء قاعدتهم فى العمل بالحديث الضعيف فى فضائل الأعمال مادام أنه ليس موضوعا ولا باطلا بشروطهم المعتبرة فى هذا الباب ولا يشترطون فيها الصحيح بالمعنى المصطلح عليه ، ولو ذهبنا إلى اشتراط هذا الشرط الشاذ لما أمكن لنا ذكر شىء من سيرة النبى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وبعد البعثة مع أنك تجد كتب الحفاظ الذين

عليهم العمدة وعلى صنيعهم المعول ، والذين منهم عرفنا ما يجوز وما لا يجوز ذكره من الحديث الضعيف نجد كتبهم مملوءة بالمقطوعات والمراسيل وما أخذ عن الكهان وأشباههم فى خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن ذلك مما يجوز ذكره فى هذا المقام .

كتب السلف والخصائص :

ولو رجعنا إلى كتب السلف لوجدنا كثيرا من علماء الأمة وأئمة الفقه يذكرون فى كتبهم جملة من خصائص النبى صلى الله عليه وسلم وينقلون من هذه الخصائص عجائب وغرائب ولو توقف الباحث فى قبولها على صحة سندها لما صفا له من ذلك إلا نزر يسير بالنسبة لمقدار ما نقوله منها ، وهذا كله اعتمادا على ما هو معروف من قواعد العلماء وأصولهم المقررة فى هذا الباب .



ابن تيمية والخصائص النبوية

أما الشيخ ابن تيمية وهو معروف بتشدده فقد نقل فى كتبه بعض الأقوال فى هذا الموضوع التى لم يصح سندها واستشهد بها فى كثير من المسائل واعتبرها معتمدة فى بيان أو تأييد ما يفسره من الحديث ، ومن ذلك على سبيل المثال قوله فى الفتاوى الكبرى : قد روى أن الله كتب اسمه أى النبى ﷺ على العرش وعلى ما فى الجنة من الأبواب والقباب والأوراق ، وروى فى ذلك عدة آثار توافق هذه الأحاديث الثابتة التى تبين التنويه باسمه وإعلاء ذكره حين قال : وقد تقدم لفظ الحديث الذى فى المسند عن ميسرة الفجر لما قيل له : متى كنت نبيا ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد ، وقد رواه أبو الحسين بن بشران من طريق الشيخ أبى الفرج ابن الجوزى فى الوفا بفضل المصطفى ﷺ : حدثنا أبو جعفر محمد بن عمرو وحدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح حدثنا محمد بن صالح حدثنا محمد بن سنان العوفى حدثنا إبراهيم بن طهمان عن يزيد بن ميسرة عن عبدالله بن سفيان عن ميسرة قال : قلت : يارسول الله ! متى كنت نبيا ؟ قال :

«لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وخلق العرش كتب على ساق العرش محمد رسول الله خاتم الأنبياء ، وخلق الجنة التى أسكنها آدم وحواء فكتب اسمى على الأبواب والأوراق والقباب والخيام وآدم بين الروح والجسد ، فلما أحياه الله تعالى نظر إلى العرش فرأى اسمى فأخبره الله أنه سيد ولدك ، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمى إليه» .. اهـ .

(الفتاوى ج ٢ ص ١٥١)

ابن تيمية والكرامات :

والخصائص والكرامات من جنس واحد من ناحية الحكم عليها ونقلها وعدم التشدد فيها كما نتشدد فى نقل الأحكام من الحلال والحرام فهى كلها تدور فى فلك المناقب والفضائل .

ومن هنا كان موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من كرامات الأولياء نفس موقفه من خصائص الأنبياء .

وقد نقل فى كتبه جملة صالحة من الكرامات وخوارق العادات التى وقعت فى الصدر الأول .

ولو بحثنا عن درجاتها وأسانيدها وطريق ثبوتها لوجدنا أن منها الصحيح ومنها الحسن ومنها الضعيف ومنها المقبول ومنها المردود ومنها المنكر ومنها الشاذ .

وكل ذلك فى هذا الباب مقبول وعن العلماء محمول ومنقول فمن ذلك قوله فى كرامات لبعض الصحابة ـ رضى الله عنهم :

١ ـ خرجت، أم أيمن مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء فكادت تموت من العطش فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة سمعت حسا على رأسها فرفعته فإذا دلو معلق فشربت منه حتى رويت وما عطشت بقية عمرها .

٢ ـ وهذا سفينة مولى رسول الله ﷺ أخبر الأسد بأنه رسول رسول الله ﷺ فمشى معه الأسد حتى أوصله مقصده .

٣ ـ وهذا البراء بن مالك كان إذا أقسم على الله تعالى أبر قسمه وكانت الحرب إذا اشتدت على المسلمين فى الجهاد يقولون : يا براء ! اقسم على ربك ، فيقول : يا رب ! أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم فهزم العدو ، فلما كان يوم القادسية قال : أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وجعلتنى أول شهيد ، فمنحوا أكتافهم ، وقتل البراء شهيدا .

٤ ـ وهذا خالد بن الوليد حاصر حصنا منيعا فقالوا : لا نسلم حتى تشرب السم فشربه فلم يضره .

٥ ـ وهذا عمر بن الخطاب لما أرسل جيشا أمر عليهم رجلا يسمى سارية فبينا عمر يخطب فجعل يصيح على المنبر يا سارية الجبل يا سارية الجبل ، فقدم رسول الجيش فسأل فقال : يا أمير المؤمنين لقينا عدو فهزمونا فإذا بصائح : يا سارية الجبل ، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله .

٦ ــ وهذا العلاء بن الحضرمى كان عامل رسول الله ﷺ على البحرين وكان يقول فى دعائه : يا عليم ، يا حليم ، يا علي ، يا عظيم فيستجاب له ، ودعا الله بأن يسقوا ويتوضوا لما عدموا الماء والاسقاء لما بعدهم فأجيب ، ودعا الله لما اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم فمروا على الماء ما ابتلت سروج خيولهم ودعا الله أن لا يروا جسده إذا مات ، فلم يجدوه فى اللحد .

٧ ــ وجرى مثل ذلك لأبى مسلم الخولانى الذى ألقى فى النار ، فإنه مشى هو ومن معه من العسكر على دجلة وهى ترمى بالخشب من مدها ثم التفت إلى أصحابه فقال : تفقدون من متاعكم شيئا حتى أدعو الله عز وجل فيه ؟ فقال بعضهم : فقدت مخلاة ، فقال : اتبعنى فتبعه فوجدها قد تعلقت بشىء فأخذها وطلبه الأسود العنسى لما ادعى النبوة فقال له : أتشهد أنى رسول الله ؟ قال : ما أسمع ، قال : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ قال : نعم ، فأمر بنار فألقى فيها فوجدوه قائما يصلى فيها وقد صارت عليه بردا وسلاما ، وقدم المدينة بعد موت النبى ﷺ فأجلسه عمر بينه وبين أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنهما ، وقال : الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرى من أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الله ، ووضعت له جارية السم فى طعامه فلم يضره وخببت[1] امرأة عليه زوجته فدعا عليها فعميت ، وجاءت وتابت فدعا لها الله فرد عليها بصرها .

٨ ــ وكان سعيد بن المسيب فى أيام الحرة يسمع الأذان من قبر رسول الله ﷺ أوقات الصلوات ، وكان المسجد قد خلا فلم يبق غيره .

٩ ــ وكان عمرو بن عقبة بن فرقد يصلى يوما فى شدة الحر فأظلته غمامة وكان السبع يحميه وهو يرعى ركاب أصحابه لأنه كان يشترط على أصحابه فى الغزو أنه يخدمهم .

١٠ ــ وكان مطرف بن عبدالله بن الشخير إذا دخل بيته سبحت معه آنيته ، وكان هو وصاحب له يسيران فى ظلمة فأضاء لهما طرف السوط . اهـ .

(من الفتاوى الكبرى للشيخ ابن تيمية جـ ١١ ص ٢٨١)

---

(١) الخب : الخداع .

الشيخ ابن القيم وجلوس النبى ﷺ على العرش(١٨)

وقد نقل الإمام العلامة شيخ الإسلام ابن القيم خصوصية عجيبة غريبة وعزاها إلى كثير من أئمة السلف رضى الله عنهم ـ وهى قوله :

[فائدة] قال القاضى صنف المروزى كتابا فى فضيلة النبى ﷺ وذكر فيه إقعاده على العرش قال القاضى : وهو قول أبى داود وأحمد بن أصرم ويحي ابن أبى طالب وأبى بكر بن حماد وأبى جعفر الدمشقى وعياش الدورى وإسحاق ابن راهويه وعبد الوهاب الوراق وإبراهيم الأصبهانى وإبراهيم الحربى وهارون بن معروف ومحمد بن إسماعيل السلمى ومحمد بن مصعب العابد وأبى بكر بن صدقة ومحمد ابن بشر بن شريك وأبى قلابة وعلي ابن سهل وأبى عبد الله بن عبد النور وأبى عبيد والحسن بن فضل وهارون بن العباس الهاشمى وإسماعيل بن إبراهيم الهاشمى ومحمد ابن عمران الفارسى الزاهد ومحمد بن يونس البصرى وعبد الله بن الإمام أحمد المروزى وبشر الحافى ، انتهى ، قال الشيخ ابن القيم : [قلت] : وهو قول ابن جرير الطبرى وإمام هؤلاء كلهم مجاهد إمام التفسير وهو قول أبى الحسن الدار قطنى ومن شعره فيه :

حديث الشفاعة عن أحمد ... إلى أحمد المصطفى مسنده

وجاء حديث باقعاده ... على العرش أيضا فلا نجحده

أمرّوا الحديث على وجهه ... ولا تدخلوا فيه ما يفسده

ولا تنكروا أنه قاعد ... ولا تنكروا أنه يُقعده

اهـ (بدائع الفوائد للشيخ ابن القيم ج ٤ ص ٤٠) .

---

(١٨) أنظر الملحق آخر الكتاب رقم ١٨ .

كشاف القناع وخصائص عجيبة

ذكر الفقيه العلامة الشيخ منصور بن يونس البهوتي في كتابه «كشاف القناع» جملة من خصائص النبى صلى الله عليه وسلم قد يستغربها كثير ممن يقصر عقله عن فهم هذه الأصول واستيعاب تلك القواعد .

فمنها قوله : والنجس منا طاهر منه ﷺ ومن سائر الأنبياء صلى الله عليهم وسلم ، ويجوز أن يستشفى ببوله ودمه لما رواه الدارقطنى أن أم أيمن شربت بوله ، فقال : [إذن لا تلج النار بطنك] ، لكنه ضعيف ، ولما رواه ابن حبان فى الضعفاء [إن غلاما حجم النبى ﷺ فلما فرغ من حجامته شرب دمه ، فقال : ويحك ما صنعت بالدم ؟ قال : غيبته فى بطنى ، قال : [اذهب فقد أحرزت نفسك من النار] . قال الحافظ ابن حجر : وكان السر فى ذلك ما صنعه الملكان من غسلهما جوفه .

ومنها قوله : ولم يكن له ﷺ [فىء] أى ظل [فى الشمس والقمر لأنه نورانى والظل نوع ظلمة] . ذكره ابن عقيل وغيره ، ويشهد له أنه سأل الله أن يجعل فى جميع أعضائه وجهاته نورا وختم بقوله واجعلنى نورا ، [وكانت الأرض تجتذب أثقاله] للأخبار .

ومنها قوله : المقام المحمود جلوسه ﷺ على العرش ، وعن عبدالله بن سلام على الكرسى ذكرهما البغوى .

وقوله : إنه كان لا يتثاءب .

وأنه عرض عليه الخلق من آدم إلى من بعده كما علم آدم أسماء كل شيء لحديث الديلمى : [مثلت لى الدنيا بالماء والطين فعلمت الأشياء كلها] ، وعرض عليه أمته بأسرهم حتى رآهم لحديث الطبرانى : [عرضت عليَّ أمتى البارحة لدى هذه الحجرة أولها وآخرها صُوِّروا لى بالماء والطين حتى إنى لأعرف بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه] ، وعرض عليه أيضا ما هو كائن فى أمته حتى تقوم الساعة لحديث أحمد وغيره [أدريت ما تلقى أمتي بعدي وسفك بعضهم دماء بعض] .

ومنها قوله : [وزيارة قبره مستحبة للرجال والنساء] لعموم ما روى الدارقطنى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : [من حج وزار قبرى بعد وفاتى فكأنما زارنى فى حياتى] اهـ (كشاف القناع ج ٥ ص ٣٠) طبع بأمر الملك فيصل بن عبدالعزيز آل سعود ـ رحمه الله .

فهذه الخصائص التى ذكروها ونقلوها منها ما هو صحيح ومنها ما هو ضعيف ومنها ما لا دليل له أصلا .

فلا أدرى ماذا يقول المعترض فى هذه الخصائص التى نقلها كبار الأئمة من أهل السنة ولم يعترضوا عليها بشيء وسلموها وتسامحوا فى نقلها اعتمادا على قاعدة التسامح فى نقل الفضائل مع أن فى هذه الخصائص من الأقوال ما لو سمعه المعترض أو المنكر لحكم على قائله بما هو أعظم من الكفر وأين ما نقلناه بجانب من قال : إن سيدنا محمدا ﷺ يجلسه الله يوم القيامة على عرشه كما نقله الإمام الشيخ ابن القيم عن كبار أئمة السلف فى كتابه المعروف [بدائع الفوائد] بلا برهان ولا دليل صحيح من كتاب ولا سنة ، وأين ما نقلناه من الخصائص بجانب ما جاء فى كشاف القناع من أن النبى نور وأنه لا ظل له وأن ما يخرج منه من الغائط تبتلعه الأرض فلا يبقى شيء منه على وجه الأرض ، وأين ما نقلناه من الخصائص بجانب ما نقله الشيخ ابن تيمية من الخصائص كقوله : إن اسمه ﷺ مكتوب على ساق العرش وعلى أوراق الجنة وأشجارها وأبوابها وثمارها وقبابها ، فأين المعلقون والمحققون كيف فاتت عليهم هذه المسائل دون نقد وتمحيص .

* * *

الجنة تحت أقدام الأمهات فكيف لا تكون تحت أمر النبى ﷺ

ومن خصائص النبوية التى جرى فيها البحث بين أهل العلم ما جاء من أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم يقطع أرض الجنة ، وقد ذكر هذه الخصوصية الحافظ السيوطى والقسطلانى والزرقانى فى شرحه على المواهب اللدنيّة ، ومعلوم أن هذا الإقطاع لا يكون إلا لمن يستحقه من أهل التوحيد وبإذن من الله سبحانه وتعالى إما من طريق الوحى أو الإلهام أو التفويض من الله سبحانه وتعالى ، وقد أشار إلى ذلك ﷺ بقوله : إنما أنا قاسم والله معطى . وإذا صح التعبير بأن الجنة تحت أقدام الأمهات ، فكيف لا يصح التعبير بأن الجنة تحت أمره ﷺ بل تحت قدمه ، والمعنى واحد ومعروف عند أدنى طلاب العلم معرفة فهو تعبير مجازى المقصود منه أن الوصول إلى الجنة هو من طريق بر الوالدين وخدمتهما وخصوصا الأم ، وهو بالنسبة للنبى ﷺ من حيث طاعته ومحبته وموالاته .

ولهذه الخصوصية أمثال كثيرة تشهد لصحتها سنذكر أهمها .

النبى ﷺ يضمن الجنة :

ويأتى فى معنى إقطاع أرض الجنة ضمانة النبى ﷺ الجنة لبعضهم ، وهذا ما حصل لأهل بيعة العقبة ، فعن عبادة بن الصامت قال : كنت ممن حضر العقبة الأولى وفيه فبايعنا رسول الله ﷺ على أن لا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا نأتى ببهتان عظيم نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه فى معروف ، قال : فإن وفيتم فلكم الجنة وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر. ذكره ابن كثير فى باب بدء إسلام الأنصار (السيرة ج ٢ ص ١٧٦).

وجاء فى الصحيح التصريح بأن تلك البيعة مشروطة بالجنة ، قال عبادة ابن الصامت : إنى من النقباء الذين بايعوا رسول اله صلى الله عليه وسلم وقال : بايعناه على أن لا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل النفس التى حرم الله

إلا بالحق ولا ننهب بالجنة إن فعلنا ذلك[1] . رواه البخارى فى كتاب (مناقب الأنصار باب بيعة العقبة) . وفى رواية : إنه ﷺ قال : فمن وفى فله الجنة . كذا فى البداية (ج ٣ ص ١٥٠) .

وعن قتادة أنهم قالوا : يارسول الله ! فمالنا بذلك إن وفينا ؟ قال : الجنة اهـ

(البداية ج ٣ ص ١٦٢)

وعن ابن مسعود أن النبى ﷺ قال :

«فإذا علمتم ذلك فلكم على الله الجنة وعلىّ» ..

رواه الطبرانى أنظر (كنز العمال ج ١ ص ٦٣) ومجمع الزوائد (ج ٦ ص ٤٧).

وعن عتبة بن عمرو الأنصارى أنه ﷺ قال :

«فإذا علمتم ذلك فلكم على الله الجنة وعلىّ» ..

رواه ابن أبى شيبة وابن عساكر ـ أنظر كنز العمال (ج ١ ص ٦٧) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

«إن رسول الله ﷺ اعطاه نعليه ، فقال له : اذهب فمن لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله فبشره بالجنة» ..

رواه مسلم فى كتاب الإيمان .

صكوك لدخول الجنة بيده ﷺ

وروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال :

«قال رسول الله ﷺ : يوضع للأنبيـــاء منابـــر من نور يجلسون عليها ويبقى منبرى لا أجلس عليه ، أو قال : لا أقعد عليه ، قائما بين يدى ربى مخافة أن يبعث بى إلى الجنة وتبقى أمتى بعد ، فأقول : يارب ! أمتى أمتى ، فيقول الله عز وجل : يا محمد ! ما تريد أن أصنع بأمتك ؟ فأقول : يا رب

(١) أى بايعناه بالجنة على فعل ذلك ، يعنى اشترطوا عليه ضمانة الجنة لهم ، فأعطاهم .

عجل حسابهم ، فيدعى بهم فيحاسبون ، فمنهم من يدخل الجنة برحمته ، ومنهم من يدخل الجنة بشفاعتى ، فما أزال أشفع حتى أعطى صكا برجال قد بعث بهم إلى النار حتى إن ملكا خازن النار ليقول : يا محمد ! ماتركت لغضب ربك فى أمتك من نقمة» ..

رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط والبيهقى فى البعث . قال المنذرى : وليس فى رواته متروك .

النبى صلى الله عليه وسلم يعطى الجنة :

جاء فى رواية عن جابر رضى الله عنه إنه قال : فقلنا فعلام نبايعك ؟ فقال :

«على السمع والطاعة فى النشاط والكسل وعلى النفقة فى العسر وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولكم الجنة» .. الحديث .

قال الحافظ ابن حجر : ولأحمد من وجه آخر عن جابر قال : كان العباس آخذا بيد رسول الله ﷺ فلما فرغنا قال رسول الله ﷺ :

«اخذت واعطيت» .. اهـ (فتح البارى ج ٧ ص ٢٢٣) ، رواه أحمد [مجمع الزوائد ج ٦ ص ٤٨] أى أخذت البيعة وأعطيت الجنة .

قلت : وقد جاء فى رواية أخرى التصريح بما هو أبلغ من ذلك قال جابر : إن النبى ﷺ قال لهم : تبايعونى على السمع والطاعة إلى أن قال : ولكم الجنة ، قال : فقالوا : والله لا ندع هذه البيعة أبدا ولا نسلبها أبدا فبايعناه فأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنة . قال الهيثمى روى أصحاب السنن طرفا منه ، رواه أحمد والبزار ، ورجال أحمد رجال الصحيح اهـ . (مجمع الزوائد ج ٦ ص ٤٦) .

النبى ﷺ يبيع الجنة وعثمان يشتريها :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : اشترى عثمان الجنة من النبى صلى الله عليه وسلم مرتين بيع الحق حيث حفر بئر معونة وحيث جهز جيش العسرة . رواه الحاكم فى مستدركه (ج ٣ ص ١٠٧) وصححه .

وكل عاقل يدرى أن الجنة لله سبحانه وتعالى لا يملكها أحد ولا يتصرف فيها أحد مهما كانت قيمته ودرجته لا ملك ولا نبى ولا رسول ولكن الله يمن على رسله ويعطيهم من المنح التى تميزهم عن غيرهم وذلك لكرامتهم عنده وعلو مقامهم لديه ، فتنسب إليهم تلك العطايا وتضاف إليهم تلك التصرفات على جهة التكريم والتعظيم والاحترام والتقديم ، ومن هذا المنطلق جاء التعبير فى خصائص النبى ﷺ من أنه يقطع أرض الجنة أو يضمن الجنة أو يبيع الجنة أو يبشر بالجنة مع أن الجنة لله سبحانه وتعالى لا يشك فى ذلك ولا يرتاب إلا جاهل ليس عنده أدنى معرفة بأبسط مسائل العلم .

اللهم نور بصائرنا وافتح مسامع قلوبنا وارنا الحق حقا وارزقنا اتباعه .

ماهو المقصود بليلة المولد المفضلة :

ذكر بعض العلماء فى الخصائص النبوية أن ليلة المولد النبوى أفضل من ليلة القدر وعقد مقارنة فى هذا الموضوع بين الليلتين ، والذى نحب أن نذكره هنا هو أن المقصود بهذه الليلة هى الليلة التى وقع فيها الميلاد النبوى حقيقة وهى قد مضت منذ مئات السنين وهى كانت قبل أن تعرف أو تظهر ليلة القدر بلا شك وليس المقصود بذلك ليلة المولد المتكررة كل عام ، والتى هى نظائر ليلة الميلاد الحقيقى ، والحق أن البحث فى هذه المسألة ليس بكبير فائدة ولا يترتب على إنكاره أو الإقرار به ضرر أو خطر ولا يعارض ذلك شيئا من أصول العقيدة ، وقد بحث العلماء فى مسائل حقيرة وألفوا فيها رسائل خاصة وهى لا تساوى شيئا أمام هذه المسألة ، والحاصل أننا نعتقد أن هذه المفاضلة هى بين ليلة المولد الحقيقى ، وبين ليلة القدر ، وأن الليلة التى وقع فيها المولد النجوى والتى جرى فيها بحث المفاضلة والمقارنة قد مضت وانتهت ولا وجود لها اليوم ، أما ليلة القدر فهى موجودة ومتكررة فى كل عام ولذلك فهى أفضل الليالى لقوله تعالى : ﴿إنا أنزلناه فى ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ .

والبحث فى هذه المسألة وأمثالها جرى بين أئمة العلم وتكلم فيه كبار السلف ، فهذا الشيخ الإمام ابن تيمية يتكلم عن مسألة المقارنة بين ليلة القدر وليلة الإسراء

ويبحث فيها بدقة وإتقان مع أنه لم يثبت أنه بحث فيها أو تكلم عنها أحد قبله من أئمة السلف وأهل القرون الأولى فضلا عن الصحابة فضلا عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

فتوى ابن تيمية فى الموضوع :

قال الإمام الشيخ ابن القيم : سئل شيخ الإسلام رحمه الله عن رجل قال : ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر ، وقال آخر : بل ليلة القدر أفضل ، فأيهما مصيب ؟ فأجاب الحمد لله ، أما القائل بأن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر فإن أراد به أن تكون الليلة التى أسرى فيها بالنبى ﷺ ونظائرها من كل عام أفضل لأمة محمد ﷺ من ليلة القدر بحيث يكون قيامها والدعاء فيها أفضل منه فى ليلة القدر فهذا باطل لم يقله أحد من المسلمين وهو معلوم الفساد بالإطراد من دين الإسلام ، وإن أراد الليلة المعينة التى أسرى فيها بالنبى ﷺ وحصل له فيها ما لم يحصل له فى غيرها من غير أن يشرع تخصيصها بقيام ولا عبادة فهذا صحيح.

(انظر مقدمة زاد المعاد لابن القيم) .

* * *

لا تطـــرونى

فهم بعض النـاس من قولـه ﷺ : لا تطـرونى كما اطـرت النـصارى عيسى ابن مريم . النهى عن مدحـه ﷺ واعتبـار ذلك من الإطـراء والغلـو المذمـوم المؤدى إلى الشرك وأن كل من مدحـه ﷺ ورفعـه عن غيره من عامـة البشر وأثنـى عليـه ووصفه بما يميزه عن غيره فقد ابتدع فى الدين وخالف سنة سيد المرسلين .

وهذا فهم سىء ويدل على قصر نظر صاحبه وذلك أن النبـى ﷺ نهى أن يطرى كما أطرت النصارى ابن مريم إذ قالوا : ابن الله .

ومعنى ذلك أن من أطراه ﷺ ووصفه بما وصف به النصارى نبيهم فقد صار مثلهم .

أما من مدحه ووصفه بما لا يخرجه عن حقيقة البشرية معتقدا أنه عبدالله ورسوله مبتعدا عن معتقد النصارى فإنه ولا شك من أكمل الناس توحيدا .

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم   واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

فإن فضل رسول الله ليس له   حد فيعرب عنه ناطق بفـم

فمبلغ العلم فيه أنه بشر   وأنه خير خلق الله كلهم

لقد تولى الله سبحانه وتعالى بنفسه مدح نبيه المصطفى ﷺ فقال : ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ وأمر بالأدب معه فى الخطاب والجواب ، فقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى﴾ ، ونهانا أن نعامله كما يعامل بعضنا بعضا ، أو أن نناديه كما ينادى بعضنا بعضا ، فقال :

﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا﴾ ..

وذم الذين يسوّون بينه وبين غيره فى المعاملة والأسلوب فقال : ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ .

وقد كان الصحابة الكرام يمتدحون النبى ﷺ ، فهذا حسان بن ثابت يقول :

أغــــرّ عليــــه للنبـــوة خاتم | من الله مشهـــود يلـــوح ويشهـــد
وضم الإلـــه اسم النبـــى إلى اسمه | إذا قال فى الخمس المؤذن أشهـــد
وشق له من اسمه ليجلـــــــــه | فذو العرش محمـــود وهـــذا محمـــد
نبـــى أتانـــا بعـــد يأس وفتـــرة | من الرسل والأوثـان فى الأرض تعبـــد
فأمسى سراجـــا مستـــنيرا وهاديـــا | يلـــوح كما لاح الصقيـــل المهنـــد
فأنذرنـــا نارا وبشر جنـــــة | وعلمنـــا الإسلام فللـــه نحمـــد

ويقول أيضا :

يا ركـن معتمـــد وعصمـــة لائـــذ | ومـــلاذ منتجـــع وجـــار مجـــاور
يا من تخـيّـــره الإلـــه لخلقـــه | فحبـــاه بالخلق الزكـــى الطـــاهـــر
أنت النبـــى وخير عصبـــة آدم | يا من يجود كفـــيض بحر زاخـــر
ميكـــال معك وجبرئيـــل كلاهما | مـــدد لنصرك من عزيـــز قادر

وهذه صفية بنت عبد المطلب ترثى رسول الله ﷺ :

ألا يارسول اللـــه كنت رجاءنـــا | وكـــنت بنـــا برا ولم تك جافـــيـــا
وكـــنت رحيمـــا هاديـــا ومعلمـــا | ليبك عليك اليوم من كان باكيـــا
صدقت وبلـــغت الرسالـــة صادقـــا | رمت صليب العود أبلـــج صافيـــا
فدًى لرسول اللـــه أمـــى وخالتـــى | وعمـــى وآبـــائى ونـــفسى وماليـــا
لعمرك ما أبكى النبـــى لفـــقـــده | ولكـن لما أخشى من الهـــرج آتـــيـــا
كأن على قلبـــى لذكـــر محمـــد | ومـــا خفت بعـــد النبـــى مطاويـــا
فلـــو أن رب النـــاس أبقـــى نبينـــا | سعدنـــا ولكـــن أمـــره كان ماضيـــا
عليك من اللـــه الســـلام تحيـــة | وادخـلت جنات من العـدن راضيـــا
أفـاطـــم صـــلى الله رب محمـــد | على جـــدث أمسى بطيبـــة ثاويـــا

وهذا كعب بن زهير يمدح النبى ﷺ بقصيدته المعروفة التى مطلعها :

بانت سعـاد فقلبى اليـــوم متبـــول | متيم إثرهـــا لم يفـــد مكبـــــول

قال :

أنبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول
إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
فى عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا
يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عود السود التنابيل

وفى رواية أبى بكر ابن الأنبارى أنه لما وصل إلى قوله :

إن الرسول لنور يستضاء به :: مهند من سيوف الله مسلول

رمى ـ عليه الصلاة والسلام ـ إليه بردة كانت عليه ، وأن معاوية بذل له فيها عشرة آلاف ، فقال : ما كنت لأوثر برسول الله ﷺ أحدا ، فلما مات كعب بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفا فأخذها منهم .

وها هو ﷺ يمدح نفسه بنفسه قال :

أنا خير أصحاب اليمين .

أنا خير السابقين .

أنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر .

(رواها الطبرانى والبيهقى فى الدلائل)

وقال : أنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر .

(رواه الترمذى والدارمى)

وقال : «لم يلتق أبواى على سفاح قط» .

(رواه ابن عمر العدنى فى مسنده)

ويقول جبريل عليه السلام : «قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر رجلا أفضل من محمد ولم أر بنى أب أفضل من بنى هاشم» .

(رواه البيهقى وأبونعيم والطبرانى عن عائشة رضى الله عنها)

وعن أنس رضى الله عنه :

«أن النبى ﷺ أتى بالبراق ليلة أسرى به فاستصعب عليه ، فقال له جبريل : بمحمد تفعل هذا ؟ فما ركبك أحد أكرم على الله منه فارفضّ عرقا»..

(رواه الشيخان)

وفى حديث أبى سعيد قال :

«قال رسول الله ﷺ : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبى يومئذ ـ آدم فمن سواه ـ إلا تحت لوائى ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر» ..

(رواه الترمذى وقال : حسن صحيح)

وعن أنس قال :

قال رسول الله ﷺ : «أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا ، و أنا قائدهم إذا وفدوا ، وأنا خطيبهم إذا انصتوا ، وأنا شفيعهم إذا حبسوا ، وأنا مبشرهم إذا يئسوا ، الكرامة والمفاتيح يومئذ بيدى ولواء الحمد يومئذ» ..

«وأنا أكرم ولد آدم على ربى يطوف علي ألف خادم كأنهم بيض مكنون أو لؤلؤ منثور» ..

(رواه الترمذى والدارمى)

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال :

أنا أول من تنشق عنه الأرض فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم على يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيرى» ..

(رواه الترمذى وقال : حسن صحيح)

* * *

الأنبياء بشر ولكن ..

يظن بعض الناس أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يساوون غيرهم من البشر فى كل أحوالهم وأعراضهم ، وهذا خطأ واضح وجهل فاضح ترده الأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة .

وهم وإن كانوا يشتركون مع جميع بنى آدم فى حقيقة الأصل التى هى البشرية من قوله جل ذكره : ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ إلا أنهم يختلفون عنهم فى كثير من الصفات والعوارض وإلا فما هى مزيتهم ؟ وكيف تظهر ثمرة اصطفائهم على غيرهم واجتبائهم على من سواهم .

وسنذكر فى هذا المبحث شيئا من صفاتهم فى الدنيا وخصائصهم فى البرزخ التى ثبتت لهم بنص الكتاب والسنة .

الأنبياء سادة البشر :

الأنبياء هم الصفوة المختارة من عباد الله شرّفهم الله بالنبوة وأعطاهم الحكمة ورزقهم قوة العقل وسداد الرأى واصطفاهم ليكونوا وسطاء بينه وبين خلقه يبلغونهم أوامر الله عز وجل ويحذرونهم غضبه وعقابه ويرشدونهم إلى ما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وقد اقتضت حكمة الله أن يكونوا من البشر ليتمكن الناس من الاجتماع بهم والأخذ عنهم والاتباع لهم فى سلوكهم وأخلاقهم ، والبشرية هى عين إعجازهم فهم بشر من جنس البشر لكنهم متميزون عنهم بما لا يلحقهم به أحد ، ومن هنا كانت ملاحظة البشرية العادية المجردة فيهم دون غيرها هى نظرة جاهلية شركية .

فمن ذلك قول قوم نوح فى حقه فيما حكاه الله عنهم إذ قال : ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا﴾ سورة هود : ٢٧ ، ومن ذلك قول قوم موسى وعيسى فى حقهما فيما حكاه الله عنهم إذ قال : ﴿فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾ المؤمنون : ٤٧ .

ومن ذلك قول أصحاب ثمود له فيما حكاه الله عنه بقوله : ﴿ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين﴾ الشعراء : ١٥٤ .

ومن ذلك قول أصحاب الأيكة لنبيهم شعيب فيما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين﴾ الشعراء : ١٨٦ .

ومن ذلك قول المشركين فى حق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد رأوه بعين البشرية المجردة فيما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿وقالوا ماهـذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق﴾ .

صفات الأنبياء :

والأنبياء صلوات الله عليهم وإن كانوا من البشر يأكلون ويشربون ويصحون ويمرضون وينكحون النساء ويمشون فى الأسواق وتعتريهم العوارض التى تمر على البشر من ضعف وشيخوخة وموت إلا أنهم يمتازون بخصائص ويتصفون بأوصاف عظيمة جليلة هى بالنسبة لهم من ألزم اللوازم ومن أهم الضروريات وهذه الصفات نلخصها فيما يلى :

١ ـ الصدق .

٢ ـ التبليغ .

٣ ـ الأمانة .

٤ ـ الفطانة .

٥ ـ السلامة من العيوب المنفرة .

٦ ـ العصمة .

وليس هذا محل تفصيل هذه الصفات فقد تكفلت بها كتب التوحيد وسنذكر هنا بعض الصفات التى يتميز بها سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم عن عامة البشر .

يرى من خلفه كما يرى من أمامه :

أخرج الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

«هل ترون قبلتي هاهنا ؟ فوالله ما يخفى عليَّ ركوعكم ولا سجودكم إني لأراكم من وراء ظهري» ..

وأخرج مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ قال :

«أيها الناس إني إمامكم فلا تسبقوني بالركوع ولا بالسجود فإني أراكم من أمامي ومن خلفي» ..

وأخرج عبد الرزاق فى جامعه والحاكم وأبو نعيم عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

«إني لأنظر إلى ما ورائى كما أنظر إلى مابين يدى» ..

وأخرج أبو نعيم عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ :

«إني أراكم من وراء ظهري» ..

يرى ما لا نرى ويسمع ما لا نسمع :

عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ :

«إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون ، أطت السماء وحق لها أن تئط ، والذى نفسى بيده ما فيها موضع أربعة أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجد لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله» .

قال أبو ذر : ياليتنى كنت شجرة تعضد . رواه أحمد والترمذى وابن ماجه .

إبطه الشريف صلى الله عليه وسلم :

أخرج الشيخان عن أنس قال : «رأيت رسول الله ﷺ يرفع يديه فى الدعاء حتى يرى بياض إبطيه» .

وأخرج ابن سعد عن جابر قال : «كان النبى ﷺ إذا سجد يرى بياض إبطيه» . وقد ورد ذكر بياض إبطيه ﷺ فى عدة أحاديث عن جماعة من الصحابة .

قال المحب الطبرى : من خصائصه ﷺ أن الإبط من جميع الناس متغير اللون غيره . وذكر القرطبى مثل ذلك وزاد وأنه لا شعر فيه .

حفظه صلى الله عليه وسلم من التثاؤب :

أخرج البخارى فى التاريخ وابن أبى شيبة فى المصنف وابن سعد عن يزيد ابن الأصم قال : [ما تثاءب النبى ﷺ قط] .

وأخرج ابن أبى شيبة عن مسلمة بن عبد الملك بن مروان قال : [ما تثاءب نبى قط] .

عرقه الشريف صلى الله عليه وسلم :

أخرج مسلم عن أنس قال : [دخل علينا رسول الله ﷺ فقال(1) عندنا فعرق وجاءت أمى بقارورة فجعلت تسلت العرق فاستيقظ النبى ﷺ فقال : يا أم سليم ! ما هذا الذى تصنعين ؟ قالت : عرق نجعله لطيبنا وهو أطيب الطيب].

وأخرج من وجه آخر عن أنس [أن النبى ﷺ كان يأتى أم سليم فيقيل(1) عندها فتبسط له نطعا فيقيل عليه وكان كثير العرق فكانت تجمع عرقه فتجعله فى الطيب والقوارير ، فقال : [يا أم سليم ! ماهذا] ؟ قالت : عرقك أدوف به طيبى] .

طوله صلى الله عليه وسلم :

أخرج ابن خيثمة فى تاريخه والبيهقى وابن عساكر عن عائشة قالت : [لم يكن رسول الله ﷺ بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ، وكان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده ، ولم يكن على حال يماشيه أحد من الناس ينسب إلى الطول إلا طاله رسول الله ﷺ ولربما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولهما ، فإذا فارقاه نسب رسول الله ﷺ إلى الربعة ـ وذكر ابن سبع فى الخصائص ذلك وزاد ـ أنه كان إذا جلس يكون كتفه أعلى من جميع الجالسين] .

---

(1) من القيلولة .

ظله صلى الله عليه وسلم :

أخرج الحكيم الترمذى عن ذكوان أن رسول الله ﷺ لم يكن له ظل فى شمس ولا قمر ، قال ابن سبع : من خصائصه أن الظل كان لا يقع على الأرض ، وأنه كان نورا إذا مشى فى الشمس أو القمر لا ينظر له ظل ، قال بعضهم : ويشهد له حديث قوله ﷺ فى دعائه :

«واجعلنى نورا» ..

وذكر القاضى عياض فى الشفاء والعزفىُّ فى مولده : أن من خصائصه ﷺ أنه كان لا ينزل عليه الذباب ، وذكره ابن سبع فى الخصائص بلفظ : أنه لم يقع على ثيابه ذباب قط ، وزاد أن من خصائصه أن القمل لم يكن يؤذيه .

دمه صلى الله عليه وسلم :

أخرج البزار وأبو يعلى والطبرانى والحاكم والبيهقى عن عبدالله بن الزبير أنه أتى النبى ﷺ وهو يحتجم فلما فرغ ، قال : [يا عبدالله ! إذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لايراك أحد فشربه ، فلما رجع قال : ياعبدالله ! ماصنعت ؟ قال : جعلته فى أخفى مكان علمت أنه مخفى عن الناس ، قال : لعلك شربته ؟ قلت : نعم ، قال : [ويل للناس منك وويل لك من الناس ، فكانوا يرون أن القوة التى به من ذلك الدم] .

نومه صلى الله عليه وسلم :

أخرج الشيخان عن عائشة قالت : يارسول الله ! أتنام قبل أن توتر ؟ قال :

«يا عائشة ! إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبى» ..

وأخرج الشيخان عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

«تنام عينى ولا ينام قلبى» ..

وقال ﷺ :

«الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم» ..

جماعه صلى الله عليه وسلم :

أخرج البخارى من طريق قتادة عن أنس قال : [كان النبى ﷺ يدور على نسائه فى الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشرة ، قلت لأنس : أو كان يطيقه ؟ قال : كنا نتحدث أنه أعطى قوة ثلاثين] .

حفظه ﷺ من الاحتلام :

أخرج الطبرانى من طريق عكرمة عن أنس وابن عباس والدينورى فى [المجالسة] من طريق مجاهد عن ابن عباس قال :

«ما احتلم نبى قط وإنما الاحتلام من الشيطان» ..

بوله صلى الله عليه وسلم :

أخرج الحسن بن سفيان فى مسنده وأبو يعلى والحاكم والدارقطنى وأبو نعيم عن أم أيمن قالت : قام النبى ﷺ من الليل إلى فخارة فى جانب البيت ، فبال فيها ، فقمت من الليل وأنا عطشانة فشربت ما فيها فلما أصبح أخبرته فضحك وقال :

«إنك لن تشتكى بطنك بعد يومك هذا أبدا» ..

وأخرج عبدالرزاق عن ابن جريج قال : أخبرت أن النبى ﷺ كان يبول فى قدح من عيدان ثم يوضع تحت سريره ، فجاء فإذا القدح ليس فيه شيء ، فقال لامرأة يقال لها : بركة كانت تخدم أم حبيبة جاءت معها من أرض الحبشة: أين البول الذى كان فى القدح ؟ قالت : شربته ، قال : صحة يا أم يوسف ، وكانت تكنى أم يوسف ، فما مرضت قط. حتى كان مرضها الذى ماتت فيه . قال ابن دحية : هذه قضية أخرى غير قضية أم أيمن ، وبركة أم يوسف غير بركة أم أيمن(١) .

---

(١) سيأتى مزيد تفصيل لهذه الوقائع فى مفهوم التبرك .

خلاصة مفيدة :

وقد نظم بعضهم جملة من الخصائص التى تميز بها صلى الله عليه وسلم عن غيره من جهة الصفات البشرية العادية فقال :

خص نبينا بعشرة خصال	لم يحتلم قط وما له ظلال
والأرض ما يخرج منه تبتلع	كذلك الذباب عنه ممتنع
تنام عيناه وقلب لا ينام	من خلفه يرى كما يرى أمام
لم يتثاءب قط وهى السابعة	ولد مختونا إليها تابعة
تعرفه الدواب حين يركب	تأتى إليه سرعة لا تهرب
يعلو جلوسه جلوس الجلسا	صلى عليه الله صبحا ومسا

وقد ذكرنا في (مباحث نبوية) من الباب الثاني بعض الخصائص النبوية وخلاصة ما نراه فى ذلك ، وهو أن هذه الخصائص كثيرة جدا ، منها ما صح سنده ، ومنها ما لم يصح ، ومنها ما هو مختلف فيه بين العلماء إذ يرى بعضهم أنه صحيح ، ويرى الآخرون خلاف ذلك ، فهى مسائل خلافية .

والكلام فيها دائر بين العلماء من قديم بين الصواب والخطأ ، والصحة والبطلان ، لا بين الكفر والإيمان ، وقد نقلنا جملة من هذه الخصائص التي منها ماهو صحيح ، ومنها ما هو ليس بصحيح ، ومنها المقبول ، ومنها غير ذلك .

نقلناها لتكون شواهد على ما ذكرناه من تسامح بعض أئمة الحديث فى نقل ذلك دون تحقيق أو نقد ، وليس المقصود من ذلك الكلام حول صحتها وعدم صحتها ، أو ثبوتها وعدم ثبوتها . فتدبّر .

* * *

مفهـــوم التبـرك

يخطىء كثير من الناس فى فهم حقيقة التبرك بالنبى ﷺ وآثاره وآل بيته ووراثه من العلماء والأولياء رضى الله عنهم ، فيصفون كل من يسلك ذلك المسلك بالشرك والضلال كما هى عادتهم فى كل جديد يضيق عنه نظرهم ويقصر عن إدراكه تفكيرهم .

وقبل أن نبين الأدلة والشواهد الناطقة بجواز ذلك ، بل بمشروعيته ينبغى أن نعلم أن التبرك ليس هو إلا توسلا إلى الله سبحانه وتعالى بذلك المتبرَّك به سواء أكان أثرا أو مكانا أو شخصا .

أما الأعيان فلاعتقاد فضلها وقربها من الله سبحانه وتعالى مع اعتقاد عجزها عن جلب خير أو دفع شر إلا بإذن الله .

وأما الآثار فلأنها منسوبة إلى تلك الأعيان فهى مشرفة بشرفها ومكرمة ومعظمة ومحبوبة لأجلها .

وأما الأمكنة فلا فضل لها لذاتها من حيث هى أمكنة وإنما لما يحل فيها ويقع من خير وبر كالصلاة والصيام وجميع أنواع العبادات مما يقوم به عباد الله الصالحون ، إذ تتنزل فيها الرحمات وتحضرها الملائكة وتغشاها السكينة وهذه هى البركة التى تطلب من الله فى الأماكن المقصود لذلك .

وهذه البركة تطلب بالتعرض لها فى أماكنها بالتوجه إلى الله تعالى ودعائه واستغفاره وتذكر ما وقع فى تلك الأماكن من حوادث عظيمة ومناسبات كريمة تحرك النفوس وتبعث فيها الهمة والنشاط للتشبه بأهلها أهل الفلاح والصلاح ، وإليك هذه النصوص المقتبسة من رسالتنا الخاصة فى موضوع البركة .

التبرك بشعره وفضل وضوءه وبصاقه وعرقه :

١ ـ عن جعفر بن عبد الله بن الحكم أن خالد بن الوليد فقد قلنسوة له يوم اليرموك ، فقال : أطلبوها ، فلم يجدوها ـ فقال : أطلبوها فوجدوها ، فإذا هى قلنسوة خلقة ـ أى ليست بجديدة ، فقال خالد:اعتمر رسول الله ﷺ

فحلق رأسه فابتدر الناس جوانب شعره ـ فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها فى هذه القلنسوة ، فلم أشهد قتالا وهى معى إلا رزقت النصر .

قال الحافظ الهيثمى : رواه الطبرانى وأبو يعلى بنحوه ، ورجالهما رجال الصحيح ، وجعفر سمع من جماعة من الصحابة ، فلا أدرى سمع من خالد أم لا (٩ /٣٤٩) ، وذكره ابن حجر فى المطالب العالية (ج ٤ ص ٩٠) ، وفيه يقول خالد : (فما وجهت فى جهة إلا فتح لى) .

٢ ـ وعن مالك بن حمزة بن أبى أسيد الساعدى الخزرجى عن أبيه عن جده أبى أسيد وله بئر بالمدينة يقال لها : بئر بضاعة ، قد بصق فيها النبى ﷺ فهو يشربها ويتيمن بها . رواه الطبرانى ورجاله ثقات .

وصف عروة بن مسعود حال الصحابة مع النبى ﷺ :

٣.ـ قال الإمام البخارى بسنده : ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبى ﷺ بعينه قال : فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيما له ، فرجع عروة إلى أصحابه ، فقال : أى قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى ، والله إن رأيت[1] ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمدا ، والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيما له . رواه البخارى فى كتاب الشروط باب الشروط فى الجهاد.(فتح الباري ج ٥ ص ٣٣٠).

تعليق الحافظ ابن حجر على هذه القصة :

وفيه طهارة النخامة والشعر المنفصل والتبرك بفضلات الصالحين الطاهرة

---

(١) أى ما رأيت .

ولعل الصحابة فعلوا ذلك بحضرة عروة وبالغوا فى ذلك إشارة منهم إلى الرد على ما خشيه من فرارهم ، وكأنهم قالوا بلسان الحال : من يحب إمامه هذه المحبة ويعظمه هذا التعظيم كيف يظن به أنه يفر عنه ويسلمه لعدوه ؟ بل هم أشد اغتباطا به وبدينه وبنصره من القبائل التى يراعى بعضها بعضا بمجرد الرحم ، فيستفاد منه جواز التوصل إلى المقصود بكل طريق سائغ .

(كذا فى فتح البارى ج ٥ ص ٣٤١)

النبى ﷺ يرشد إلى المحافظة على بقية وضوئه :

٤ ـ عن طلق بن علي قال : خرجنا وفدا إلى رسول الله ﷺ فبايعناه وصلينا معه وأخبرناه أن بأرضنا بيعة لنا فاستوهبناه من فضل طهوره ، فدعا بماء فتوضأ وتمضمض ثم صبه لنا فى إداوة وأمرنا فقال لنا : [اخرجوا فإذا أتيتم أرضكم فاكسروا بيعتكم وانضحوا مكانها بهذا الماء واتخذوها مسجدا] ، قلنا : إن البلد بعيد والحر شديد والماء ينشف ، فقال : [مدّوه من الماء فإنه لا يزيده إلا طيبا] . رواه النسائى كذا فى المشكاة (رقم ٧١٦) . وهذا الحديث من الأصول المعتبرة المشتهرة الدالة على مشروعية التبرك به وبآثاره وبكل ما هو منسوب إليه فإنه ﷺ أخذ وضوءه ثم جعله فى إناء ثم أمرهم أن يأخذوه معهم إجابة لطلبهم وتحقيقا لمرادهم ، فلا بد أن هناك سرا قويا متمكنا فى نفوسهم دفعهم إلى طلب هذا الماء بخصوصه ، والمدينة مملوءة بالمياه ، بل وبلادهم مملوءة بالماء فلم هذا التعب والتكلف فى حمل قليل من الماء من بلد إلى بلد مع بعد المسافة وطول السفر وحرارة الشمس ؟ .

نعم كل ذلك لم يهمهم لأن المعنى الذى يحمله هذا الماء يهون عليهم كل مشقة ألا وهو التبرك به وبآثاره وبكل ما هو منسوب إليه وهو لا يوجد فى بلدهم ولا يتوافر على كل حال عندهم ، بل ويتأكد تأييده لهم ﷺ ورضاه عن فعلهم بجوابه لهم لما قالوا : إن الماء ينشف لشدة الحر إذ قال لهم : [مدوه من الماء] ، فبين لهم أن بركته التى حلت فى الماء لا تزال باقية مهما زادوا فيه فهى مستمرة متصلة .

التبرك بشعره ﷺ بعد موته :

٥ ـ عن عثمان بن عبدالله بن موهب قال : أرسلنى أهلى إلى أم سلمة بقدح من ماء فجاءت بجلجل من فضة فيه شعر من شعر النبى ﷺ وكان إذا أصاب الإنسان عين أو شيء بعث إليها مخضبة قال : فاطلعت فى الجلجل فرأيت شعرات حمراء . رواه البخارى فى كتاب اللباس باب ما يذكر فى الشيب .

قال الإمام الحافظ ابن حجر فى الفتح : وقد بينه وكيع فى مصنفه فقال : كان جلجلا من فضة صيغ صوانا لشعرات النبى ﷺ التى كانت عند أم سلمة والجلجل ـ هو شبه الجرس يتخذ من الفضة أو الصفر أو النحاس ، وقد تنزع منه الحصاة التى تتحرك فيه فيوضع فيه ما يحتاج إلى صيانته .

كذا فى فتح البارى (ج ١٠ ص ٣٥٣) .

قال الإمام العينى : وبيان ذلك على التحرير : أن أم سلمة كان عندها شعرات من شعر النبى ﷺ حمر فى شيء مثل الجلجل ، وكان الناس عند مرضهم يتبركون بها ، ويستشفون من بركتها ، ويأخذون من شعره ويجعلونه فى قدح من الماء ، فيشربون الماء الذى فيه الشعر ، فيحصل لهم الشفاء ، وكان أهل عثمان أخذوا منها شيئا وجعلوه فى قدح من فضة ، فشربوا الماء الذى فيه ، فحصل لهم الشفاء ، ثم أرسلوا عثمان بذلك القدح إلى أم سلمة ، فأخذته أم سلمة ، ووضعته فى الجلجل ، فاطلع عثمان فى الجلجل ، فرأى فيه شعرات حمراء .

(قوله : وكان إذا أصاب الإنسان إلى آخره) كلام عثمان بن عبد الله بن موهب : أى كان أهلى كذا فسره الكرمانى .

وقال بعضهم : وكان أى الناس إذا أصاب الإنسان : أى منهم ، والذى قاله الكرمانى أصوب يبين به أن الإنسان إذا أصابه عين أو شيء من الأمراض بعث أهله إليها : أى إلى أم سلمة ، مخضبة ـ بكسر الميم وسكون الخاء المعجمة وفتح الضاد المعجمة والباء الموحدة ـ وهى الاجانة ، ويجعل فيها ماء وشيء من الشعر المبارك ، ويجلس فيها ، فيحصل له الشفاء ، ثم يرد الشعر إلى الجلجل .

(عمدة القارى شرح صحيح البخارى ج ١٨ ص ٧٩) .

النبى ﷺ يقسم شعره بين الناس :

روى مسلم من حديث أنس :

«أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى منى فأتى الجمرة فرماها ، ثم أتى منزله بمنى ونحر ، وقال للحلاق : خذ ، وأشار إلى جانبه الأيمن ثم الأيسر ، ثم جعل يعطيه الناس» ..

وروى الترمذى من حديث أنس أيضا قال : (لما رأى رسول الله ﷺ الجمرة نحر نسكه ثم ناول الحالق شقه الأيمن فحلقه ، فأعطاه لها طلحة ، ثم ناوله شقه الأيسر فحلقه ، فقال : اقسم بين الناس) .

ثم ظاهر رواية الترمذى : أن الشعر الذى أمر أبا طلحة بقسمته بين الناس هو شعر الشق الأيسر ، وهكذا رواية مسلم من طريق ابن عيينة ، وأما رواية حفص بن غياث وعبد الأعلى ففيهما : أن الشق الذى قسمه بين الناس هو الأيمن وكلا الروايتين عند مسلم .

توزيع شعره صلى الله عليه وسلم شعرة شعرة :

وقد جاء فى رواية حفص عند مسلم أيضا بلفظ : (فبدأ بالشق الأيمن فوزعه الشعرة والشعرتين بين الناس ، ثم قال بالأيسر فصنع مثل ذلك) .

وقال أبوبكر فى روايته عن حفص : (قال للحلاق : هاء ، وأشار بيده إلى الجانب الأيمن هكذا ، فقسم شعره بين من يليه ، قال : ثم أشار إشارة إلى الحلاق إلى الجانب الأيسر فحلقه فأعطاه أم سليم) .

الناس يتهافتون على شعره ﷺ :

وفى رواية أحمد فى المسند ما يقتضى أنه أرسل شعر الشق الأيمن مع أنس إلى أمه ـ أم سليم ـ امرأة أبى طلحة ـ فإنه قال فيها : (لما حلق رسول الله ﷺ رأسه بمنى أخذ شق رأسه الأيمن بيده ، فلما فرغ ناولنى فقال : ياأنس ! انطلق بهذا إلى أم سليم ، قال فلما رأى الناس ما خصنا به تنافسوا فى الشق الآخر ، هذا يأخذ الشىء وهذا يأخذ الشىء) .

تحقيق الكلام فى الموضوع :

وقد اختلفت الروايات فى هذا الموضوع كما ترى ، ففى بعضها أن الذى

أعطاه لأبى طلحة هو الشق الأيمن ، والذى قسمه بين الناس هو الأيسر ، وفى بعضها العكس ، وفى بعضها أنه أعطى الأيسر لأم سليم .

ويجمع بين هذه الروايات بما جاء عن صاحب المفهم إذ قال : [إن قوله : لما حلق رسول الله ﷺ شق رأسه الأيمن أعطاه أبا طلحة] ليس مناقضا لما فى الرواية الثانية : أنه قسم شعر الجانب الأيمن بين الناس وشعر الجانب الأيسر أعطاه أم سليم ، وهى امرأة أبى طلحة وهى أم أنس ـ رضى الله عنها ـ قال : وحصل من مجموع هذه الروايات : أن النبى ﷺ لما حلق الشق الأيمن ناوله أبا طلحة ليقسمه بين الناس ، ففعله أبو طلحة ، وناول شعر الشق الأيسر ليكون عند أبى طلحة ، فصحت نسبة كل ذلك إلى من نسب إليه والله أعلم .

وقد جمع المحب الطبرى فى موضع إمكان جمعه ، ورجح فى مكان تعذره فقال : والصحيح أن الذى وزعه على الناس الشق الأيمن ، وأعطى الأيسر أبا طلحة وأم سليم ، ولا تضاد بين الروايتين لأن أم سليم امرأة أبى طلحة ، فأعطاه ﷺ لهما فنسب العطية تارة إليه وتارة إليها . انتهى .

وفيه التبرك بشعره ﷺ وغير ذلك من آثاره بأبى وأمى ونفسى هو ، وقد روى أحمد فى مسنده إلى ابن سيرين أنه قال : فحدثنيه عبيدة السلمانى ، يريد هذا الحديث فقال : لأن يكون عندى شعرة منه أحب إلىَّ من كل بيضاء وصفراء على وجه الأرض وفى بطنها ، وقد ذكر غير واحد أن خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ كان فى قلنسوته شعرات من شعره ﷺ ، فلذلك كان لا يقدم على وجه إلا فتح له ، ويؤيد ذلك ما ذكره الملا فى السيرة أن خالدا سأل أبا طلحة حين فرق شعره ﷺ بين الناس أن يعطيه شعر ناصيته ، فأعطاه إياه فكان مقدم ناصيته مناسبا لفتح كل ما أقدم عليه . انتهى عمدة القارى شرح البخارى (جـ ٨ ص ٢٣٠ - ٢٣١) .

التبرك بعرقه :

٦ ـ عن عثمان عن أنس أن أم سليم كانت تبسط للنبى ﷺ نطعا فيقيل عندها على ذلك النطع ، قال : فإذا نام النبى صلى الله عليه وسلم أخذت من عرقه

وشعره فجمعته فى قارورة ثم جمعته فى سُكّ وهو نائم ، قال : فلما حضر أنس ابن مالك الوفاة أوصى إلى أن يجعل فى حنوطه من السك قال : فجعل فى حنوطه . رواه البخارى فى كتاب الاستئذان باب من زار قوما فقال عندهم .

٧ ـ وفى رواية عند مسلم دخل علينا النبى ﷺ فقال عندنا فعرق ، فجاءت أمى بقارورة فجعلت تسلت العرق فيها فاستيقظ فقال : يا أم سليم ما هذا الذى تصنعين ؟ قالت : هذا عرقك نجعله فى طيبنا وهو من أطيب الطيب .

٨ ـ وفى رواية إسحاق بن أبى طلحة [عرق فاستنقع عرقه على قطعة أديم عتيدة فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره فى قواريرها فأفاق ، فقال : ما تصنعين ؟ قالت : نرجو بركته لصبياننا ، فقال : أصبت .

وفى رواية أبى قلابة [فكانت تجمع عرقه فتجعله فى الطيب والقوارير فقال : ما هذا ؟ قالت : عرقك أذوف به طيبى] .

ويستفاد من هذه الروايات إطلاع النبى ﷺ على فعل أم سليم وتصويبه ولا معارضة بين قولها إنها كانت تجمعه لأجل طيبه وبين قولها للبركة ، بل يحمل على أنها كانت تفعل ذلك للأمرين معا . انتهى . (فتح البارى الجزء الحادى عشر ص ٧٢).

التبرك بمس جلده صلى الله عليه وسلم :

عن عبدالرحمن بن أبى ليلى عن أبيه قال : كان أسيد بن حضير رضى الله عنه رجلا صالحا ضاحكا مليحا ، فبينما هو عند رسول الله ﷺ يحدث القوم ويضحكهم ، فطعن رسول الله ﷺ فى خاصرته ، فقال : أوجعتنى قال ﷺ : اقتص قال : يارسول الله ! إن عليك قميصا ولم يكن علىَّ قميص ، قال : فرفع رسول الله ﷺ قميصه فاحتضنه ثم جعل يقبل كشحه ، فقال : بأبى أنت وأمى يارسول الله ! أردت هذا .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى فقال : صحيح.

وأخرجه ابن عساكر عن أبي ليلى رضي الله عنه مثله كما في الكنز (ج ٧ ص ٧٠١) قلت : والحديث عند أبي داود والطبراني عن أسيد بن حضير نحوه كما في الكنز (ج ٤ ص ٤٣) .

وأخرج ابن إسحاق عن حبان بن واسع عن أشياخ من قومه أن رسول الله ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر ، وفي يده قدح يعدل به القوم ، فمر بسواد ابن غزيةَ رضي الله عنه - حليف بني عدي بن النجار ، وهو مستنصل من الصف أي خارج - فطعنه في بطنه بالقدح وقال : إستو يا سواد ، فقال : يارسول الله ! أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأُقدني ، فكشف رسول الله ﷺ عن بدنه ، فقال : استقد ، فاعتنقه ، فقبل بطنه فقال : ما حملك على هذا يا سواد ؟ قال : يارسول الله ! حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك ، فدعا له رسول الله ﷺ بخير . وقاله كذا في البداية (ج ٣ ص ٢٧١) .

وأخرج عبدالرزاق عن الحسن أن النبي ﷺ لقي رجلا مختضباً بصفرة وفي يد النبي ﷺ جريدة ، فقال النبي ﷺ : خط ورس ، فطعن بالجريدة بطن الرجل وقال : ألم أنهك عن هذا ؟ فأثر في بطنه دما أدماه ، فقال : القود يارسول الله ! فقال الناس : أمن رسول الله ﷺ تقتص ؟ فقال : ما لبشرة أحد فضل على بشرتي ، فكشف النبي ﷺ عن بطنه ثم قال : اقتص ، فقبل الرجل بطن النبي ﷺ وقال : أدعها لك أن تشفع لي يوم القيامة[1] . كذا في الكنز (ج١٥ ص ٩١) .

وأخرج ابن سعد (ج ٣ ص ٧٢) عن الحسن أن رسول الله ﷺ رأى سواد بن عمرو هكذا قال إسماعيل : متلحفا ، فقال : خط خط ورس ورس ، ثم طعن بعود أو سواك في بطنه فماد في بطنه فأثر في بطنه فذكر نحوه .

---

(١) وقوله : أدعها لك أي أترك المقاصة .

وأخرج عبد الرزاق أيضا كما فى الكنز (ج ١٥ ص ١٩) عن الحسن قال : كان رجل من الأنصار يقال له : سوادة بن عمر رضى الله عنه يتخلق كأنه عرجون ، وكان النبى ﷺ إذا رآه نغض له فجاء يوما وهو متخلق فأهوى له النبى ﷺ بعود كان فى يده فجرحه ، فقال له : القصاص يارسول الله ! فأعطاه العود وكان على النبى ﷺ قميصان فجعل يرفعهما فنهره الناس وكف عنه حتى إذا انتهى إلى المكان الذى جرحه رمى بالقضيب وأخذ يقبله وقال : يانبى الله ! بل أدعها لك تشفع لى بها يوم القيامة .

وأخرج البغوى نحوه كما فى الإصابة (ج ٢ ص ٩٦) .

* * *

«خبر زاهر» :

وكان ﷺ يقول : زاهر باديتنا ونحن حاضرته وكان ﷺ يحبه فمشى ﷺ يوما إلى السوق فوجده قائما فجاء من قبل ظهره وضمه بيده إلى صدره فأحس زاهر بأنه رسول الله .. قال : فجعلت أمسح ظهرى فى صدره رجاء بركته .

وفى رواية الترمذى فى الشمائل : فاحتضنه من خلفه ولا يبصره فقال : أرسلنى ، من هذا ؟ فالتفت فعرف النبى ﷺ ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبى ﷺ حين عرفه فجعل رسول الله ﷺ يقول : من يشترى العبد ، فقال له زاهر : يا رسول الله ! إذا تجدنى كاسدا ، فقال ﷺ : أنت عند الله غال .

وفى رواية للترمذى أيضا : لكن عند الله لست بكاسد أو قال : أنت عند الله غال . اهـ (المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٩٧) .

* * *

التبرك بدم النبى ﷺ

خبر عبد الله بن الزبير :

عن عامر بن عبدالله بن الزبير ـ رضىَ الله عنهما ـ أن أباه حدثه أنه أتى النبى ﷺ وهو يحتجم ، فلما فرغ قال :

«يا عبدالله ! اذهب بهذا الدم فاهرقه حيث لا يراك أحد ، فلما برز عن رسول الله ﷺ عدل إلى الدم فشربه ، فلما رجع قال : يا عبدالله ! ما صنعت بالدم ؟ قال : جعلته فى أخفى مكان علمت أنه يخفى عن الناس ، قال : لعلك شربته ؟ قال : نعم ، فقال ﷺ : ولم شربت الدم ؟ ويل للناس منك وويل لك من الناس» ..

قال أبو موسى : قال أبو عاصم : فكانوا يرون أن القوة التى به من ذلك الدم ، كذا فى الإصابة (جـ ٢ ص ٣١٠) . وأخرجه الحاكم (ج ٣ ص ٥٥٤) والطبرانى نحوه ، قال الهيثمى (ج ٨ ص ٢٧٠) : رواه الطبرانى والبزار باختصار ، ورجال البزار رجال الصحيح غير هنيد بن القاسم وهو ثقة انتهى .

وأخرجه أيضا ابن عساكر نحوه كما فى الكنز (ج ٧ ص ٥٧) مع ذكر قول أبى عاصم، وفى رواية : قال أبو مسلمة : فيرون أن القوة التى كانت فى ابن الزبير ـ رضى الله عنهما ـ من قوة دم رسول الله ﷺ .

وعند أبى نعيم فى الحلية (جـ ١ ص ٣٣) عن كيسان مولى عبد الله ابن الزبير ـ رضى الله عنهما ـ قال :

«دخل سلمان ـ رضى الله عنه ـ على رسول الله ﷺ وإذا عبدالله ابن الزبير معه طست يشرب ما فيها ، فدخل عبد الله على رسول الله ﷺ فقال له : فرغت ؟ قال : نعم ، قال سلمان : ما ذاك يارسول الله ؟ قال : أعطيته غسالة محاجمى يهريق ما فيها ، قال سلمان : ذاك شربه والذى بعثك بالحق ، قال : شربته ؟ قال : نعم ، قال : لم ؟ قال : أحببت أن يكون دم رسول الله ﷺ فى جوفى ، فقام وربت بيده على رأس ابن الزبير ، وقال : ويل لك من الناس وويل للناس منك ، لا تمسك النار إلا قسم اليمين» ..

وأخرجه ابن عساكر عن سلمان نحوه مختصرا ، ورجاله ثقات ، كذا فى الكنز (ج ٧ ص ٥٦) ، وروى نحوه الدارقطنى فى سننه .

وفى رواية أن ابن الزبير لما شرب دم رسول الله ﷺ قال له ﷺ : فما حملك على ذلك ؟ قال : علمت أن دمك لا تصيبه نار جهنم فشربته لذلك ، فقال : ويل لك من الناس . وعند الدارقطنى من حديث أسماء بنت أبى بكر نحوه وفيه:ولا تمسك النار . وفى كتاب الجوهر المكنون فى ذكر القبائل والبطون أنه لما شرب أى عبد الله بن الزبير دمه تضوع فمه مسكا وبقيت رائحته موجودة فى فمه إلى أن صلب رضى الله عنه . (كذا فى المواهب للحافظ القسطلانى) .

خبر سفينة مولى النبى ﷺ :

وأخرج الطبرانى عن سفينة ـ رضى الله عنه ـ قال :

«احتجم النبى ﷺ ثم قال : خذ هذا الدم فادفنه من الدواب والطير والناس ، فتغيبت فشربته ، ثم ذكرت ذلك له فضحك» .

قال الهيثمى (ج ٨ ص ٢٨٠) : رجال الطبرانى ثقات .

خبر مالك بن سنان :

وفى سنن سعيد بن منصور من طريق عمرو بن السائب أنه بلغه أن مالك ابن سنان والد أبى سعيد الخدرى لما جرح النبى ﷺ فى وجهه الشريف يوم أحد مص جرحه حتى أنقاه ولاح ـ أى ظهر ـ محل الجرح بعد المص أبيض ، فقال له ﷺ : مجه ، فقال : ولا أمجه أبدا ، ثم ازدرده ـ أى ابتلعه ـ فقال النبى ﷺ :

«من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا فاستشهد بأحد» ..

رواه الطبرانى أيضا ، وفيه :

«قال ﷺ : من خالط دمى دمه لا تمسه النار» ..

قال الهيثمى : لم أر فى إسناده من أجمع على ضعفه اهـ .

وروى سعيد بن منصور أيضا أنه ﷺ قال :

«من سره أن ينظر إلى رجل خالط دمى دمه فلينظر إلى مالك بن سنان» .

«حجام آخر يشرب دمه ﷺ» :

روى ابن حبان فى الضعفاء عن ابن عباس قال : حجم النبى ﷺ غلام لبعض قريش فلما فرغ من حجامته أخذ الدم فذهب به من وراء الحائط فنظر يمينا وشمالا فلم ير أحدا فحسا دمه حتى فرغ ثم أقبل فنظر فى وجهه فقال : ويحك ما صنعت بالدم ؟ قلت : غيبته من وراء الحائط ، قال : أين غيبته ؟ قلت : يارسول الله ! نفست على دمك أن أهريقه فى الأرض فهو فى بطنى ، فقال : اذهب فقد أحرزت نفسك من النار . (ذكره الحافظ القسطلانى فى المواهب اللدنية).

«خبر بركة خادم أم حبيبة» :

قال الحافظ ابن حجر روى عبد الرزاق عن ابن جريج قال : (أخبرت أن النبى ﷺ كان يبول فى قدح من عيدان ثم يوضع تحت سريره فجاء فإذا القدح ليس فيه شىء ، فقال لامرأة يقال لها : بركة كانت تخدم أم حبيبة جاءت معها من أرض الحبشة : أين البول الذى كان فى القدح ؟ قالت : شربته ، قال : صحة يا أم يوسف ، وكانت تكنى أم يوسف ، فما مرضت قط حتى مرضها الذى ماتت فيه . (كذا فى التلخيص الحبير فى تخريج أحاديث الرافعى الكبير ج ١ ص ٣٢).

قلت : وقد رواه أبو داود والنسائى مختصرا ، قال الحافظ السيوطى : وقد أتمه ابن عبد البر فى الاستيعاب وفيه أنه سألها عن البول الذى كان فى القدح ، فقالت : شربته يارسول الله ، وذكر الحديث . (كذا فى شرح السيوطى على سنن النسائى ج ١ ص ٣٢) .

«خبر أم أيمن» :

قال الإمام الحافظ القسطلانى فى المواهب : أخرج الحسن بن سفيان فى مسنده والحاكم والدارقطنى والطبرانى وأبو نعيم من حديث أبى مالك النخعى عن الأسود بن قيس عن نبيح العنزى عن أم أيمن قالت : قام رسول الله ﷺ من الليل إلى فخارة فى جانب البيت فبال ، فقمت من الليل وأنا عطشانة فشربت

ما فيها وأنا لا أشعر ، فلما أصبح النبى ﷺ قال : يا أم أيمن ! قومى فأهريقى ما فى تلك الفخارة ، فقلت : قد والله شربت مافيها ، قالت : فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ، ثم قال : أما والله لا يجعنّ بطنك أبدا .

قال الحافظ ابن حجر فى التلخيص : وصحح ابن دحية أنهما قضيتان وقعتا لامرأتين وهو واضح من اختلاف السياق وواضح أن بركة أم يوسف غير بركة أم أيمن مولاته .

(**فائدة**) : وقع فى رواية سلمى امرأة أبى رافع أنها شربت بعض ماء غسل رسول الله ﷺ فقال لها : «حرم الله بدنك على النار» . أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديثها ، وفى السند ضعف ـ كذا فى التلخيص (ج ١ ص ٣٢).

قال القسطلانى : وهذا الذى ذهب إليه شيخ الإسلام البلقينى ، وفى هذه الأحاديث دلالة على طهارة بوله ودمه ﷺ .

خبر سرة خادم أم سلمة رضى الله عنها :

وأخرج الطبرانى عن حكيمة بنت أميمة عن أمها قالت :

«كان للنبى ﷺ قدح من عيدان يبول فيه ويضعه تحت سريره ، فقام فطلبه فلم يجده ، فسأل فقال : أين القدح ؟ قالوا : شربته سرة خادم لأم سلمة التى قدمت معها من أرض الحبشة ، فقال النبى ﷺ : لقد احتظرت من النار بحظار» ..

قال الهيثمى (ج ٨ ص ٢٧١) : رجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن أحمد ابن حنبل ، وحكيمة وكلاهما ثقات .

* * *

أقوال العلماء فى هذا الموضوع

قال الإمام محى الدين النووى فى شرح المهذب : واستدل من قال بطهارتهما بالحديثين المعروفين أن أبا طيبة الحجام حجمه ﷺ وشرب دمه ولم ينكر عليه ، وأن امرأة شربت بوله ﷺ فلم ينكر عليها . وحديث أبى طيبة ضعيف ، وحديث شرب البول صحيح رواه الدارقطنى ، وقال : هو حديث حسن صحيح ، وذلك كاف فى الاحتجاج لكل الفضلات قياسا ، ثم قال : إن القاضى حسينا قال : الأصح القطع بطهارة الجميع . ثم قال فى الجواب : عن أنه كان يتنزه منها بأن ذلك على الاستحباب اهـ . (من شرح المهذب ج ١ ص ٢٣٣) .

وقال الإمام العلامة بدر الدين العينى شارح البخارى فى كتابه المعروف عمدة القارى ج ٢ ص ٣٥ : فأما شعر رسول الله ﷺ فهو مكرم معظم خارج عن هذا ، قلت : قول الماوردى : وأما شعر النبى ﷺ فالمذهب الصحيح القطع بطهارته يدل على أن لهم قولا بغير ذلك ، فنعوذ بالله من ذلك القول ، وقد اخترق بعض الشافعية وكاد أن يخرج عن دائرة الإسلام حيث قال : وفى شعر النبى ﷺ وجهان : وحاشا شعر النبى ﷺ من ذلك وكيف قال هذا ، وقد قيل بطهارة فضلاته فضلا عن شعره الكريم ، ثم قال العينى : وقد وردت أحاديث كثيرة أن جماعة شربوا دم النبى عليه الصلاة والسلام منهم أبو طيبة الحجام وغلام من قريش حجم النبى ﷺ وعبد الله بن الزبير شرب دم النبى ﷺ رواه البزار والطبرانى والحاكم والبيهقى وأبو نعيم فى الحلية ، ويروى عن علي رضى الله تعالى عنه أنه شرب دم النبى ﷺ ، وروى أيضا أن أم أيمن شربت بول النبى ﷺ رواه الحاكم والدارقطنى والطبرانى وأبو نعيم ، وأخرج الطبرانى فى الأوسط فى رواية سلمى امرأة أبى رافع أنها شربت بعض ما غسل به رسول الله ﷺ ، فقال لها : حرم الله بدنك على النار .

قال الحافظ القسطلانى فى المواهب تعليقا على قول النووى عن القاضى حسين : أن الأصح القطع بطهارة جميع الفضلات ، وبهذا قال أبو حنيفة كما قاله

العينى ، وقال شيخ الإسلام ابن حجر : قد تكاثرت الأدلة على طهارة فضلاته ﷺ ، وعد الأئمة ذلك فى خصائصه . انتهى .

التبرك بالمكان الذى صلى فيه النبى ﷺ :

عن نافع أن عبد الله بن عمر حدثه أن النبى ﷺ صلى حيث المسجد الصغير الذى دون المسجد الذى بشرف الروحاء ، وقد كان عبد الله يعلم المكان الذى صلى فيه النبى ﷺ يقول : ثم عن يمينك حين تقوم فى المسجد تصلى ، وذلك المسجد على حافة الطريق اليمنى وأنت ذاهب إلى مكة بينه وبين المسجد الأكبر رمية بحجر أو نحو ذلك . رواه البخارى .

التبرك بموضع لامسه فم النبى ﷺ :

روى الإمام أحمد وغيره عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ دخل على أم أسليم وفى البيت قربة معلقة فشرب من فيها ـ أى من فم القربة ـ وهو نائم قال أنس : فقطعت أم سليم فم القربة فهو عندنا .

والمعنى : أن أم سليم قطعت فم القربة الذى هو موضع شربه ﷺ واحتفظت به فى بيتها للتبرك بأثر النبى ﷺ .
ورواه الطبرانى وفيه البراء بن زيد ولم يضعفه أحمد وبقية رجاله رجال الصحيح .



التبرك بتقبيل يد من مس رسول الله ﷺ

عن يحي بن الحارث الذماري قال : لقيت واثلة بن الأسقع رضى الله عنه فقلت : بايعت بيدك هذه رسول الله ﷺ ؟ فقال : نعم قلت : اعطنى يدك أقبلها ، فأعطانيها فقبلتها . قال الهيثمى (ج ٨ ص ٤٢) : وفيه عبد الملك القارى ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات . انتهى .

وعند أبى نعيم فى الحلية (ج ٩ ص ٣٠٦) عن يونس بن ميسرة قال : دخلنا على يزيد بن الأسود عائدين فدخل عليه واثلة بن الأسقع رضى الله عنه ، فلما نظر إليه مد يده فأخذ يده فمسح بها وجهه وصدره لأنه بايع رسول الله ﷺ ، فقال له : يايزيد ! كيف ظنك بربك ؟ فقال : حسن ، فقال : فأبشر فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله تعالى يقول : «أنا عند ظن عبدى بى» ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وأخرج البخارى فى الأدب المفرد ص ١٤٤ عن عبد الرحمن بن رزين قال: مررنا بالرّبذة فقيل لنا : ههنا سلمة بن الأكوع رضى الله عنه ، فأتينا فسلمنا عليه فأخرج يديه فقال : بايعت بهاتين نبى الله ﷺ ، فأخرج له كفا له ضخمة كأنها كف بعير ، فقمنا إليها فقبلناها .
وأخرج ابن سعد (ج ٤ ص ٣٩) عن عبدالرحمن بن زيد العراق نحوه .

وأخرج البخارى أيضا فى الأدب ص ١٤٤ عن ابن جدعان قال ثابت لأنس رضى الله عنه : أمسست النبى ﷺ بيدك ؟ قال : نعم ، فقبلها .
وأخرج البخارى أيضا فى الأدب ص ١٤٤ عن صهيب قال : رأيت عليا رضى الله عنه يقبل يد العباس رضى الله عنه ورجليه .

عن ثابت قال : كنت إذا أتيت أنسا يخبر بمكانى فأدخل عليه وآخذ بيديه وأقبلهما وأقول : بأبى هاتين اليدين اللتين مستا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل عينيه وأقول : بأبى هاتين (العينين) اللتين رأتا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ذكره الحافظ ابن حجر فى المطالب العالية (ج٢ ص١١١)، وقال الهيثمى : رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن أبى بكر المقدمى وهو ثقة ، وسكت عنه البوصيرى . اهـ . (كذا فى مجمع الزوائد ٩ /٣٢٥) .

* * *

التبرك بجبته صلى الله عليه وسلم

عن أسماء بنت أبى بكر : أنها أخرجت جبة طيالسة كسروانية لها لبنة[1] ديباج وفرجيها مكفوفين بالديباج ، وقالت : هذه جبة رسول الله ﷺ كانت عند عائشة فلما قبضت قبضتها ، وكان النبى ﷺ يلبسها ، فنحن نغسلها للمرضى نستشفى بها . رواه مسلم . (كتاب اللباس والزينة ج ٣ ص ١٤٠) .

* * *

التبرك بما مسته يده ﷺ

عن صفية بنت مجزأة أن أبا محذورة كانت له قصة فى مقدم رأسه إذا قعد أرسلها فتبلغ الأرض فقالوا له : ألا تحلقها ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ مسح عليها بيده فلم أكن لأحلقها حتى أموت .

رواه الطبرانى وفيه أيوب بن ثابت المكى ، قال أبو حاتم : لا يحمل حديثه ، كذا فى مجمع الزوائد (ج ٥ ص ١٦٥) .

وعن محمد بن عبد الملك بن أبى محذورة عن أبيه عن جده قال : قلت : يارسول الله ! علمنى سنة الأذان ، قال فمسح مقدم رأسى قال :

«تقول : الله اكبر الله اكبر الله اكبر الله اكبر ترفع بها صوتك» الحديث ..

(١) بكسر اللام وسكون الباء : رقعة في جيب القميص .

وفى رواية : فكان أبو محذورة لا يجز ناصيته ولا يفرقها لأن النبى ﷺ مسح عليها . أخرجه البيهقى والدارقطنى وأحمد وابن حبان والنسائى بمعناه .

* * *

التبرك بقدح النبى ﷺ ومسجد صلى فيه

عن أبى بردة قال : قدمت المدينة فلقينى عبد الله بن سلام ، فقال لى : انطلق إلى المنزل فأسقيك فى قدح شرب فيه رسول الله ﷺ وتصلى فى مسجد صلى فيه النبى ﷺ ، فانطلقت معه فسقانى وأطعمنى تمرا وصليت فى مسجده . رواه البخارى فى كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة .

* * *

التبرك بموضع قدم النبى ﷺ

جاء فى الحديث عن أبى مجلز أن أبا موسى كان بين مكة والمدينة فصلى العشاء ركعتين ثم قام فصلى ركعة أوتر بها فقرأ فيها بمائة آية من النساء ثم قال : ما ألوت أن أضع قدمى حيث وضع رسول الله ﷺ قدميه وأنا أقرأ بما قرأ به رسول الله ﷺ . (رواه النسائى ٣ /٢٤٣) .

* * *

التبرك بدار مباركة

عن محمد بن سوقة عن أبيه قال : لما بنى عمرو بن حريث داره أتيته لأستأجر منه فقال : ما تصنع به ؟ فقلت : أريد أن أجلس فيه وأشترى وأبيع ، قال : قلت : لأحدثك فى هذه الدار بحديث إن هذه الدار مباركة على من سكن فيها مباركة على من باع فيها واشترى ، وذلك أنى أتيت النبى صلى الله عليه وسلم

وعنده مال موضوع فتناول بكفه منه دراهم فدفعها إلىَّ وقال : هاك يا عمرو هذه الدراهم حتى تنظر فى أى شىء تضعها فإنها دراهم أعطانيها رسول الله ﷺ فأخذتها ثم مكثنا ما شاء الله حتى قدمنا الكوفة فأردت شراء دار ، فقالت لى أمى : يا بنى ! إذا اشتريت دارا وهيأت مالها فأخبرنى ، ففعلت ، ثم جئتها فدعوتها فجاءت والمال موضوع فأخرجت شيئا معها فطرحته فى الدراهم ثم خلطتها بيدها ، فقلت يا أمه أى شىء هذه ؟ قالت : يا بنى ! هذه الدراهم التى جئتنى بها فزعمت أن رسول الله ﷺ أعطاكها بيده فأنا أعلم أن هذه الدار مباركة لمن جلس فيها ، مباركة لمن باع فيها واشترى .

رواه الطبرانى فى الكبير وأبو يعلى (ج ٤ ص ١١١ مجمع الزوائد) .

* * *

التبرك بمنبر رسول الله ﷺ (١٩)

قال القاضى عياض : رؤى ابن عمر رضى الله عنهما واضعا يده على مقعد النبى ﷺ من المنبر ثم وضعها على وجهه .

وعن أبى قسيط والعتبى كان أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم إذا خلا المسجد حسوا رمانة المنبر التى تلى القبر بميامينهم ثم يستقبلون القبلة يدعون . اهـ (من الشفا للقاضى عياض) .

قال الملا على قارى شارح الشفا : رواه ابن سعد عن عبدالرحمن بن عبدالقارى (ج ٣ ص ٥١٨) .

وروى ذلك الشيخ ابن تيمية أيضا عن الإمام أحمد أنه رخص فى التمسح بالمنبر والرمانة ، وذكر أن ابن عمر وسعيد بن المسيب ويحي بن سعيد من فقهاء المدينة كانوا يفعلون ذلك . اهـ . (اقتضاء الصراط المستقيم ص ٣٦٧) .

* * *

---

(١٩) أنظر الملحق آخر الكتاب رقم ١٩ .

التبرك بقبره الشريف

لما حضرت الوفاة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لابنه عبدالله : انطلق إلى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، فقل : يقرأ عليك عمر السلام ، ولا تقل : أمير المؤمنين ، فإنى لست اليوم بأمير المؤمنين ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه ، قال : فاستأذن وسلم ، ثم دخل عليها وهى تبكى ، فقال : يقرأ عليك عمر السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه ، فقالت : كنت أريده لنفسى ولأوثرنه اليوم على نفسى فلما أقبل قيل : هذا عبدالله بن عمر قد جاء ، فقال : ارفعونى فأسنده رجل إليه ، فقال : مالديك ؟ قال : الذى تحب ياأمير المؤمنين أذنت ، فقال : الحمد لله ماكان شىء أهم إلىّ من ذلك ، فإذا أنا قبضت فاحملونى ، ثم سلم وقل : يستأذن عمر فإن أذنت لى فادخلونى ، وإن ردتنى فردونى إلى مقابر المسلمين .

أخرجه بطوله البخارى فى كتاب الجنائز باب ما جاء فى قبر النبى ﷺ ، وفى كتاب فضائل الصحابة باب قصة البيعة .

* * *

التبرك بآثار الصالحين والأنبياء السابقين

عن نافع أن عبدالله بن عمر أخبرنا أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر أرض ثمود فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا ويعلفوا للإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التى كانت تردها الناقة .

رواه مسلم فى كتاب الزهد باب النهى عن الدخول على أهل الحجر .

قال النووى فى الشرح ج ٨ ص ١١٨ : وفى هذا الحديث من الفوائد التبرك بآثار الصالحين .

* * *

التبـرك بالـتابـوت

ذكر الله تعالى فى القرآن فضيلة التابوت فقال :

﴿وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة﴾ .

وخلاصة القصة : أن هذا التابوت كان عند بنى إسرائيل وكانوا يستنصرون به ويتوسلون إلى الله تعالى بما فيه من آثار وهذا هو التبرك بعينه الذى نريده ونقصده ، وقد بين الله جل جلاله محتويات التابوت فقال :

﴿وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾ ، وهذه البقية مما تركه آل موسى وهارون هى عصا موسى وشىء من ثيابه وثياب هارون ونعلاه وألواح من التوراة وطست كما ذكره المفسرون والمؤرخون كابن كثير والقرطبى والسيوطى والطبرى ، فارجع إليهم ، وهو يدل على معان كثيرة منها التوسل بآثار الصالحين ، ومنها المحافظة عليها ومنها التبرك بها .

التبرك بمسجد العشار

عن صالح بن درهم يقول : انطلقنا حاجين ، فإذا رجل فقال لنا : إلى جنبكم قرية يقال لها : الابلة ، قلنا : نعم ، قال : من يضمن لى منكم أن يصلى لى فى مسجد العشار ركعتين أو أربعا ، ويقول هذه لأبى هريرة : سمعت خليلى أبا القاسم ﷺ يقول :

«إن الله عز وجل يبعث من مسجد العشار يوم القيامة شهداء ، لا يقوم مع شهداء بدر غيرهم» .. (رواه أبو داود) .

وقال : هذا المسجد مما يلى النهر اهـ (مشكاة المصابيح ج ٣ ص ١٤٩٦).

قال العلامة المحدث الكبير الشيخ خليل أحمد السهارنفورى فى كتابه «بذل المجهود شرح سنن أبى داود» : وفى الحديث دلالة على أن الطاعات البدنية توصل إلى الغير أجرها، وأن مآثر الأولياء والمقربين تزار ويتبرك بها. (بذل المجهود ج ١٧ ص ٢٢٥).

وقال العلامة المحدث الشيخ أبوالطيب صاحب عون المعبود : مسجد العشار مسجد مشهور يتبرك بالصلاة فيه (عون المعبود ج ١١ ص ٤٢٢) .

* * *

نحن فى بركة الرسول ﷺ

نسمع كثيرا من الناس يقولون : نحن فى بركة الرسول ﷺ ، أو معنا بركته ﷺ وسئل عن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فقال : وأما قول القائل : نحن فى بركة فلان أو من وقت حلوله عندنا حلت البركة ، فهذا الكلام صحيح باعتبار ، باطل باعتبار ، فأما الصحيح : فأن يراد به أنه هدانا وعلمنا وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر ، فببركة إتباعه وطاعته حصل لنا من الخير ما حصل ، فهذا كلام صحيح ، كما كان أهل المدينة لما قدم عليهم النبى ﷺ فى بركته لما آمنوا به وأطاعوه ، فببركة ذلك حصل لهم سعادة الدنيا والآخرة ، بل كل مؤمن آمن بالرسول وأطاعه حصل له من بركة الرسول بسبب إيمانه وطاعته من خير الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله .

وأيضا : إذا أريد بذلك إنه ببركة دعائه وصلاحه دفع الله الشر وحصل لنا رزق ونصر فهذا حق ، كما قال النبى ﷺ :

«وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم».

وقد يدفع العذاب عن الكفار والفجار لئلا يصيب من بينهم من المؤمنين ممن لا يستحق العذاب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ولو لا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات - إلى قوله : لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما﴾ .

فلولا الضعفاء المؤمنون الذين كانوا بمكة بين ظهرانى الكفار لعذب الله الكفار.
وكذلك قال النبى ﷺ :

«لو لا ما فى البيوت من النساء والذرارى لأمرت بالصلاة فتقام ، ثم انطلق معى برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة معنا فأحرق عليهم بيوتهم» ..

وكذلك ترك رجم الحامل حتى تضع جنينها ، وقد قال المسيح عليه السلام : ﴿وجعلنى مباركا أين ما كنت﴾ ، فبركات أولياء الله الصالحين باعتبار نفعهم للخلق بدعائهم إلى طاعة الله ، وبدعائهم للخلق وبما ينزل الله من الرحمة ويدفع من العذاب بسببهم حق موجود ، فمن أراد بالبركة هذا ، وكان صادقا فقوله حق .

وأما «المعنى الباطل» فمثل أن يريد الإشراك بالخلق : مثل أن يكون رجل مقبور بمكان فيظن أن الله يتولاهم لأجله ، وإن لم يقوموا بطاعة الله ورسوله ، فهذا جهل ، فقد كان رسول الله ﷺ سيد ولد آدم مدفون بالمدينة عام الحرة ، وقد أصاب أهل المدينة من القتل والنهب والخوف ما لا يعلمه إلا الله ، وكان ذلك لأنهم بعد الخلفاء الراشدين احدثوا أعمالا أوجبت ذلك ، وكان على عهد الخلفاء يدفع الله عنهم بإيمانهم وتقواهم ، لأن الخلفاء الراشدين كانوا يدفعونهم إلى ذلك ، وكان ببركة طاعتهم للخلفاء الراشدين ، وببركة عمل الخلفاء معهم ينصرهم الله ويؤيدهم ، وكذلك الخليل ﷺ مدفون بالشام وقد استولى النصارى على تلك البلاد قريبا من مائة سنة ، وكان أهلها فى شر ، فمن ظن أن الميت يدفع عن الحى مع كون الحى عاملا بمعصية الله فهو غالط .

وكذلك إذا ظن أن بركة الشخص تعود على من أشرك به وخرج عن طاعة الله ورسوله ، مثل أن يظن أن بركة السجود لغيره ، وتقبيل الأرض عنده ، ونحو ذلك يحصل له السعادة ، وإن لم يعمل بطاعة الله ورسوله ، وكذلك إذا اعتقد أن ذلك الشخص يشفع له ، ويدخله الجنة بمجرد محبته ، وانتسابه إليه ، فهذه الأمور ونحوها مما فيه مخالفة الكتاب والسنة ، فهو من أحوال المشركين وأهل البدع باطل لا يجوز اعتقاده ولا اعتماده .

كذا فى الفتاوى (جـ ١١ ص ١١٣)

* * *

الإمام أحمد يتبرك والحافظ الذهبى يؤيده

قال عبدالله بن أحمد : رأيت أبى يأخذه شعرة من شعر النبى ﷺ فيضعها على فيه يقبّلها ، وأحسِب أنى رأيته يضعها على عينه ، ويغمسها فى الماء ويشربه يستشفى به .

ورأيته أخذ قصعة النبى ﷺ فغسلها فى حُبّ الماء ثم شرب فيها ، ورأيته يشرب من ماء زمزم يستشفى به ويمسح به يديه ووجهه .

قلت : أين المتنطّع المنكر على أحمد ، وقد ثبت أن عبدالله سأل أباه عمّن يلمَس رمّانة منبر النبى ﷺ ويمَسّ الحجرة النبوية ، فقال : لا أرى بذلك بأسا . أعاذنا الله وإياكم من رأي الخوارج ومن البدع . (سير أعلام النبلاء ج ١١ ص ٢١٢).

الخـــلاصـــة

والحاصل من هذه الآثار والأحاديث هو أن التبرك به ﷺ وبآثاره وبكل ما هو منسوب إليه سنة مرفوعة وطريقة محمودة مشروعة ، ويكفى فى إثبات ذلك فعل خيار الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين ، وتأييد النبى ﷺ لذلك بل وأمره مرة وإشارته أخرى إلى فعل ذلك ، وبالنصوص التى نقلناها يظهر كذب من زعم أن ذلك ماكان يعتنى به ويهتم بفعله أحد من الصحابة إلا ابن عمر وأن ابن عمر ما كان يوافقه على ذلك أحد من أصحاب الرسول ﷺ .

وهذا جهل أو كذب أو تلبيس ، فقد كان كثير غيره يفعل ذلك ويهتم به ومنهم الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم وأم سلمة وخالد بن الوليد وواثلة بن الأسقع وسلمة بن الأكوع وأنس بن مالك وأم سليم وأسيد بن خضير وسواد بن غزية وسواد بن عمرو وعبدالله بن سلام وأبو موسى وعبدالله بن الزبير وسفينة مولى النبى ﷺ وسرة خادم أم سلمة ومالك بن سنان وأسماء بنت أبى بكر وأبو محذورة ومالك بن أنس وأشياخه من أهل المدينة كسعيد بن المسيب ويحي بن سعيد.



الباب الثالث

مباحث مختلفة

وفيها بيان مشروعية الزيارة النبويّة وما يتعلق
بها منَ الآثار والمشاهد والمناسبَات

الحياة البرزخية حياة حقيقية

الحياة البرزخية حياة حقيقية ، وهذا ما دلت عليه الآيات البينات والأحاديث المشهورة الصحيحة .

وهذه الحياة الحقيقية لا تعارض وصفهم بالموت كما جاء ذلك فى كتاب الله العزيز إذ يقول : ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ ، ويقول : ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ ، إن معنى قولنا عن الحياة البرزخية بأنها حقيقة أى ليست خيالية أو مثالية كما يتصورها بعض الملاحدة ممن لا تتسع عقولهم للإيمان إلا بالمشاهد المحسوس دون الغيب الذى لا يطيق العقل البشرى تصوره ولا تسليم كيفيته لقدرة الله جَلّ جَلَاله . إن وقفة تأمل قصيرة عند قولنا عن الحياة البرزخية بأنها حقيقية لا تبقى من الإشكال أدنى ذرة حتى عند من يقصر فهمه وذوقه عن تعقل المعانى فكلمة [حقيقية] ليست إلا لنفى الباطل وطرد الوهم ونفى الخيال الذى قد يقع فى ذهن الإنسان المتشكك المرتاب فى أحوال عالم البرزخ وعالم الآخرة وغيرهما من العوالم الأخرى كالنشر والبعث والحشر والحساب .

وهذا المعنى يدركه الإنسان العربى البسيط الذى يعرف أن كلمة [حقيقية] تعنى حقيقة وهى ما يقابل الوهم والخيال والمثال ، فحقيقية أى ليست بوهمية وهذا هو المقصود بعينه ، وهذا هو مفهومنا وتصورنا لهذه القضية ، ولقد تضافرت الأحاديث والآثار التى تثبت بأن الميت يسمع ويحس ويعرف سواء كان مؤمنا أم كافرا .

فمنها حديث القليب وهو ثابت فى الصحيحين من وجوه متعددة عن أبى طلحة وعمر وابنه عبد الله :

أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أمر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فألقوا فى طوى من اطواء بدر فناداهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسماهم «يا أبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة يا فلان ابن فلان ! أليس قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا» .. فقال عمر : يارسول الله ! ما تكلم

من أجساد لا أرواح فيها ، فقال عليه الصلاة والسلام : «والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يجيبون» ..

هكذا رواه الشيخان من حديث ابن عمر والبخارى من حديث أنس عن أبى طلحة ومسلم من حديث أنس عن عمر ، ورواه الطبرانى من حديث ابن مسعود بإسناد صحيح ومن حديث عبدالله بن سيدان نحوه وفيه :

قالوا : يارسول الله ! وهل يسمعون ؟ قال : «يسمعون كما تسمعون ولكن لا يجيبون» ..

ومنها ما رواه البزار وصححه ابن حبان من طريق إسماعيل بن عبدالرحمن السدى عن أبيه عن أبى هريرة :

عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم «إن الميت ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين» ..

وأخرج ابن حبان أيضا من طريق محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحوه فى حديث طويل .

وقال البخارى فى صحيحه : «باب الميت يسمع خفق النعال» ، ثم روى عن أنس **عن النبى ﷺ قال : «العبد إذا وضع فى قبره وتولى وذهب أصحابه حتى أنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فاقعداه» ..**

وذكر الحديث فى سؤال القبر ، ورواه مسلم أيضا وسماع الميت خفق النعال وارد فى عدة أحاديث ، منها الأحاديث الواردة فى سؤال القبور وهى كثيرة منتشرة ، وفيها التصريح بسؤال الملكين له وجوابه بما يطابق حاله من سعادة أو شقاء ، ومنها ما شرعه النبى صلى الله عليه وآله وسلم لأمته من السلام على أهل القبور ومخاطبتهم بلفظ : السلام عليكم دار قوم مؤمنين .

قال ابن القيم : وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ولو لا ذلك لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب المعدوم والجماد ، والسلف مجمعون على هذا ، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحى له ويستبشر به ، ثم ذكر جملة منها فى «كتاب الروح» .. فليراجع .

قلت : وقد روى عبد الرزاق فى هذا الباب حديثا عن زيد بن أسلم قال : مر أبو هريرة وصاحب له على قبر ، فقال أبو هريرة : سلِّم ، فقال الرجل :

أُسلّمُ على القبر ؟ فقال أبو هريرة : إن كان رآك فى الدنيا يوما قط إنه ليعرفك الآن.

رواه عبدالرزاق فى المصنف (ج ٣ ص ٥٧٧) .

وهذا الذى قلناه هو عقيدة السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين وهم أهل السنة والجماعة فلا أدرى كيف يغفل هؤلاء الذين يدعون أنهم على مذهب السلف عن هذه الحقيقة .

وقد أفاض الشيخ ابن القيم فى كتاب الروح بما يشفى ويكفى وننقل هنا فتوى عظيمة لشيخ الإسلام الإمام ابن تيمية فى هذا الموضوع كما جاء فى الفتاوى الكبرى.

سئل الشيخ عن الأحياء إذا زاروا الأموات هل يعلمون بزيارتهم ؟ وهل يعلمون بالميت إذا مات من قرابتهم أو غيره ؟

فأجاب : الحمد لله ، نعم جاءت الآثار بتلاقيهم وتساؤلهم وعرض أعمال الأحياء على الأموات ، كما روى ابن المبارك عن أبى أيوب الأنصارى قال : [إذا قبضت نفس المؤمن تلقاها الرحمة من عباد الله كما يتلقون البشير فى الدنيا فيقبلون عليه ويسألونه فيقول بعضهم لبعضهم : أنظروا أخاكم يستريح فإنه كان فى كرب شديد ، قال : فيقبلون عليه ويسألونه ما فعل فلان وما فعلت فلانة هل تزوجت] الحديث .

وأما علم الميت بالحى إذا زاره وسلم عليه ففى حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ :

«ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام» ..

قال ابن المبارك : ثبت ذلك عن النبى ﷺ وصححه عبدالحق صاحب الأحكام . اهـ . (مجموع فتاوى الشيخ ابن تيمية ج ٢٤ ص ٣٣١) .

وجاء فى موضع آخر أيضا سئل الشيخ ابن تيمية : هل الميت يسمع كلام زائره ويرى شخصه ؟ وهل تعاد روحه إلى جسده فى ذلك الوقت أم تكون

ترفرف على قبره فى ذلك الوقت وغيره ؟ وهل تجمع روحه مع أرواح أهله وأقاربه الذين ماتوا قبله ؟

فأجاب : الحمد لله رب العالمين ، نعم ! يسمع الميت فى الجملة كما ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال :

«يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه» ..

ثم ساق أحاديث متعددة فى هذا المعنى ، ثم قال : فهذه النصوص وأمثالها تبين أن الميت يسمع فى الجملة كلام الحى ولا يجب أن يكون السمع له دائما بل قد يسمع فى حال دون حال ، كما قد يعرض للحي فإنه قد يسمع أحيانا خطاب من يخاطبه ، وقد لا يسمع لعارض يعرض له ، وهذا السمع سمع إدراك ليس يترتب عليه جزاء ولا هو السمع المنفى بقوله : ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ ، فإن المراد بذلك سمع القبول والامتثال ، فإن الله جعل الكافر كالميت الذى لا يستجيب لمن دعاه وكالبهائم التى تسمع الصوت ولا تفقه المعنى ، فالميت وإن سمع الكلام وفقه المعنى فإنه لا يمكنه إجابة الداعى ولا إمتثال ما أمر به ونهى عنه فلا ينتفع بالأمر والنهى ، وكذلك الكافر لا ينتفع بالأمر والنهى وإن سمع الخطاب وفهم المعنى ، كما قال تعالى : ﴿ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم﴾ ، وأما رؤية الميت فقد روى فى ذلك آثار عن عائشة وغيرها .

وأما قول القائل : هل تعاد روحه إلى بدنه ذلك الوقت أم تكون ترفرف على قبره فى ذلك الوقت وغيره ؟ . فإن روحه تعاد إلى البدن فى ذلك الوقت كما جاء فى الحديث وتعاد أيضا فى غير ذلك .

ومع ذلك فتتصل بالبدن متى شاء الله وذلك فى اللحظة بمنزلة نزول الملك وظهور الشعاع فى الأرض وانتباه النائم .

وهذا جاء فى عدة آثار أن الأرواح تكون فى أفنية القبور ، قال مجاهد : الأرواح تكون فى أفنية القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت لا تفارقه ، فهذا يكون أحيانا وقال مالك بن أنس : بلغنى أن الأرواح مرسلة تذهب حيث شاءت والله أعلم . اهـ . مجموع فتاوى الشيخ ابن تيمية (ج ٢٤ ص ٣٦٢) .

وقال الشيخ ابن تيمية فى موضع آخر : أما ما أخبر الله من حياة الشهيد ورزقه وما جاء فى الحديث الصحيح من دخول أرواحهم الجنة فذهبت طوائف إلى أن ذلك مختص بهم دون الصديقين وغيرهم ، والصحيح الذى عليه الأئمة وجماهير أهل السنة أن الحياة والرزق ودخول الأرواح الجنة ليس مختصا بالشهيد ، كما دلت على ذلك النصوص الثابتة ويختص الشهيد بالذكر لكون الظان يظن أنه يموت فينكل عن الجهاد فأخبر بذلك ليزول المانع من الإقدام على الجهاد والشهادة كما نهى عن قتل الأولاد خشية الإملاق لأنه هو الواقع وإن كان قتلهم لا يجوز مع عدم خشية الإملاق اهـ . (مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ٢٤ ص ٣٣٢).

لا تؤذ الميت لئلا يؤذيك :

رأى رسول الله ﷺ رجلا قد اتكأ على قبر فقال له :

«لا تؤذ صاحب القبر» ..

ذكره المجد ابن تيمية فى المنتقى (ج ٢ ص ١٠٤) وعزاه لأحمد فى المسند وكذا الحافظ ابن حجر فى الفتح (ج ٣ ص ١٧٨) وقال : إسناده صحيح .

وأخرجه الطحاوى فى معانى الآثار (ج ١ ص ٢٩٦) من حديث ابن عمرو ابن حزم بلفظ : رآنى رسول الله ﷺ على قبر ، فقال :

«انزل عن القبر لا تؤذ صاحب القبر ولا يؤذيك» .. اهـ .

(مجمع الزوائد ج ٣ ص ٦١) .

معنى الحياة البرزخية :

وينبغى أن نبين للناس معنى تلك الحياة وأنها حياة برزخية وأنها ليست كحياتنا هذه بل هى حياة خاصة لائقة بهم وبالعالم الذى هم فيه لكن لا بد أن نبين لهم أيضا أنها ليست كحياتنا لأن حياتنا أقل وأحقر وأضيق وأضعف . فالإنسان فيها بين عبادة وعادة وطاعة ومعصية وواجبات مختلفة لنفسه وأهله ولربه وأنه تارة يكون طاهرا وتارة يكون على ضد ذلك ، وتارة يكون فى المسجد وتارة يكون فى الحمام وأنه لا يدرى بم يختم له ؟؟ فقد يكون بينه وبين الجنة ذراع

ثم ينقلب الأمر رأسا على عقب فيصير من أهل النار وبالعكس ، أما في البرزخ فإنه إن كان من أهل الإيمان فإنه قد جاوز قنطرة الإمتحان التي لا يثبت عندها إلا أهل السعادة ، ثم إنه قد انقطع عنه التكليف وأصبح روحا مشرقة طاهرة مفكرة سياحة سباحة جوالة في ملكوت الله وملكه سبحانه وتعالى ، لا هم ولا حزن ولا بأس ولا قلق لأنه لا دنيا ولا عقار ولا ذهب ولا فضة فلا حسد ولا بغي ولا حقد .

وإن كان غير ذلك ففي عكس ذلك .

* * *

خصائص الأنبياء البرزخية

وللأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى البرزخ خصائص انفردوا بها دون غيرهم من البشر ولو شاركهم غيرهم فى بعضها فهو على وجه الإلحاق السببى وتبقى الخصوصية للأنبياء من جهتين :

الأولى : من جهة الأصالة .

الثانية : من جهة الكمال .

وهذه بعض تلك الخصائص :

كمال حياتهم :

ذكرنا فيما تقدم أن الحياة البرزخية حياة حقيقية وأن الميت يسمع ويحس ويعرف سواء أكان مؤمنا أم كافرا ، وأن الحياة والرزق ودخول الأرواح الجنة ليس مختصا بالشهيد كما دلت على ذلك النصوص الثابتة ، وهذا هو الصحيح الذى عليه الأئمة وجماهير أهل السنة ، ومن هنا فإن القول بحياة الأنبياء من فضول القول وهو أمر ظاهر كالشمس لا يحتاج إلى إثبات بل إن الصواب هو أن نقرر بأن حياتهم أكمل وأجل وأتم وأعظم ، وهكذا حياة الناس على ظهر الأرض فى الدنيا فإنها درجات ومقامات ومراتب متفاوتة فمنهم أموات فى صورة أحياء ، قال فيهم المولى جل شأنه :

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ .

ومنهم الذين قال فيهم : ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ .

ومنهم من قال فيهم : ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ إلى قوله : ﴿أولئك هم الوارثون﴾ ، ومنهم من قال فيهم : ﴿إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون﴾ (سورة الذاريات : ١٥) .

وهكذا الحياة البرزخية درجات ومراتب ومقامات متفاوتة ﴿ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا﴾ .

أما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن حياتهم ورزقهم ومعرفتهم وسماعهم وإدراكهم وشعورهم وإحساسهم أكمل وأتم وأرفع من غيرهم ، والدليل هو قوله تعالى فى حق الشهداء :

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ .

وإذا كانت الحياة معناها هو بقاء الروح فلا تفنى ولا تبلى فلا مزية للشهيد يستحق أن تذكر وتشهر إذ أرواح جميع بنى آدم باقية لا تفنى ولا تبلى وهو الصواب الذى عليه المحققون من أهل العلم كما حققه الشيخ ابن القيم فى كتاب الروح ، فلا بد من وجود مزية ظاهرة يزيد بها الشهداء على من سواهم وإلا كان ذكر حياتهم عبثا لا فائدة منه خصوصا وأن الله تعالى نهى أن نقول عنهم أموات فقال : ﴿ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ .

وحينئذ نقول إنه لا بد من أن تكون حياتهم أكمل من غيرهم وأشرف ، وهذا ما يؤيده ظاهر النصوص فأرواحهم مرزوقة ترد أنهار الجنة وتأكل ثمارها كما قال تعالى : ﴿عند ربهم يرزقون﴾ ، ثم إحساسهم بذلك الطعام والشراب والنعيم إحساس كامل بشعور تام وتلذذ تام وتمتع حقيقى كما جاء فى الحديث : فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا . (قال ابن كثير رواه أحمد) .

وأرواحهم لها تصرف أكبر من غيرها وأوسع فهى تتجول وتسرح فى الجنة حيث تشاء ثم تأوى إلى قناديل تحت العرش . (كذا فى الصحيح) .

وهم يسمعون الكلام ويفهمون الخطاب ، فقد جاء فى الصحيح : أن الله تعالى يقول لهم : ما تشتهون ؟ فيقولون : كذا وكذا ، ويعود السؤال ويعود الجواب، ثم يطلبون أن يعودوا إلى الدنيا للجهاد ، ثم يطلبون أن يبلغ الله عنهم رسالة منهم

إلى إخوانهم بالدنيا فيها بيان ما أكرمهم الله به ، فيقول الله : أنا أبلغ عنكم .

فإذا ثبت هذا فى حق الشهداء ثبت فى حق الأنبياء من وجهين :

الأول : أن هذه رتبة شريفة أعطيت للشهيد كرامة له ولا رتبة أعلى من رتبة الأنبياء ، ولا شك أن حال الأنبياء أعلى وأكمل من حال جميع الشهداء فيستحيل أن يحصل كمال للشهداء ولا يحصل للأنبياء لا سيما هذا الكمال الذى يوجب زيادة القربى والزلفى والنعيم والأنس بالعلى الأعلى .

الثانى : أن هذه الرتبة حصلت للشهداء أجرا على جهادهم وبذلهم أنفسهم لله تعالى ، والنبى ﷺ هو الذى سن لنا ذلك ودعانا إليه وهدانا له بإذن الله تعالى وتوفيقه ، وقد قال ﷺ :

«من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة» .

وقال صلى الله عليه وسلم :

«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من يتبعه لا ينقصه ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من يتبعه لا ينقصه ذلك من آثامهم شيئا» ..

والأحاديث الصحيحة فى ذلك كثيرة مشهورة فكل أجر حصل للشهيد حصل للنبى ﷺ لسعيه مثله والحياة أجر فيحصل للنبى ﷺ مثلها .

إن حياة الأنبياء البرزخية الحقيقية وخصوصا نبينا ﷺ هى أرفع وأكمل من أن يتصور جاهل أو أحمق أننا نعنى بها أن يعيشوا كما نعيش فيأكلون ويشربون محتاجين إلى الأكل والشرب ويبولون ويتغوطون مضطرين إلى ذلك ويخرجون من قبورهم لحضور مجالس الذكر ومجامع القرآن ولمشاركة الأمة فى أفراحها وأحزانها وأعيادها ومواسمها ثم يرجعون إلى قبورهم تحت الأرض فى تلك الحفرة الضيقة وفوقهم التراب ، ليس فى هذا أدنى كرامة أو منقبة بل هو عين الإهانة التى لا يرضاها الإنسان لتابع أو خادم له فضلا عن أن يمن الله تعالى بذلك على خير خلقه وأجل عبيده حاشا وكلا وألف حاشا وكلا .

إن الحياة البرزخية الحقيقية هى الشعور التام والإدراك الكامل والمعرفة الصادقة ، إنها حياة طيبة صالحة دعاء وتسبيح وتهليل وتحميد وصلاة .

صلاة الأنبياء فى قبورهم وعبادات أخرى

ومن ثمرات تلك الحياة البرزخية صلاتهم فى قبورهم صلاة حقيقية ليست خيالية ولا مثالية ، وقد جاءت أحاديث فى هذا الموضوع ، فمنها : عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

«الأنبياء أحياء فى قبورهم يصلون» ..

رواه أبو يعلى والبزار ورجال أبى يعلى ثقات ، كذا فى مجمع الزوائد (ج ٨ ص ٢١١) ، قال الإمام الحافظ البيهقى فى الجزء الخاص بهذه المسألة .

وفى رواية عن أنس رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ قال :

«إن الأنبياء لا يتركون فى قبورهم بعد أربعين ليلة ، ولكنهم يصلون بين يدى الله تعالى حتى ينفخ فى الصور» ..

قال البيهقى : إن صح بهذا اللفظ فالمراد به ـ والله أعلم ـ لايتركون لا يصلون إلا هذا المقدار ، ثم يكونون مصلين بين يدى الله تعالى ، قال البيهقى: ولحياة الأنبياء بعد موتهم شواهد من الأحاديث الصحيحة .

ثم ذكر البيهقى بأسانيده حديث :

«مررت بموسى وهو قائم يصلى فى قبره» ..

وحديث :

«قد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء ، فإذا موسى قائم يصلى وإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلى أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفى ، وإذا إبراهيم قائم يصلى أشبه الناس به صاحبكم ـ يعنى نفسه ـ فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت من الصلاة قال قائل لى : يا محمد ! هذا مالك صاحب النار فسلم عليه ، فالتفت إليه فبدأنى بالسلام» .

قلت : أخرجه مسلم عن أنس (ج ٢ ص ٢٦٨) ، وأخرجه عبد الرزاق فى المصنف (ج ٣ ص ٥٧٧) .

وقوله : ضرب ، أى خفيف اللحم الممشوق المستدق .

وقال البيهقى فى دلائل النبوة : وفى الحديث الصحيح عن سليمان التيمى وثابت البنانى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال :

«أتيت على موسى ليلة أسرى بى عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلى فى قبره» ..

قلت : وهو صحيح أخرجه مسلم (ج ٢ ص ٢٦٨) .

وقد ثبت بما لا يقبل الشك أن السبب فى تخفيف الصلاة علينا من خمسين إلى خمس صلوات هو موسى عليه السلام وهو ميت قد أدى رسالة ربه وانتقل إلى جواره فى الرفيق الأعلى ولكنه هو السبب فى إيصال أعظم خير إلى الأمة المحمدية حينما طلب من نبينا محمد ﷺ مراجعة ربه وقال له : سل ربك التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فهل هذه المراجعة حقيقية أو خيالية وهل فى اليقظة أو فى المنام وهل هى صحيحة أم مكذوبة وهل موسى مات أم لا يزال حيا حتى وقت تلك المراجعة ؟

أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس رضى الله عنهما :

«أن النبى ﷺ مر على ثنية فقال : ما هذه ؟ قالوا : ثنية كذا وكذا ، قال : كأنى أنظر إلى يونس على ناقة خطامها ليف وعليه جبة من صوف وهو يقول : لبيك اللهم لبيك» .. اهـ . الدر المنثور (ج ٤ ص ٣٣٤) .

وفى حديث آخر :

«أرانى ليلة عند الكعبة فرأيت رجلا آدم كأحسن ما أنت راء من الرجال من آدم الرجال ، له لمة كأحسن ما أنت راء من اللمم قد رجلها فهى تقطر ماء متكئا على رجلين أو على عواتق رجلين يطوف بالبيت فسألت من هذا ؟ فقيل : هذا المسيح ابن مريم» ..

وفى حديث آخر :

«إن رسول الله ﷺ مر بوادى الأزرق ، فقال : كأنى أنظر إلى موسى هابطا من الثنية ، وله جؤار إلى الله بالتلبية ثم أتى على ثنية هرشى فقال : كأنى أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء جعدة عليه جبة من صوف خطام ناقته خلبة وهو يلبى» ..

وفى حديث آخر :

«كأنى أنظر إلى موسى واضعا اصبعيه فى أذنيه» ..

وهذه الأحاديث كلها فى الصحيح وقد تقدم فى موسى وعيسى ، وكذلك صلاتهم قياما وإمامة النبى ﷺ بهم ، ولا يقال : إن ذلك رؤيا منام ، وإن قوله أرانى فيه إشارة إلى النوم لأن الإسراء وما اتفق فيه كان يقظة على الصحيح الذى عليه جمهور السلف والخلف ، ولو قيل بأنه نوم فرؤيا الأنبياء حق ، وقوله : أرانى لا دلالة فيه على المنام بدليل قوله : رأيتنى فى الحجر ، وكان ذلك فى اليقظة كما يدل عليه بقية الكلام .

بقاء أجسادهم :

جاء فى الحديث عن أوس بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ :

«أفضل أيامكم الجمعة فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة فاكثروا علىَّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علىَّ ، قالوا : وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ـ يقولون بليت ـ فقال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» ..

هذا الحديث أخرجه سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد فى مسنده وابن عاصم فى الصلاة له وأبو داود والنسائى وابن ماجه فى سننهم والطبرانى فى معجمه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم فى صحاحهم والبيهقى فى حياة الأنبياء وشعب الإيمان وغيرهما من تصانيفه .

واعلم بأن حديث:إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء . ورد من طرق كثيرة جمعها الحافظ المنذرى فى جزء مخصوص وقال فى الترغيب والترهيب رواه ابن ماجه بإسناد جيد ورواه أحمد وأبوداود وابن حبان فى صحيحه والحاكم وصححه ، وقال ابن القيم فى كتاب الروح نقلا عن أبى عبدالله القرطبى : صح عن النبى ﷺ أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأنه ﷺ اجتمع مع الأنبياء ليلة الإسراء فى بيت المقدس ، وفى السماء خصوصا موسى وقد أخبر :

«ما من مسلم يسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام» ..

إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أنهم غيبوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين أحياء ، وذلك كالحال فى الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم ، وقد نقل كلام القرطبى وأقره أيضا الشيخ محمد السفارينى الحنبلى فى شرح عقيدة أهل السنة ونصه : قال أبو عبد الله القرطبى : قال شيخنا أحمد بن عمر القرطبى صاحب المفهم فى شرح مسلم : والذى يزيح هذا الإشكال أن الموت ليس بعدم محض وإنما هو إنتقال من حال إلى حال ويدل على ذلك أن الشهداء بعد موتهم وقتلهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين .
وهذه صفة الأحياء فى الدنيا ، وإذا كان هذا فى الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى . وذكر القرطبى أن أجساد الشهداء لا تبلى ، وقد صح عن جابر أن أباه وعمرو بن الجموح رضى الله تعالى عنهم وهما ممن استشهد بأحد ودفنا فى قبر واحد حفر السيل قبرهما فوجدا لم يتغيرا ، وكان أحدهما قد جرح فوضع يده على جرحه فدفن وهو كذلك ، فأميطت يده عن جرحه ثم أرسلت فرجعت كما كانت وكان بين ذلك وبين أحد ست وأربعون سنة ، ولما أجرى معاوية العين التى استنبطها بالمدينة وذلك بعد أحد بنحو من خمسين سنة ، ونقل الموتى أصابت المسحاة قدم حمزة رضى الله عنه فسال منه الدم ووجد عبدالله بن حرام كأنما دفن بالأمس ، وروى كافة أهل المدينة أن جدار النبى ﷺ لما انهدم أيام الوليد بدت لهم قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان قد قتل شهيدا .

وقد ذكر الشيخ ابن تيمية أنه لما حصل الهدم بدت لهم قدم بساق وركبة ففزع من ذلك عمر بن عبدالعزيز فأتاه عروة ، فقال : هذه ساق عمر وركبته فسرى عن عمر بن عبدالعزيز . اهـ (اقتضاء الصراط المستقيم ٣٦٥) .

وقد ألف فى هذا الموضوع الإمام الحجة أبوبكر بن الحسين البيهقى رسالة خاصة جمع فيها جملة من الأحاديث التى تدل على حياة الأنبياء وبقاء أجسادهم ، وكذلك ألف الحافظ جلال الدين السيوطى رسالة خاصة بذلك .

* * *

حياة خاصة بنبينا محمد ﷺ

وقد ثبت لنبينا محمد ﷺ حياة برزخية أكمل وأعظم من غيره تحدث عنها بنفسه تثبت اتصاله بالأمة المحمدية ومعرفته بأحوالها وإطلاعه على أعمالها وسماعه لكلامهم وردّه لسلامهم ، والأحاديث فى هذا الباب كثيرة .

فمنها عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم:

«إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغونى من أمتى السلام» ..

قال المنذرى : رواه النسائى وابن حبان فى صحيحه اهـ . من الترغيب والترهيب (ج ٢ ص ٤٩٨) .

قلت : ورواه إسماعيل القاضى وغيره من طرق مختلفة بأسانيد صحيحة لا ريب فيها إلى سفيان الثورى عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله ابن مسعود وصرَّح الثورى بالسماع فقال : حدثنى عبدالله بن السائب . هكذا فى كتاب القاضى إسماعيل وعبدالله بن السائب وزاذان روى لهما مسلم . ووثقهما ابن معين فالإسناد إذن صحيح .

ومنها : عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :

«حياتى خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، ووفاتى خير لكم تعرض أعمالكم علىَّ فما رأيت من خير حمدت الله ، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم» ..

قال الحافظ العراق فى كتاب الجنائز من طرح التثريب فى شرح التقريب : إسناده جيد[٢٠] .

وقال الحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد (ج ٩ ص ٢٤) : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح ، وصححه الحافظ السيوطى فى المعجزات والخصائص ، وكذا القسطلانى شارح البخارى ، ونص المناوى فى فيض القدير (ج ٣ ص ٤٠١) : بأنه صحيح ، وكذا الزرقانى فى شرح المواهب للقسطلانى ، وكذا الشهاب الخفاجى فى شرح الشفا (ج ١ ص ١٠٢) .

---

(٢٠) أنظر الملحق آخر الكتاب رقم ٢٠ .

وكـذا الملا على قارى فى شرح الشفـا (ج ١ ص ١٠٢) وقـال : رواه أيضا الحارث بن أسامة فى مسنده بسند صحيح .

وذكره ابن حجر فى المطالب العالية (ج ٤ ص ٢٢) ، وجـاء هذا الحديث من طريق آخر مرسلا عن بكر بن عبدالله المزنى ، وورواه الحافظ إسماعيـل القـاضى فى جزء الصلاة على النبى صلى الله عليه وآله وسلـم ، قال فيـه الشيـخ الألبـانى : مرسل صحيح .

وصححـه الحافـظ ابـن عبـد الهادى مع تعنتـه وتشدده فى كتابـــه الصارم المنكى .

فالحديث صحيح لا مطعن فيه وهو يدل على أن النبى ﷺ يعلم أعمالنـا بعرضها عليه ويستغفـر اللـه لنـا على ما فعلنـا من سىء وقبيـح ، وإذا كان كذلك فإنه يجوز لنا أن نتوسل به إلى الله ونستشفع به لديه لأنه يعلم بذلك فيشفـع فينـا ويدعو لنا وهو الشفيع المشـفع صلى الله عليه وآله وسلم ، وزاده تشريفا وتكـريما ، وقد أخبر الله فى القرآن أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم شهيـد على أمتـه وذلك يقتضى أن تعـرض أعمـالهم عليـه ليشهـد على ما رأى وعلـم ، قال ابـن المبـارك : أخبرنا رجل من الأنصار عن المنهال بن عمرو أنـه سمع سعيـد بن المسيب يقـول : ليس من يوم إلا يعرض فيه على النبـى ﷺ أمتـه غدوة وعشيـا فيعرفهـم بأسمائهـم وأعمالهم فلذلك يشهد عليهم ، يقول الله تعالى : ﴿فكيف إذا جئنـا من كل أمـة بشهيد وجئنابك على هؤلاء شهيدا﴾ .

ومنها : عن عمار بن ياسر رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول اللـه صلى الله عليه وآله وسلم :

«إن الله وكل بقبرى ملكا أعطاه اللـه أسماء الخلائـق ، فلا يصلى علـىَّ أحـد إلى يوم القيامة إلا أبلغنى باسمه واسم أبيه هذا فلان ابن فلان قد صلى عليك».

رواه البزار وأبو الشيخ ابن حبان ولفظه : قال رسول الله ﷺ :

«إن الله تبارك وتعالى وكل ملكا أعطاه أسماء الخلائق فهـو قائم على قبرى إذا مت ، فليس أحد يصلى علىَّ صلاة إلا قال : يا محمد ! صلى عليك فلان ابـن فلان قال : فيصلى الرب تبارك وتعالى على ذلك الرجل بكل واحدة عشرا» ..

(رواه الطبرانى فى الكبير بنحوه) اهـ . من الترغيب (ج ٢ ص ٥٠٠) .

ومنها عن عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبى هلال عن زيد بن أيمن عن عبادة بن نسىّ عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

«أكثروا الصلاة علىَّ يوم الجمعة فإنه مشهود تشهده الملائكة وإن أحدا لن يصلى علىَّ إلا عرضت علىَّ صلاته حتى يفرغ منها» .. قال : قلت : وبعد الموت ؟ قال : «وبعد الموت ، إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء فنبى الله حى يرزق» ..

رواه ابن ماجه فى السنن ، وفى الزوائد هذا الحديث صحيح إلا أنه منقطع فى موضعين ، لأن عبادة روايته عن أبى الدرداء مرسلة ، قاله العلاء . وزيد بن أيمن عن عبادة مرسلة قاله البخارى . انتهى من سنن ابن ماجه (ص ٥٢٤) .

ومنها عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«ما من أحد يسلم علىَّ إلا ردّ الله علىَّ روحى حتى أردّ عليه السلام» ..

رواه أبوداود كذا فى الترغيب (ج ٢ ص ٤٩٩) .

قال الشيخ ابن تيمية : هذا الحديث على شرط مسلم ، وقال : وفى مسند ابن أبى شيبة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

«من صلى علىَّ سمعته ، ومن صلى علىَّ نائيا بلغته» ..

رواه الدارقطنى .

وفى النسائى وغيره عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال :

«إن الله وكل بقبرى ملائكة يبلغونى عن أمتى السلام» ..

إلى أحاديث أخر فى هذا الباب متعددة اهـ . (اقتضاء الصراط المستقيم ص ٣٢٤) .

* * *

النبى ﷺ يجيب من ناداه

النبى ﷺ يجيب من ناداه قائلا : يا محمد ..

فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه عند أبى يعلى فى ذكر عيسى : [ولئن قام على قبرى فقال : يامحمد لأجيبنه] ..
ذكره الحافظ ابن حجر فى المطالب العالية ٤ /ص ٢٣ بعنوان حياته ﷺ فى قبره .

* * *

إرسال السلام بالبريد إلى النبى ﷺ

عن يزيد المهدى قال : لما ودعت عمر بن عبدالعزيز قال : إن لى إليك حاجة ، قلت : ياأمير المؤمنين ! كيف ترى حاجتك عندى ؟ قال : إنى أراك إذا أتيت المدينة سترى قبر النبى ﷺ فاقرئه منى السلام .

وعن حاتم بن وردان قال : كان عمر بن عبد العزيز يوجه البريد قاصدا من الشام إلى المدينة ليقرىء عنه النبى صلى الله عليه وآله وسلم السلام .
ذكره القاضى عياض فى الشفا فى باب الزيارة (ج ٢ ص ٨٣) .
وذكر الخفاجى والملا على قارى فى شرح الشفا أنه رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب ، وقال الخفاجى : كان من دأب السلف أنهم يرسلون السلام إلى رسول الله ﷺ ، وكان ابن عمر يفعله ويرسل له عليه الصلاة والسلام ولأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ورسول الله ﷺ وإن كان يبلغه سلام من سلم عليه وإن كان بعيدا عنه لكن فى هذا فضيلة خطابه عنده ورده عليه السلام بنفسه . اهـ .
من نسيم الرياض للخفاجى (ج ٣ ص ٥١٦) .

وذكره الفيروز آبادى فى الصّلات والبشر ص ١٥٣ .

صوت وسلام وآذان يسمع من القبر النبوى

روى الإمام الحافظ أبو محمد عبدالله الدارمى فى كتابه السنن الذى يعتبر من كتب الأصول الحديثية الستة ، قال : أخبرنا مروان بن محمد عن سعيد

ابن عبد العزيز قال : لما كان أيام الحرة لم يؤذن فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثا ، ولم يقم ولم يبرح سعيد بن المسيب من المسجد ، وكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهمهمة يسمعها من قبر النبى ﷺ فذكر معناه . اهـ . من سنن الدارمى (ج ١ ص ٤٤) ، ونقله الشيخ محمد بن عبدالوهاب فى أحكام تمنى الموت من مجموعة مؤلفاته ج/٣ /ص ٤٧ .

ونقل هذه الرواية الإمام مجد الدين الفيروز آبادى صاحب القاموس فى الصلات والبشر ص ١٥٤ . وقال إبراهيم بن شيبان : حججت فجئت المدينة فتقدمت إلى قبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فسلمت عليه فسمعت من داخل الحجرة : وعليك السلام .

تأييد ابن تيمية لهذه الوقائع

ذكر الشيخ ابن تيمية هذه الوقائع فى معرض كلامه عن اتخاذ القبر مسجدا أو وثنا يعبد ، ثم قال : ولا يدخل فى هذا الباب ما يروى من أن قوما سمعوا رد السلام من قبر النبى ﷺ أو قبور غيره من الصالحين ، وأن سعيد ابن المسيب كان يسمع الأذان من القبر ليالى الحرة ونحو ذلك اهـ .
(اقتضاء الصراط المستقيم ص ٣٧٣)[٢٠] .

ثم قال فى موضع آخر : وكذلك ما يذكر من الكرامات وخوارق العادات التى توجد عند قبور الأنبياء والصالحين مثل نزول الأنوار والملائكة عندها وتوقى الشياطين والبهائم لها واندفاع النار عنها وعمن جاورها وشفاعة بعضهم فى جيرانه من الموتى واستحباب الإندفان عند بعضهم وحصول الأنس والسكينة عندها ونزول العذاب بمن استهان بها فجنس هذا حق ليس مما نحن فيه ، وما فى قبور الأنبياء والصالحين من كرامة الله ورحمته ، وما لها عند الله من الحرمة والكرامة فوق ما يتوهمه أكثر الخلق ، لكن ليس هذا موضع تفصيل ذلك . اهـ .
(من اقتضاء الصراط المستقيم ص ٣٧٤)

* * *

«ثبوت بعض هذه الكرامات لغير الأنبياء»

وقد روى أهل العلم شيئا من هذه الكرامات لبعض السلف الصالح رضى الله عنهم حصلت لهم بعد وفاتهم ، ونقلها عنهم الثقات عن الثقات الذين رأوها بأعينهم وسننقل هنا بعض ذلك عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله ، قال فى كتاب أحكام تمنى الموت ضمن مجموعة مؤلفاته التى نشرتها جامعة الإمام محمد بن سعود :

الصلاة فى القبر :

ولأحمد عن عفان عن حماد عن ثابت أنه قال : اللهم إن كنت أعطيت أحدا الصلاة فى قبره ، فأعطنى الصلاة فى قبرى .

ولأبى نعيم عن جبير قال : أنا – والله الذى لا إله إلا هو – أدخلت ثابتا البنانى فى لحده ، ومعى حميد الطويل ، فلما سوينا عليه اللبن ، سقطت لبنة ، فإذا أنا به يصلي فى قبره .

قراءة القرآن :

وله ولابن جرير عن إبراهيم بن المهلبي قال : حدثني الذين كانوا يمرون بالجص بالأسحار ، قالوا : كنا إذا مررنا بجبانة قبر ثابت البنانى سمعنا قراءة القرآن .

وللترمذى وحسنه عن ابن عباس قال : ضرب بعض أصحاب النبى ﷺ خباءه على قبر ، وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فأتى النبى ﷺ فأخبره ، فقال رسول الله ﷺ : [هى المانعة ، هى المنجية ، تنجيه من عذاب القبر] .

وللنسائى والحاكم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : [نمت فرأيتنى فى الجنة – ولفظ النسائى : دخلت الجنة – فسمعت صوت قارئ يقرأ ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : حارثة بن النعمان] ، فقال رسول الله ﷺ : [كذاك البر ، كذاك البر ، كذاك البر] وكان أبر الناس بأمه .

ولابن أبى الدنيا عن الحسن قال : بلغنى أن المؤمن إذا مات ولم يحفظ القرآن أمر حفظته أن يعلّموه القرآن فى قبره حتى يبعثه الله يوم القيامة مع أهله .
وله عن يزيد الرقاشى نحوه ، وروى السلفى معناه من مراسيل عطية العوفى .

تزاور أهل القبور :

ولابن أبى شيبة عن ابن سيرين قال : كان يحب حسن الكفن ، ويقول : إنهم يتزاورون فى أكفانهم ، ومعناه فى مسند ابن أبى أسامة عن جابر مرفوعا ، وفيه ويتباهون ويتزاورون في قبروهم .

ولمسلم من حديثه : [إذا ولي أحدكم أخاه فليحسن كفنه] .

وللترمذى وابن ماجه ومحمد بن يحي الهمدانى فى صحيحه عن أبى قتادة مرفوعا : [إذا ولي أحدكم أخاه فليحسن كفنه ، فإنهم يتزاورون فى قبورهم] .

رسالة من الدنيا إلى البرزخ مع ميت :

وأخرج ابن أبى الدنيا بسند لا بأس به عن راشد بن سعد : أن رجلا توفيت امرأته ، فرأى نساء فى المنام ، ولم ير امرأته معهن ، فسألهن عنها ، فقلن : إنكم قصرتم فى كفنها ، فهي تستحيى أن تخرج معنا ، فأتى الرجل النبى ﷺ فأخبره ، قال النبى ﷺ : [أنظر هل إلى ثقة من سبيل ؟] فأتى رجلا من الأنصار قد حضرته الوفاة ، فأخبره ، فقال الأنصاري : إن كان أحد يبلغ الموتى بلغت ، فتوفى الأنصاري ، فجاء بثوبين مزودين بالزعفران ، فجعلهما فى كفن الأنصاري ، فلما كان الليل رأى النسوة ، ومعهن امرأته ، وعليها الثوبان الأصفران

وروى ابن الجوزى عن محمد بن يوسف الفريابى : قصة المرأة التى رأت أمها فى المنام ، تشكو إليها الكفن ، فقصوا على محمد وسألوه ، وفيه : أن أمها قالت لها : اشتروا لى كفنا ، وابعثوه مع فلانة ، قال الفريابى : فذكالحديث : أنهم يتزاورون فى أكفانهم ، فقلت : اشتروا لها كفنا ، فماتت المرأة فى اليوم الذى ذكرت ، ووضعوه معها .

النور على القبور :

ولابن أبي الدنيا عن أبي غالب – صاحب أبي أمامة – أن فتى بالشام حضره الموت ، فقال لعمه : أرأيت لو أن الله تعالى دفعني إلى والدتي ما كانت صانعة بي ؟ قال : إذاً والله كانت تدخلك الجنة ، قال : فوالله الله أرحم بي من والدتي ، فقبض الفتى ، فدخلت القبر مع عمه ، فقلنا : باللبن ، فسويناه عليه ، فسقطت منها لبنة ، فوثب عمه فتأخر ، فقلت : ما شأنك ؟ فقال : ملىء قبره نورا ، وفسح له مدّ بصره .

ولأبي داود وغيره عن عائشة قالت : لما مات النجاشي ، كنّا نحدث : أنه لا يزال يرى على قبره نور .

وفي تاريخ ابن عساكر عن عبدالرحمن بن عمارة قال : حضرت جنازة الأحنف بن قيس ، فكنت فيمن نزل قبره ، فلما سويته رأيته قد فسح له مدّ بصري ، فأخبرت بذلك أصحابي ، فلم يروا ما رأيت .

وعن إبراهيم الحنفي قال : لما صلب ماهان الحنفي على بابه ، كنا نرى الضوء عنده في الليل .

انظر أحكام تمنى الموت المصحح على النسخة المصورة / ٧٧١ /٨٦ بالمكتبة السعودية بالرياض تحقيق الشيخ عبدالرحمن السدحان والشيخ عبدالله الجبرين ، مجلد الفقه القسم الثاني .

وقد ذكروا في أول المجموعة توثيق هذه النسخ وتصحيح نسبتها إلى الشيخ ، وقد قامت جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض بنشر هذه المجموعة كاملة بعد تحقيقها تحت إشرافها بمناسبة أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب .

لا تشـــد الرحـــال

يخطىء كثير من الناس فى فهم حديث :

«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى» ..

فيستدلون به على تحريم شد الرحل لزيارة النبى ﷺ ويعتبرون أن السفر بذلك سفر معصية ، وهذا الاستدلال مردود ، لأنه مبنى على فهم باطل ، فالحديث كما سترى فى باب ، والاستدلال فى باب آخر ، وبيان ذلك هو أن قوله ﷺ : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد . جاء على الأسلوب المعروف عند اللغويين بأسلوب الاستثناء ، وهذا يقتضى وجود مستثنى ومستثنى منه ، فالمستثنى هو ما كان بعد إلا ، والمستثنى منه هو ما كان قبلها ، ولا بد من الأمرين ، إما وجودا أو تقديرا ، وهذا مقرر ومعروف فى أبسط كتب النحو .

وإذا نظرنا إلى هذا الحديث وجدنا أنه قد جاء فيه التصريح بذكر المستثنى وهو قوله : (إلى ثلاثة مساجد) وهو ما بعد «إلا» ولم يأت ذكر المستثنى منه وهو ما قبل «إلا» فلا بد إذن من تقديره .

فإن فرضنا أن المستثنى منه [قبر] كان اللفظ المنسوب لرسول الله ﷺ لا تشد الرحال إلى قبر إلا إلى ثلاثة مساجد . وهذا السياق ظاهر فى عدم الانتظام وغير لائق بالبلاغة النبوية ، فالمستثنى غير داخل ضمن المستثنى منه ، والأصل أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه ، ولا يطمئن قلب عالم يتحرج من نسبة كلام للمصطفى ﷺ لم يقله إلى نسبة هذه اللفظة [قبر] وهى لا تتفق مع الأصل فى الاستثناء إلى رسول الله ﷺ فلا تصلح أن تكون هى المستثنى منه ، فلنفرض أنها لفظ [مكان] فيكون السياق المنسوب لرسول الله ﷺ على هذا الفرض ، لا تشد الرحال إلى مكان إلا إلى ثلاثة مساجد ، ومعنى هذا ألا تسافر إلى تجارة أو علم أو خير ، وهذا ضرب من الهوس ظاهر البطلان .

فالحديث اشتمل على ذكر المستثنى وليس فيه ذكر المستثنى منه ، ولذلك فلا بد من تقديره بإتفاق أهل اللغة ، وتقديره لا يحتمل إلا ثلاثة وجوه لا رابع لها الوجه الأول : أن يكون تقديره بلفظ [قبر] فيكون اللفظ المقدر : لا تشد الرحال إلى قبر إلا إلى ثلاثة مساجد .

وهذا التقدير مبنى على رأى من يستدل بالحديث على منع السفر للزيارة ، وأنت ترى أنه تقدير بارد ممجوج لا يستسيغه من عنده أدنى إلمام بالعربية ، وهو لا تليق نسبته إلى أفصح من نطق بالضاد صلوات الله وسلامه عليه ، فحاشا أن يرضى بمثل هذا الأسلوب الساقط .

الوجه الثانى : أن يكون تقدير المستثنى منه فى الحديث بلفظ عام وهو لفظ [مكان] وهذا باطل كما تقدم بلا خلاف ولا قائل به .

الوجه الثالث : أن يكون تقدير المستثنى منه فى الحديث بلفظ [مسجد] فيكون سياق الحديث بلفظ : لا تشد الرحال إلى مسجد إلا إلى ثلاثة مساجد . فنرى أن الكلام قد انتظم وجرى على الأسلوب اللغوى الفصيح ، واختفى التهافت الواضح فى الصورتين المتقدمتين وأشرقت فيه روح النبوة . ويطمئن القلب التقى إلى نسبته لرسول الله ﷺ هذا بفرض أنه لا توجد رواية أخرى مصرحة بالمستثنى منه فإذا وجدت هذه الرواية فلا يحل لمن له دين أن يعدل عنها إلى محض فرض لا يستند إلى فصيح اللغة .

وقد وجدنا بحمد الله فى السنة النبوية من طريق الروايات المعتبرة ما فيه التصريح بالمستثنى منه ، فمنها : ماأخرجه الإمام أحمد من شهر بن حوشب قال : سمعت أبا سعيد وذكرت عنده الصلاة والسلام فى الطور فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«لا ينبغى للمطى أن يشد رحاله إلى مسجد تبتغى فيه الصلاة غير المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى» ..

قال الحافظ ابن حجر : وشهر حسن الحديث وإن كان فيه بعض ضعف . (فتح البارى ج ٣ ص ٦٥) .

وفى لفظ آخر :

«لا ينبغى للمطى أن تشد رحاله إلى مسجد يبتغى فيه الصلاة غير المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى هذا» ..

قال الحافظ الهيثمى : وفيه شهر ، فيه كلام وحديثه حسن .

(مجمع الزوائد ج ٤ ص ٣)

ومنها ما جاء عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

«أنا خاتم الأنبياء ومسجدى خاتم مساجد الأنبياء أحق المساجد أن يزار وتشد إليه الرواحل : المسجد الحرام ومسجدى ، صلاة فى مسجدى أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام» ..

رواه البزار . (مجمع الزوائد ج ٤ ص ٣)

فكلامه ﷺ فى المساجد ليبين للأمة أن ما عدا هذه المساجد الثلاثة متساو فى الفضل ، فلا فائدة فى التعب بالسفر إلى غيرها ، أما هى فلها مزيد فضل ، ولا دخل للمقابر فى هذا الحديث فاقحامها فى هذا الحديث يعتبر ضربا من الكذب على رسول الله ﷺ ، هذا مع أن الزيارة مطلوبة بل وكثير من العلماء يذكرونها فى كتب المناسك على أنها من المستحبات ، ويؤيد هذا أحاديث كثيرة ، نذكر جملة منها .

عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال :

«من زار قبرى وجبت له شفاعتى» ..

رواه البزار وفيه عبدالله بن إبراهيم الغفارى وهو ضعيف ، ونقله الشيخ ابن تيمية ، وقال : إنه ضعيف ولم يحكم بوضعه أو كذبه اهـ . (الفتاوى ج ٢٧ ص ٣٠) فى هذا الموضع ، فإن ثبت غير هذا عنه فى موضع آخر فمعناه أنه متردد فى الحكم عليه ، أو أنه اختلف رأيه فيه ولم نعلم المتقدم من المتأخر فلا يوثق بواحدة حينئذ .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :

«من جاءنى زائرا لا يعلم له حاجة إلا زيارتى كان حقا علىَّ أن أكـون له شفيعا يوم القيامة» ..

رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير ، وفيه مسلمة بن سالم وهو ضعيف . (كذا فى المجمع ج ٤ ص ٢) .

وقال الحافظ العراقى : صححه ابن السكن (المغنى ج ١ ص ٢٦٥) .

عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال :

«من حج فزار قبرى فى مماتى كان كمن زارنى فى حياتى» ..

رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، وفيه حفص بن أبى داود القارىء وثقه أحمد ، وضعفه جماعة من الأئمة .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :

«من زارقبرى بعد موتى كان كمن زارنى فى حياتى» ..

قال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط وفيه عائشة بنت يونس ، ولم أجد من ترجمها (كذا فى مجمع الزوائد ٤ /٢) .

والحاصل أن أحاديث الزيارة لها طرق كثيرة يقوى بعضها بعضا ، كما نقله المناوى عن الحافظ الذهبى فى فيض القدير (ج ٦ ص ١٤٠) خصوصا وإن بعض العلماء صححها أو نقل تصحيحها كالسبكى وابن السكن والعراق والقاضى عياض فى الشفا ، والملا على قارى شارحه والخفاجى كذلك فى نسيم الرياض (ج ٣ ص ٥١١) ، وكلهم من حفاظ الحديث وأئمته المعتمدين ، ويكفى أن الأئمة الأربعة رضى الله عنهم وغيرهم من فحول العلماء وأركان الدين قالوا بمشروعية زيارة النبى ﷺ كما نقله عنهم أصحابهم فى كتب فقههم المعتمدة ، وهذا كاف منهم فى تصحيح أحاديث الزيارة وقبولها لأن الحديث الضعيف يتأيد بالعمل والفتوى ، كما هو معروف من قواعد الأصوليين والمحدثين .

* * *

زيارة القبر هى زيارة المسجد
فى اعتبار الشيخ ابن تيمية

للشيخ ابن تيمية رأى نفيس جاء ضمن كلامه عن الزيارة ، فبعد أن تكلم عن بدعية شد الرحل للقبر النبوى المحمدى وحده دون المسجد رجع فقال :

وهذا المعترض وأمثاله جعلوا السفر إلى قبور الأنبياء نوعا من القربة ثم لما رأوا ما ذكره العلماء من استحباب زيارة قبر نبينا ظنوا أن سائر القبور يسافر إليها كما يسافر إليه ، فضلوا من وجوه :

أحدهما : أن السفر إليه إنما هو سفر إلى مسجده وهو مستحب بالنص والإجماع .

الثانى : أن هذا السفر هو للمسجد فى حياة الرسول وبعد دفنه وقبل دخول الحجرة وبعد دخول الحجرة فيه ، فهو سفر إلى المسجد سواء كان القبر هناك أو لم يكن ، فلا يجوز أن يشبه به السفر إلى قبر مجرد ....

ثم قال : السادس : أن السفر إلى مسجده ـ الذى يسمى السفر لزيارة قبره ـ هو ما أجمع عليه المسلمون جيلا بعد جيل ، وأما السفر إلى سائر القبور فلا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان بل ولا عن أتباع التابعين .

ثم قال : والمقصود أن المسلمين مازالوا يسافرون إلى مسجده ولا يسافرون إلى قبور الأنبياء كقبر موسى وقبر الخليل عليهما السلام ، ولم يعرف عن أحد من الصحابة أنه سافر إلى قبر الخليل مع كثرة مجيئهم إلى الشام وبيت المقدس ، فكيف يجعل السفر إلى مسجد الرسول الذى يسميه بعض الناس زيارة لقبره مثل السفر إلى قبور الأنبياء ؟

فيستفاد من كلام الشيخ ابن تيمية فائدة مهمة جدا وهى أنه لا يتصور أبدا أن يشد الزائر رحله قاصدا زيارة القبر وحده ، ثم لا يدخل إلى المسجد ويصلى فيه ليستفيد من بركاته ومضاعفة صلاته ، وروضة الجنة التى فيه ويقابله أنه لا يعقل

أبدا أن يشد الزائر رحله قاصداً زيارة المسجد وحده ثم لا يتوجه إلى الزيارة ولا يقف بالقبر الشريف للسلام على النبى ﷺ وصاحبيه رضى الله عنهما .

ولذلك ترى الشيخ يشير فى عبارته إلى هذا المعنى بقوله مثلا : (فكيف يجعل السفر إلى مسجد الرسول الذى يسميه بعض الناس زيارة) ؟ .
وبقوله : (إن السفر إليه إنما هو سفر إلى مسجده) .
وبقوله : (إن السفر إلى مسجده الذى يسمى السفر لزيارة قبره هو ما أجمع عليه المسلمون) .

فهذا الرأى الجيد النفيس يحل مشكلة كبرى فرقت بيننا معشر المسلمين وبسببها كفر بعضنا بعضا وأخرجه عن دائرة الإسلام ، ولو سلك من ادعى أنه متبع للسلف مسلك ابن تيمية إمام السلف فى عصره والتمس للناس العذر فى مقاصدهم وحسن الظن بهم لسلم جمع غفير من دخول النار وفازوا بالجنة دار القرار .

وهذا هو الحق الذى ندين الله به ونعتقده بكل صدق سواء صرحنا به أو لم نصرح ، فلو قال الواحد منا : أنا مسافر لزيارة النبى ﷺ أو قبره فهو قاصد فى الجملة مسجده الشريف ، ولو قال : أنا مسافر لزيارة المسجد ، فهو قاصد فى الجملة القبر ، غاية ما فى الأمر أنه فاته التصريح بكل ما يقصده وينويه للارتباط الوثيق بين المسجد والقبر الذى هو فى الحقيقة عبارة عن قصد النبى ذاته ﷺ ، لأن المسافر لزيارة القبر إنما هو مسافر فى الحقيقة إلى النبى نفسه ﷺ .

أما القبر حقيقة فلا يقصده ولا يتوجه إليه مسافر ، ونحن إنما نتوجه إليه ﷺ ونشد رحالنا لزيارته هو ونتقرب إلى الله بتلك الزيارة ، ولذلك فالواجب على المسلمين الزائرين أن يصححوا ألفاظهم ابتعادا عن الشبهة ، ويقولوا : نحن نزور رسول الله ونشد الرحل إلى رسول الله ﷺ ، ومن هنا قال مالك : أكره للرجل أن يقول : زرت قبر الرسول .

وفسره العلماء من أئمة المالكية بأن ذلك من الأدب فى التعبير اللفظى ،

ولو كان المسافر لزيارة القبر لا يقصد إلا زيارة القبر فقط لما رأيت هذا الازدحام الشديد على الروضة المشرفة .

ولما رأيت الناس يتسابقون ويتدافعون عند فتح أبواب المسجد النبوى حتى ليكاد يقتل بعضهم بعضا ، وهؤلاء الذين يحرصون على الصلاة فى المسجد والمسابقة إلى الروضة هم الذين جاءوا لزيارة محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ، وشدوا رحلهم إليه .

* * *

تحقيق مفيد

تحقيق العلامة الشيخ عطية محمد سالم صاحب تكملة أضواء البيان

وقد ذكر هذه المسألة العلامة الشيخ عطية محمد سالم القاضى بالمدينة المنورة فى كتابه الذى تمم به التفسير المشهور المسمى بأضواء البيان للعلامة المفسر الشيخ محمد أمين الشنقيطى فقال :

واعتقد أن هذه المسألة لو لا نزاع معاصرى شيخ الإسلام معه فى غيرها لما كان لها محل ولا مجال .

ولكنهم وجدوها حساسة ولها مساس بالعاطفة ومحبة رسول الله ﷺ ، فأثاروها وحكموا عليه بالالتزام أى بلازم كلامه حينما قال :

لا يكون شد الرحال لمجرد الزيارة ، بل تكون للمسجد من أجل الزيارة عملا بنص الحديث ، فتقولوا عليه ما لم يقله صراحة ، لو حمل كلامه على النفي بدل من النهى لكان موافقا أى لا يتأتى ذلك لأنه رحمه الله لم يمنع زيارته ﷺ ولا السلام عليه ، بل يجعلها من الفضائل والقربات ، وإنما يلتزم بنص الحديث فى جعل شد الرحال إلى المسجد ولكل شيء ، ومنه السلام على رسول الله ﷺ كما صرح بذلك فى كتبه . اهـ كلام الشيخ عطية فى أضواء البيان (ج ٨ ص ٥٨٦).

ثم نقل من نصوص كلام ابن تيمية ما نقلناه عنه ثم قال :

فدل كلامه رحمه الله أن زيارة القبر والصلاة فى المسجد مرتبطان ، ومن ادعى انفكاكهما عمليا فقد خالف الواقع ، وإذا ثبتت الرابطة بينهما انتفى الخلاف وزال موجب النزاع والحمد لله رب العالمين ، وصرح فى موضع آخر ص ٣٤٦ فى قصر الصلاة فى السفر لزيارة قبور الصالحين غن أصحاب أحمد أربعة أقوال ، الثالث منها : تقصر إلى قبر نبينا عليه الصلاة والسلام .

(أضواء البيان ج ٨ ص ٥٩٠) ، ثم قال الشيخ عطية :

وهذا غاية فى التصريح منه رحمه الله أنه لا انفكاك من حيث الواقع بين الزيارة والصلاة فى المسجد عند عامة العلماء .

ثم قال فى حق الجاهل : وأما من لم يعرف هذا فقد لا يقصد إلا السفر إلى القبر ، ثم إنه لا بد أن يصلى فى مسجده فيثاب على ذلك ، وما فعله وهو منهى عنه ولم يعلم أنه منهى عنه لا يعاقب فيحصل له أجر ولا يكون عليه وزر .

(أنظر أضواء البيان ج ٨ ص ٥٩٠) .

وبه يظهر لك أن قاصد القبر على كل حال ليس بمحروم من الأجر والثواب فهل يقال فى حقه : أنه مبتدع أو ضال أو مشرك ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .



الإمام مالك والزيارة

الإمام مالك هو من أشد الناس تعظيما للجناب النبوى وهو الذى كان لا يمشى فى المدينة المنورة منتعلا ولا راكبا ولا يقضى فيها حاجته احتراما وتعظيما وتكريما لتراب المدينة الذى مشى عليه رسول الله ﷺ ، وها هو يخاطب أمير المؤمنين المهدى لما جاء إلى المدينة فى هذا الموضوع ويقول له : إنك تدخل الآن المدينة فتمر بقوم عن يمينك ويسارك وهم أولاد المهاجرين والأنصار فسلم عليهم فإنه ما على وجه الأرض قوم خير من أهل المدينة ، ولا خير من المدينة . فقال له : ومن أين قلت ذلك يا أباعبدالله ؟ قال : لأنه لا يعرف قبر نبى اليوم على وجه الأرض غير قبر محمد ﷺ ، ومن قبر محمد عندهم فينبغى أن يعلم فضلهم .

(كذا فى المدارك للقاضى عياض) .

ومن شدة تعظيمه للمدينة أنه كره أن يقال : زرنا قبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وكأنه أراد أن يقول القائل زرنا النبى ﷺ مباشرة دون لفظ القبر ، لأن القبر مهجور بدليل قوله ﷺ : صلوا فى بيوتكم ولا تجعلوها قبورا .

قال الحافظ ابن حجر : إنه إنما كره اللفظ أدبا لا أصل الزيارة فإنها من أفضل الأعمال وأجل القربات الموصلة إلى ذى الجلال ، وأن مشروعيتها محل إجماع بلا نزاع . (فتح البارى شرح صحيح البخارى ج ٣ ص ٦٦) .

وقال الإمام الحافظ ابن عبد البر : إنما كره مالك أن يقال : طواف الزيارة وزرنا قبر النبى ﷺ لاستعمال الناس ذلك بعضهم لبعض ، أى فيما بينهم فكره تسوية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع الناس أى عمومهم بهذا اللفظ ، وأحب أن يخص بأن يقال : سلمنا على النبى ﷺ .

وأيضا فإن الزيارة مباحة بين الناس وواجب شد المطى إلى قبره ﷺ يريد بالوجوب هنا وجوب ندب وترغيب وتأكيد لا وجوب فرض ، والأولى عندى أن منعه وكراهة مالك له لإضافته إلى قبر النبى ﷺ وأنه لو قال : زرنا النبى ﷺ لم يكرهه لقوله ﷺ :

«اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد بعدى ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ..

فحمى إضافة هذا اللفظ إلى القبر والتشبيه بفعل أولئك قطعا للذريعة وحسما للباب .

قلت : ولو كان المقصود كراهية الزيارة لقال مالك : أكره للرجل أن يزور قبر النبى ﷺ ، لكن ظاهر قوله : (أكره للرجل أن يقول الخ ..) على أن المقصود هو كراهة التعبير بهذا اللفظ فقط .



استحباب زيارة النبى ﷺ عند الحنابلة وغيرهم

زيارة النبى ﷺ مشروعة وقد ذكرها كثير من علماء الأمة وأئمة السلف ، وتخصيص الحنابلة بالذكر المقصود منه رد فرية من زعم أن أئمة الحنابلة لا يقولون بذلك ، فاقتضى الأمر تخصيصهم بالذكر لرد هذه الفرية ، وإلا فإن كتب فقه المذاهب الإسلامية جميعها مشحونة ومملوءة بهذه المسألة فانظر إن شئت كتب الفقه الحنفى ، وانظر إن شئت كتب الفقه المالكى ، وكتب الفقه الشافعى والحنبلى ، وكتب الفقه الزيدى والأباضى والجعفرى ، فإنك تجدهم قد عقدوا بابا مخصوصا فى الزيارة بعد أبواب المناسك .

* * *

كلام أئمة السلف فى مشروعية زيارة سيدنا رسول الله ﷺ وشد الرحل إلى قبره

١ ـ القاضى عياض :

نذكر هنا كلام القاضى عياض فى مشروعية الزيارة النبوية عند السلف ، فى شرحه للحديث الذى رواه مسلم عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال :

«إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية إلى جحرها» ..

قال القاضى عياض : وقوله ﷺ : وهو يأرز إلى المدينة معناه : أن الإيمان أولا وآخرا بهذه الصفة ، لأنه فى أول الإسلام كان كل من خلص إيمانه وصح إسلامه أتى المدينة إما مهاجرا مستوطنا وإما متشوقا إلى رؤية رسول الله ﷺ ومتعلما منه ومتقربا ، ثم بعده هكذا فى زمن الخلفاء كذلك ولأخذ سيرة العدل منهم والإقتداء بجمهور الصحابة رضوان الله عليهم فيها ، ثم من بعدهم من العلماء الذين كانوا سرج الوقت وأئمة الهدى لأخذ السنن المنتشرة بها عنهم ، فكان كل ثابت الإيمان منشرح الصدر به يرحل إليها ثم بعد ذلك فى كل وقت

إلى زماننا لزيارة قبر النبى ﷺ والتبرك بمشاهده وآثار أصحابه الكرام ، فلا يأتيها إلا مؤمن .

هذا كلام القاضى عياض ، والله أعلم بالصواب اهـ . شرح صحيح مسلم للنووى ص ١٧٧ .

٢ ـ الإمام النووى :

عقد الإمام الحافظ شرف الدين النووى صاحب شرح صحيح مسلم فى كتابه المعروف فى المناسك المسمى بالإيضاح ، عقد فصلا خاصا عن الزيارة النبوية ، قال فيه : إذا انصرف الحجاج والمعتمرون من مكة فليتوجهوا إلى مدينة رسول الله ﷺ لزيارة تربته ﷺ فإنها من أهم القربات وأنجح المساعى .

(وانظر كلامه أيضا فى شرح صحيح مسلم عند الكلام على حديث لا تشد الرحال (ج ٩ ص ١٠٦) .

٣ ـ الإمام ابن حجر الهيثمى :

قال الحافظ ابن حجر الهيثمى فى حاشيته على الإيضاح للنووى معلقا على قوله : (وقد روى البزار والدارقطنى بإسنادهما عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

«من زار قبرى وجبت له شفاعتى» ..

قال : رواه أيضا ابن خزيمة فى صحيحه وصححه جماعة كعبد الحق والتقى السبكى ، ولا ينافى ذلك قول الذهبى : طرقه كلها لينة ، يقوى بعضها بعضا.

ورواه الدار قطنى أيضا والطبرانى وابن السبكى وصححه بلفظ :

«من جاءنى زائرا لا تحمله حاجة إلا زيارتى كان حقا علىَّ أن أكون له شفيعا يوم القيامة» ..

وفى رواية :

«كان له حقا على الله عز وجل أن أكون له شفيعا يوم القيامة» ..

والمراد بقوله : لاتحمله حاجة إلا زيارتى ، اجتناب قصد ما لاتعلق له بالزيارة . أما ما يتعلق بها من نحو قصد الإعتكاف فى المسجد النبوى ، وكثرة

العبادة فيه ، وزيارة الصحابة وغير ذلك مما يندب للزائر فعله ، فلا يضر قصده فى حصول الشفاعة له ، فقد قال أصحابنا وغيرهم : يسن أن ينوى مع التقرب بالزيارة التقرب بشد الرحل للمسجد النبوى والصلاة فيه كما ذكره المصنف .

ثم الحديث يشمل زيارته ﷺ حيا وميتا ، ويشمل الذكر والأنثى الآتى من قرب أو بعد ، فيستدل به على فضيلة شد الرحال لذلك ، وندب السفر للزيارة إذ للوسائل حكم المقاصد .

وقد أخرج أبو داود بسند صحيح :

«ما من أحد يسلم علىَّ إلا ردّ الله علىَّ روحى ، حتى أرد عليه السلام».

فتأمل هذه الفضيلة العظيمة وهى رده ﷺ على المسلم عليه إذ هو ﷺ حى فى قبره كسائر الأنبياء لما ورد مرفوعا : الأنبياء أحياء فى قبورهم يصلون ، ومعنى رد روحه الشريفة ، رد القوة النطقية فى ذلك الحين للرد عليه . اهـ .

(من الإيضاح ص ٤٨٨)

٤ ـ الإمام الحافظ ابن حجر العسقلانى :

قال ابن حجر فى شرحه على البخارى عند قوله : (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد) . قوله : إلا إلى ثلاثة مساجد المستثنى منه محذوف ، فإما أن يقدر عاما فيصير : لا تشد الرحال إلى مكان فى أى أمر كان إلا لثلاثة . أو أخص من ذلك ، لا سبيل إلى الأول لإفضائه إلى سد باب السفر للتجارة وصلة الرحم وطلب العلم وغيرها ، فتعين الثانى ، والأولى أن يقدر ما هو أكثر مناسبة وهو : لا تشد الرحال إلى مسجد للصلاة فيه إلا إلى الثلاثة ، فيبطل بذلك قول من منع شد الرحال إلى زيارة القبر الشريف وغيره من قبور الصالحين، والله أعلم.

وقال السبكى الكبير : وقد التبس ذلك على بعضهم فزعم أن شد الرحال إلى الزيارة لمن فى غير الثلاثة داخل فى المنع ، وهو خطأ ، لأن الاستثناء إنما يكون من جنس المستثنى منه ، فمعنى الحديث : لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد

أو إلى مكان من الأمكنة لأجل ذلك المكان إلا إلى الثلاثة المذكورة ، وشد الرحال إلى زيارة أو طلب علم ليس إلى المكان بل إلى من فى ذلك المكان ، والله أعلم اهـ . (فتح البارى ج ٣ ص ٦٦) .

٥ ـ الإمام الشيخ الكرمانى شارح البخارى :

قال الشيخ الكرمانى فى شرحه على البخارى عند قوله : (إلا إلى ثلاثة مساجد) : والاستثناء مفرغ ، فإن قلت : فتقدير الكلام لا تشد الرحال إلى موضع أو مكان فيلزم أن لا يجوز السفر إلى مكان غير المستثنى ، حتى لا يجوز السفر لزيارة إبراهيم الخليل عليه السلام ونحوه ، لأن المستثنى منه فى المفرغ لا بد أن يقدر أعم العام .

قلت : المراد بأعم العام ما يناسب المستثنى نوعا ووصفا كما إذا قلت : ما رأيت إلا زيداً ، كان تقديره : ما رأيت رجلا أو أحدا إلا زيداً ، لا ما رأيت شيئا أو حيوانا إلا زيدا ، فهنها تقديره : لا تشد إلى مسجد إلا إلى ثلاثة ، وقد وقع فى هذه المسألة فى عصرنا مناظرات كثيرة فى البلاد الشامية ، وصنف فيها رسائل من الطرفين لسنا الآن لبيانها . اهـ . شرح الكرمانى (ج ٧ ص ١٢) .

٦ ـ الشيخ الإمام بدرالدين العينى :

قال الشيخ العينى فى شرح البخارى : وحكى الرافعى عن القاضى ابن كج أنه قال : إذا نذر أن يزور قبر النبى ﷺ فعندى أنه يلزمه الوفاء وجها واحدا ، قال : ولو نذر أن يزور قبر غيره ففيه وجهان عندى . وقال القاضى عياض ، وأبو محمد الجوينى من الشافعية : أنه يحرم شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة لمقتضى النهى . وقال النووى : وهو غلط ، والصحيح عند أصحابنا وهو الذى اختاره إمام الحرمين والمحققون أنه لا يحرم ولا يكره . وقال الخطابى : لا تشد لفظه خبر ومعناه الإيجاب فيما نذره الإنسان من الصلاة فى البقاع التى يتبرك بها أى لا يلزم الوفاء بشىء من ذلك حتى يشد الرحل له ويقطع المسافة إليه غير هذه الثلاثة التى هى مساجد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فأما إذا نذر الصلاة فى غيرها من البقاع فإن له الخيار فى أن يأتيها أو يصليها فى موضعه ولا يرحل إليها .

وقال شيخنا زين الدين : من أحسن محامل هذا الحديث أن المراد منه

حكم المساجد فقط وأنه لا يشد الرحل إلى مسجد من المساجد غير هذه الثلاثة فأما قصد غير المساجد من الرحلة فى طلب العلم وفى التجارة والتنزه وزيارة الصالحين والمشاهد وزيارة الإخوان ونحو ذلك فليس داخلا فى النهى ، وقد ورد ذلك مصرحا به فى بعض طرق الحديث فى مسند أحمد : حدثنا هاشم حدثنا عبدالحميد حدثنى شهر سمعت أبا الخدرى رضى الله عنه وذكر عند صلاة فى الطور ، فقال : قال رسول الله ﷺ :

«لا ينبغى للمصلى أن يشد رحاله إلى مسجد يبتغى فيه الصلاة غير المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى هذا» ..

وإسناده حسن ، وشهر بن حوشب وثقه جماعة من الأئمة اهـ . (عمدة القارى ج ٧ ص ٢٥٤) .

٧ ـ الشيخ أبو محمد ابن قدامة إمام الحنابلة صاحب كتاب المغنى :

قال الشيخ أبو محمد موفق الدين عبدالله ابن قدامة : ويستحب زيارة قبر النبى ﷺ لما روى الدارقطنى بإسناده عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :

«من حج فزار قبرى بعد وفاتى فكأنما زارنى فى حياتى» ..

وفى رواية :

«من زار قبرى وجبت له شفاعتى» ..

رواه باللفظ الأول سعيد حدثنا حفص بن سليمان عن ليث عن مجاهد عن ابن عمر ، وقال أحمد فى رواية عبدالله عن يزيد بن قسيط عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال :

«ما من أحد يسلم علىَّ عند قبرى إلا رد الله علىَّ روحى حتى أردّ عليه السلام» ..

وإذا حج الذى لم يحج قط يعنى من غير طريق الشام لا يأخذ على طريق المدينة لأنى أخاف أن يحدث به حدث فينبغى أن يقصد مكة من أقصد الطرق ولا يتشاغل بغيره ، ويروى عن العتبى قال : كنت جالسا عند قبر النبى ﷺ

فجاء أعرابي فقال : السلام عليك يارسول الله ! سمعت الله يقول : ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما﴾ وقد جئتك مستغفرا لذنبي مستشفعا بك إلى ربي ، ثم أنشد يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي فحملتني عيني فنمت فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال : يا عتبي إلحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له . اهـ

(المغني لابن قدامة ج ٣ ص ٥٥٦) .

٨ ـ الشيخ أبو الفرج بن قدامة إمام الحنابلة وصاحب الشرح الكبير :

قال الشيخ شمس الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن قدامة الحنبلي في كتابه الشرح الكبير :

[مسألة] : فإذا فرغ من الحج استحب زيارة قبر النبي ﷺ وقبر صاحبيه رضي الله عنهما .

ثم ذكر الشيخ ابن قدامة صيغة تقال عند السلام على النبي ﷺ وفيها أن يقول : (اللهم إنك قلت وقولك الحق : ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما﴾ وقد أتيتك مستغفرا من ذنوبي مستشفعا بك إلى ربي فأسئلك يارب أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته ، اللهم اجعله أول الشافعين وأنجح السائلين وأكرم الأولين والآخرين برحمتك ياأرحم الراحمين) .

ثم قال : ولا يستحب التمسح بحائط قبر النبي ﷺ ولا تقبيله ، قال أحمد رحمه الله : ما أعرف هذا ، قال الأثرم : رأيت أهل العلم من أهل المدينة لا يمسون قبر النبي ﷺ ، يقومون من ناحية فيسلمون ، قال أبو عبدالله : وهكذا كان ابن عمر رضي الله عنهما يفعل ، قال : أما المنبر فقد جاء فيه ما رواه إبراهيم ابن عبدالله بن عبدالقارىء إنه نظر إلى ابن عمر وهو يضع يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر ثم يضعها على وجهه . اهـ . (الشرح الكبير ج ٣ ص ٤٩٥) .

٩ ـ الشيخ منصور بن يونس البهوتى الحنبلى :

قال الشيخ منصور بن يونس البهوتى فى كتابه «كشاف القناع عن متن الإقناع» : فصل : وإذا فرغ من الحج استحب له زيارة قبر النبى ﷺ وقبرى صاحبيه أبى بكر وعمر رضى الله عنهما لحديث الدارقطنى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :

«من حج فزار قبرى بعد وفاتى فكأنما زارنى فى حياتى» ..

وفى رواية :

«من زار قبرى وجبت له شفاعتى» ..

رواه باللفظ الأول سعيد .

(تنبيه) :

قال ابن نصر الله : لازم استحباب زيارة قبره ﷺ استحباب شد الرحال إليها ، لأن زيارته للحاج بعد حجه لا تمكن بدون شد الرحال ، فهذا كالتصريح باستحباب شد الرحل لزيارته ﷺ . اهـ (كشاف القناع ج ٢ ص ٥٩٨) .

١٠ ـ شيخ الإسلام محمد تقى الدين الفتوحى الحنبلى :

قال الشيخ الفتوحى : وسن زيارة قبر النبى ﷺ وقبر صاحبيه رضى الله تعالى عنهما ، فيسلم عليه مستقبلا له ، ثم يستقبل القبلة ، ويجعل الحجرة عن يساره ، ويدعو ، ويحرم الطواف بها ، ويكره التمسح ورفع الصوت عندها .

١١ ـ الشيخ مرعى بن يوسف الحنبلى :

قال الشيخ مرعى بن يوسف فى كتابه دليل الطالب : وسن زيارة قبر النبى ﷺ وقبر صاحبيه رضوان الله عليهما ، وتستحب الصلاة فى مسجده ﷺ وهى بألف صلاة ، وفى المسجد الحرام بمائة ألف ، وفى المسجد الأقصى بخمسمائة . اهـ (دليل الطالب ص ٨٨) .

١٢ ـ الإمام شيخ الإسلام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى صاحب القاموس قال فى كتابه : [الصلات والبشر] :

اعلم أن الصلاة على النبى ﷺ عند قبره آكد فيستحب إعمال المطى لادراك الفوز بهذا الشرف العظيم والمنصب الكريم ، قال القاضى ابن كج : [هو القاضى يوسف بن أحمد بن كج] فيما حكاه الرافعى : إذا نذر أن يزور قبر النبى ﷺ فعندى أن يلزمه الوفاء وجها واحدا ، ولو نذر أن يزور قبر غيره ففيه وجهان عندى ، وقد علم أنه لا يلزمه بالنذر إلا العبادات .

ومن صرح باستحبابها وكونها سنة من أصحابنا الرافعى فى أواخر باب أعمال الحج ، والغزالى فى الإحياء والبغوى فى التهذيب والشيخ عزالدين ابن عبدالسلام فى مناسكه وأبو عمرو بن الصلاح ، وأبو زكريا النووى رحمهم الله تعالى .

ومن الحنابلة : الشيخ موفق الدين ، والإمام أبو الفرج البغدادى وغيرهما .

ومن الحنفية : صاحب الاختيار فى شرح المختار له ، عقد لها فصلا وعدها من أفضل المندوبات المستحبات .

وأما المالكية : فقد حكى القاضى عياض منهم الإجماع على ذلك ، وفى كتاب تهذيب المطالب لعبدالحق الصقلى عن الشيخ أبى عمران المالكى أن زيارة قبر النبى ﷺ واجبة ، قال عبدالحق : يعنى من السنن الواجبة ، وفى كلام العبدى المالكى فى شرح الرسالة : أن المشى إلى المدينة لزيارة قبر الرسول ﷺ أفضل من الكعبة ومن بيت المقدس ، وأكثر عبارات الفقهاء أصحاب المذاهب تقتضى السفر للزيارة لأنهم استحبوا للحاج بعد الفراغ من الحج الزيارة ، ومن ضرورتها : السفر ، وأما نفس الزيارة فالأدلة عليها كثيرة منها : قوله تعالى : ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما﴾ .

ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم حى ، وأن أعمال أمته معروضة عليه

ثم ذكر الشيخ جملة من أحاديث الزيارة . انتهى من كتاب «الصلات والبشر فى الصلاة على خير البشر» تأليف شيخ الإسلام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى (ص ١٤٧) .

١٣ ـ الإمام الشيخ محمد بن علان الصديقى الشافعى شارح الأذكار:

قال معلقا على قول النووى [فإن زيارته أفضل القربات وأنجح المساعى] : وكيف لا وقد وعد الزائر بوجوب شفاعته ﷺ وهى لا تجب إلا لأهل الإيمان ففى ذلك التبشير بالموت على الإيمان مع ما ينضم إلى ذلك بسماعه ﷺ سلام الزائر من غير واسطة . أخرج أبو الشيخ : من صلى عليَّ عند قبرى سمعته ، ومن صلى عليَّ بعيدا أعلمته . قال الحافظ : وينظر فى سنده ، وأخرج أبو داود وغيره عن أبى هريرة عنه ﷺ أنه قال :

«ما من أحد يسلم علىّ إلا ردّ الله عليَّ روحى حتى أرد عليه السلام»..

قال الحافظ : حديث حسن أخرجه أحمد والبيهقى وغيرهما وأنبئت عن الشيخ السبكى فى شفاء السقام قال : اعتمد جماعة من الأئمة على هذا الحديث فى استحباب زيارة قبره ﷺ وهو اعتماد صحيح لأن الزائر إذا سلم عليه وقع الرد عليه من قرب وتلك فضيلة مطلوبة اهـ .

أقول ورده عليه كذلك بنفسه ولو لم يكن للزائر من القرى إلا هذا الخطاب لكان فيه الغنى ، كيف وفيه الشفاعة العظمى ومضاعفة الصلاة فى ذلك الحرم الأسنى ، وقد أورد جملة من الأحاديث فى ذلك التقى السبكى فى شفاء السقام ، وابن حجر الهيتمى فى الدر المنظم ، وتلميذه الفاكهى فى حسن الاستشارة فى آداب الزيارة . اهـ من الفتوحات الربانية على الأذكار النووية (ج ٥ ص ٣١) .

* * *

الزيارة النبوية السلفية

ومعلوم أن المقصود بالزيارة هو الزيارة الشرعية وهى التى بينت السنة النبوية آدابها وما ينبغى أن يفعله الزائر .

قال الشيخ ابن تيمية مبينا الفرق بين زيارة أهل التوحيد وبين زيارة أهل الشرك : (فزيارة أهل التوحيد لقبور المسلمين تتضمن السلام عليهم والدعاء لهم ، وهو مثل الصلاة على جنائزهم ، وزيارة أهل الشرك تتضمن أنهم يشبهون المخلوق بالخالق ، ينذرون له ويسجدون له ويدعونه ويحبونه مثل ما يحبون الخالق ، فيكونون قد جعلوه لله ندا وسووه برب العالمين ، وقد نهى الله أن يشرك به الملائكة والأنبياء وغيرهم ، فقال تعالى (آل عمران آيتى : ٧٩ ، ٨٠) : ﴿ماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ . وقال تعالى (الاسراء آيتى : ٥٦ ، ٥٧) : ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذورا﴾ . قالت طائفة من السلف : كان أقوام يدعون الأنبياء كالمسيح وعزير ويدعون الملائكة فأخبرهم تعالى أن هؤلاء عبيده يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه بالأعمال . اهـ (الجواب الباهر فى زوار المقابر لشيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية ص ٢١) .

قلت : وهل زيارتنا لنبينا ﷺ إلا على هذا المنهج وبهذا الطريق السوى والصراط المستقيم ؟ .

فالله يشهد وملائكته وحملة عرشه وأهل السماوات والأرض أننا فى زيارتنا لسيدنا ومولانا رسول الله ﷺ لا نعتقد إلا أنه ﷺ بشر يوحى إليه ، من خيار عبيد الله يرجو رحمة ربه ويخاف عذابه ويتقرب إليه بالأعمال ، بل هو أشد الناس

حرصا على ذلك ، فهو أتقانا لله وأخوفنا من الله وأعلمنا بالله وأعرفنا به ، لا نشبهه بالخالق ولا ننذر له ولا نسجد له ولا ندعوه ولا نجعله لله ندا ولا نسويه برب العالمين ، ونحبه كما أمر أكثر من النفس والمال والولد .

* * *

الشيخ ابن القيم والزيارة النبوية

وقد ذكر الشيخ ابن القيم فى قصيدته المعروفة بالنونية كيف تكون الزيارة وما هى الآداب المطلوبة فيها ، وكيف ينبغى أن يكون شعور الزائر وهو واقف أمام المواجهة الشريفة ، وما ذا ينبغى أن يحس به تجاه صاحب القبر ﷺ وذكر فى آخر تلك الأبيات أن الزيارة بهذا الإحساس والشعور وبتلك الكيفية هى من أفضل الأعمال فقال :

فإذا أتينا المسجد النبوى صلـ	ـينا التحية أولا ثنتان
بتمام أركان لها وخشوعها	وحضور قلب فعل ذى الاحسان
ثم انثنينا للزيارة نقصد الـ	ـقبر الشريف ولو على الأجفان
فنقوم دون القبر وقفة خاضع	متذلل فى السر والاعلان
فكأنه فى القبر حى ناطق	فالواقفون نواكس الأذقان
ملكتهم تلك المهابة فاعترت	تلك القوائم كثرة الرجفان
وتفجرت تلك العيون بمائها	ولطالما غاضت على الأزمان
وأتى المسلم بالسلام بهيبة	ووقار ذى علم وذى إيمان
لم يرفع الأصوات حول ضريحه	كلا ولم يسجد على الأذقان
كلا ولم ير طائفا بالقبر أسـ	ـبوعا كأن القبر بيت ثان
ثم انثنى بدعائه متوجها	لله نحو البيت ذى الأركان
هذى زيارة من غدا متماسكا	بشريعة الإسلام والإيمان
من أفضل الأعمال هاتيك الزيا	رة وهى يوم الحشر فى الميزان

(انظر النونية المشهورة لابن القيم).

وتدبر قوله رحمه الله : (من أفضل الأعمال هاتيك الزيارة) فقد أعمى الله بصيرة بعض من القراء عن قراءتها فأنكرها .

القبر النبوى الشريف

إن بعض الناس أصلحهم الله وهداهم إلى الصراط المستقيم ينظر إلى القبر النبوى المكرم من الزاوية القبورية فقط ولهذا فإنه لا غرابة فى كل ما يقع فى ذهنه من تصورات فاسدة ولا غرابة فى كل ما يقع فى قلبه من ظنون سيئة بالمسلمين والزائرين للنبى صلى الله عليه وآله وسلم والقاصدين إليه والداعين عند قبره فتراه يقول . . نشد الرحال إلى قبره ﷺ ، ولا يجوز الدعاء عند قبره ، بل قد يصل به العنت إلى أن يقول : إن الدعاء عند قبره شرك أو كفر ، وإن استقبال القبر بدعة أو ضلال ، وإن إكثار الوقوف والتردد على القبر شرك أو بدعة أو أن من قال : إن القبر أفضل البقاع وبما فيها الكعبة فقد أشرك أو ضل . وهذا التكفير والتضليل هكذا بالكيل الجزاف دون تبصر أو تعقل مخالف لما عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم اجمعين .

ونحن حينما نتكلم عن القبر أو عن زيارة القبر أو عن تفضيل القبر أو شد الرحال إلى القبر أو دعاء الله وسؤاله أمام القبر فإن المقصود الذى لا يختلف فيه اثنان ولا ينتطح فيه عنزان إنما هو ساكن القبر وصاحباه ، ألا وهو سيد المرسلين والآخرين وأفضل مخلوقات الله أجمعين النبى الأعظم والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وما هى قيمة القبر بدونه بل ما هى قيمة المسجد بدونه بل ما هى قيمة المدينة المنورة بدونه بل ما هى قيمة المسلمين كلهم بدونه ، فإنهم لو لاه ولو لا رسالته والإيمان به ومحبته والإقرار بالشهادة التى لا تصح إلا به ما كانوا ولا قاموا ولا فازوا ولا نجوا .

ومن هنا فإن ابن عقيل الحنبلى لما سئل عن المفاضلة بين الحجرة والكعبة فقال : إن أردت مجرد الحجرة فالكعبة أفضل ، وإن أردت وهو ﷺ فيها فلا والله لا العرش وحملته ولا جنة عدن ولا الأفلاك الدائرة ، لأن بالحجرة جسدا لو وزن بالكونين لرجح . (كذا فى بدائع الفوائد لابن القيم) .

هذا هو المقصود بالقبر وبتفضيله وزيارته وشد الرحال إليه .

ومن هنا أيضا قال العلماء : إنه لا ينبغى أن يقول : زرت القبر وإنما

زرت النبي ﷺ[1] ، وهذا ما قرره العلماء فى تفسير قول الإمام مالك رحمه الله : أكره للرجل أن يقول : زرنا قبر النبى ﷺ وذلك لأنه إنما يزور من يسمعه ويراه ويحس به ويعرفه ويرد عليه ، فالقضية ليست قضية قبر بل هى أكبر من ذلك وأجل وأرفع من أن ينظر إليها من الزاوية القبورية ، فإذا نظرنا إلى القبر فقط دون النظر إلى من فيه وجدنا الأرواح الطاهرة التى تحف به من كل جانب ووجدنا جسرا ملائكيا متصلا ممتدا من الملأ الأعلى إلى قبر محمد ﷺ مواكب متصلة لا تنقطع أعدادها وأمدادها لا يحصيها إلا الحق جل جلاله .

روى الدارمى فى سننه : حدثنا عبدالله بن صالح حدثنى الليث حدثنى خالد هو ابن يزيد عن سعيد هو ابن أبى هلال عن نبيه بن وهب : أن كعبا دخل على عائشة فذكروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال كعب : ما من يوم يطلع إلا نزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفوا بقبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم يضربون بأجنحتهم ويصلون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج فى سبعين ألفا من الملائكة يزفونه . كذا في سنن الدارمى ج ١ ص ٤٤).

قلت : وروى هذا الأثر أيضا الحافظ إسماعيل القاضي بسنده وهو جيد في المتابعات والشواهد والمناقب وفضائل الأعمال .

وإذا نظرنا ما حول القبر من الروضة التى هى قطعة من الجنة والمنبر الذى نال الشرف الأعلى بالحبيب ﷺ وسيكون يوم القيامة على حوضه العظيم وإلى الجذع الذى حن إليه حنين الثكلى وسيكون يوم القيامة فى جنة الخلد وسط أشجارها ، وقد قيل : إنه دفن فى موضعه بالمسجد فلا أظن أن عاقلا حريصا على الخير يتوقف عن الدعاء فى هذه المواضع .

---

(١) أنظر الشفا للقاضى عياض .

القبر النبوى ـ والدعـاء

ذكر العلماء رضى الله عنهم : أنه يستحب لمن زار النبى صلى الله عليه وسلم أن يقف للدعاء، فيسأل الله تعالى ما يشاء من الخير والفضل ولا يلزمه أن يتوجه إلى القبلة ولا يكون فى وقوفه ذلك مبتدعا أو ضالا أو مشركا ، وقد نص العلماء على هذا الأمر ، بل قد ذهب بعضهم إلى القول بالاستحباب .

والأصل فى هذا الباب هو ما جاء عن الإمام مالك بن أنس لما ناظره أبو جعفر المنصور فى المسجد النبوى ، فقال له مالك : يا أمير المؤمنين ! لا ترفع صوتك فى هذا المسجد ، فإن الله تعالى أدب قوما فقال : ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى﴾ الآية . وقد مدح قوما فقال : ﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله﴾ الآية .وذم قوما فقال : ﴿إن الذين ينادونك﴾ الآية . وإن حرمته ميتا كحرمته حيا ، فاستكان لها أبوجعفر وقال : ياأبا عبدالله ! أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله ﷺ ؟ فقال : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله ، قال الله تعالى : ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾ الآية .

وهذه القصة رواها القاضى عياض بسنده فى كتابه المعروف «بالشفا فى التعريف بحقوق المصطفى» فى باب من أبواب الزيارة ، وقد صرح كثير من العلماء بهذا .

قال الشيخ ابن تيمية : قال ابن وهب فيما يرويه عن مالك : إذا سلم على النبى ﷺ يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة ويدنو ويسلم ويدعو ولا يمس القبر بيده . اهـ (من اقتضاء الصراط المستقيم ص ٣٩٦) .

وصرح النووى رحمه الله فى كتابه المعروف بالأذكار فى أبواب الزيارة ، وكذلك فى الإيضاح فى باب الزيارة ، وكذلك فى المجموع (ج ٨ ص ٢٧٢) .

قال الخفاجى شارح الشفا : قال السبكى : صرح أصحابنا بأنه يستحب أن يأتى القبر ويستقبله ويستدبر القبلة ثم يسلم على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم على الشيخين ثم يرجع إلى موقفه الأول ويقف فيدعو . اهـ شرح الشفا للخفاجى (ج ٣ ص ٣٩٨) .

* * *

رأى الشيخ ابن تيمية :

قال الشيخ ابن تيمية بعد نقل أقوال العلماء فى هذا الموضوع : [فاتفقوا فى إستقبال القبلة وتنازعوا فى تولية القبر ظهره وقت الدعاء] .

هذه خلاصة ما يراه الشيخ ابن تيمية فى هذا الموضوع وهو يدل دلالة واضحة على أن من وقف أمام القبر يدعو الله تعالى ويسأله من فضله كما شرع هو على أساس متين معتبر مؤيد بأقوال أئمة من السلف الصالح رضوان الله عليهم اجمعين ، ولو تأمل المنصف العاقل قول الشيخ ابن تيمية : [وتنازعوا فى تولية القبر ظهره وقت الدعاء] لفهم منها ما يطمئن قلبه ويقر عينه ويبشره بأن هؤلاء الذين يقفون بعدالسلام على الرسول ﷺ للدعاء عند قبره مازالوا على التوحيد ، ومن أهل الإيمان ، ولأن هذه المسألة متنازع فيها بين السلف والكلام مختلف بينهم بين الاستحباب وغيره ، فهل يصل الحال إلى القول بالشرك والضلال ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

* * *

تحليل كلام الشيخ ابن تيمية :

والمفهوم من كلام الشيخ ابن تيمية هو أن المنهى عنه حقيقة هو تحرى الدعاء عند القبور أو قصد القبور للدعاء عندها ورجاء الإجابة بالدعاء هناك ، أو تستشعر أن الدعاء عند القبر أجوب من غيره ، أما أن يدعو الله تعالى فى طريقه ويتفق أن يمر بالقبور فيدعو عندها أو أن يزور قبرا فيسلم على صاحبه ثم يدعو فى مكانه ذلك فلا يلزمه أن يتحول إلى القبلة ولا يقال فى حقه : إنه مشرك أو مبتدع. وإليك نصوص كلام الشيخ فى هذا الموضوع . قال فى اقتضاء الصراط المستقيم فى صفحة ٣٣٦ : فمما يدخل فى هذا قصد القبور للدعاء عندها أو لها فإن الدعاء عند القبور وغيرها من الأماكن ينقسم إلى نوعين :

أحدهما : أن يحصل الدعاء فى البقعة بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها ، كمن يدعو الله تعالى فى طريقه ويتفق أن يمر بالقبور أو من يزورها فيسلم عليها

ويسأل الله العافية له وللموتى كما جاءت به السنة فهذا ونحوه لا بأس به .

الثانى : أن يتحرى الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه فى غيره ، فهذا النوع منهى عنه : إما نهى تحريم أو تنزيه وهو إلى التحريم أقرب والفرق بين البابين ظاهر .

ولو تحرى الدعاء عند صنم أو صليب أو كنيسة يرجو الإجابة بالدعاء فى تلك البقعة لكان هذا من العظائم بل لو قصد بيتا أو حانوتا فى السوق ، أو بعض عواميد الطرقات يدعو عندها يرجو الإجابة بالدعاء عندها لكان هذا من المنكرات المحرمة إذ ليس للدعاء عندها فضل .

فقصد القبور للدعاء عندها من هذا الباب بل هو أشد من بعضه لأن النبى ﷺ نهى عن اتخاذها مساجد وعن اتخاذها عيدا وعن الصلاة عندها بخلاف كثير من هذه المواضع .

ثم قال فى صفحة ٣٣٨ : إن قصد القبور للدعاء عندها ورجاء الإجابة بالدعاء هناك رجاء أكثر من رجائها فى غير ذلك الموطن أمر لم يشرعه الله ولا رسوله ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أئمة المسلمين ، ولا ذكره أحد من العلماء الصالحين المتقدمين .

ثم قال فى صفحة ٣٣٩ : ومن تأمل كتب الآثار وعرف حال السلف تيقن قطعا أن القوم ما كانوا يستغيثون عند القبور ولا يتحرون الدعاء عندها أصلا بل كانوا ينهون عن ذلك من يفعله من جهالهم كما ذكرنا بعضه . اهـ (من اقتضاء الصراط المستقيم ص ٣٣٩) .

* * *

رأى الشيخ محمد بن عبدالوهاب فى الدعاء عند القبر
الدعاء عند القبر ليس بدعة ولا شركا

سئل الشيخ محمد بن عبدالوهاب عن قولهم فى الاستسقاء : (لا بأس بالتوسل بالصالحين) وقول أحمد: [يتوسل بالنبى ﷺ خاصة] مع قولهم: (إنه لا يستغاث بمخلوق) .

فقال : فالفرق ظاهر جدا وليس الكلام مما نحن فيه ، فكون بعض يرخص بالتوسل بالصالحين وبعضهم يخصه بالنبى ﷺ ، وأكثر العلماء ينهى عن ذلك ويكرهه ، فهذه المسألة من مسائل الفقه وإن كان الصواب عندنا قول الجمهور : إنه مكروه ، فلا ننكر على من فعله ولا إنكار فى مسائل الاجتهاد ، لكن إنكارنا على من دعا لمخلوق أعظم مما يدعو الله تعالى ويقصد القبر يتضرع عند ضريح الشيخ عبدالقادر أو غيره يطلب فيه تفريج الكربات وإغاثة اللهفات وإعطاء الرغبات ، فأين هذا ممن يدعو الله مخلصا له الدين لا يدعو مع الله أحدا ، ولكن يقول فى دعائه : أسألك بنبيك أو بالمرسلين أو بعبادك الصالحين ، أو يقصد قبر معروف أو غيره يدعو عنده لكن لا يدعو إلا الله مخلصا له الدين ، فأين هذا مما نحن فيه . (انتهى من فتاوى الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب فى مجموع المؤلفات القسم الثالث ص ٦٨ التى نشرتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فى أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب) .

* * *

القبر النبوى والتبرك بالتمسح به أو الشباك وتقبيله

اعلم أنه ينبغى للزائر أن لا يقبل القبر الشريف ولا يمسحه بيديه ولا يلصق بطنه وظهره بجداره أو بالحاجز المستور بالكسوة أو الشباك فإن كل ذلك مكروه لما فيه من استعمال خلاف الأدب فى حضرته ﷺ ، وقصد التبرك لا ينفى الكراهة لأنه جهل بما يليق من الأدب ولا اغترار بما يفعله أكثر العوام فإن الصواب الذى قاله العلماء وأطبقوا على خلافه كما صرح به النووى فى إيضاحه .

وأطال ابن حجر فى المنح والجوهر فى ترجيحه ، قال فى الإحياء : مسّ المشاهد وتقبيلها عادة اليهود والنصارى اهـ .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله ما معناه : اتبع طرق الهدى ولا يضرك قلة السالكين ، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين ، ومن خطر بباله أن المسح باليد ونحوه أبلغ فى البركة فهو من جهالته وغفلته ، لأن البركة إنما هى فيما وافق الشرع وكيف ينبغى الفضل فى مخالفة الصواب . اهـ .

(من المجموع ج ٨ ص ٢٧٥).

رأى الإمام أحمد بن حنبل

وقد جاءت روايات عن الإمام أحمد فى هذا الموضوع بعضها يفيد جواز ذلك وبعضها يفيد التوقف فى الحكم ، وبعضها يفيد التفريق بين المنبر النبوى وبين القبر ، وذلك بجواز الأول والتوقف فى الثانى أو الاباحة ومهما كان ذلك الاختلاف فإنه لا يصل الحال بالحكم على فاعله بالكفر أو الضلال أو الخروج عن الملة أو الابتداع فى الدين غاية ما فى الأمر أنه فعل ما هو مختلف فيه ، أو ما هو مكروه ، والمقصود هو ألا يتخذ ذلك عادة حتى يغتر به العوام ويظنونه من مستلزمات الزيارة وآدابها ، وإليك كلام الإمام أحمد :

قال فى خلاصة الوفا ما نصه : وفى كتاب العلل والسؤالات لعبد الله ابن أحمد بن حنبل قال : سألت أبى عن الرجل يمس قبر النبى ﷺ يتبرك بمسه وتقبيله ويفعل بالمنبر مثل ذلك رجاء ثواب الله تعالى ، فقال : لا بأس به .

قال أبو بكر الأثرم : قلت لأبى عبدالله ـ يعنى أحمد بن حنبل ـ قبر النبى ﷺ يمس ويتمسح به ؟ فقال : ماأعرف هذا ، قلت له : فالمنبر ؟ فقال :

أما المنبر فنعم ، فقد جاء فيه ، قال أبوعبدالله : شيء يروونه عن ابن فديك عن أبي ذئب عن ابن عمر [أنه مسح على المنبر] قال : ويروونه عن سعيد بن المسيب فى الرمانة ، قلت : ويروون عن يحي بن سعيد : أنه حين أراد الخروج إلى العراق جاء إلى المنبر فمسحه ودعا فرأيته استحسنه ، ثم قال : لعله عند الضرورة والشيء ، قيل لأبي عبدالله : إنهم يلصقون بطونهم بجدار القبر ، وقلت له : رأيت أهل العلم من أهل المدينة لا يمسونه ويقومون ناحية فيسلمون ، فقال أبو عبدالله : نعم وهكذا كان ابن عمر يفعل ، ثم قال أبو عبدالله : بأبي هو وأمي ﷺ .

قال الشيخ ابن تيمية :

فقد روى أحمد وغيره فى التمسح بالمنبر والرمانة التى هى موضع مقعد النبى ﷺ ويده ، ولم يرخصوا فى التمسح بقبره ، وقد حكى بعض أصحابنا رواية فى مسح قبره لأن أحمد شيع بعض الموتى فوضع يده على قبره يدعو له والفرق بين الموضعين ظاهر . اهـ اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٣٦٧) ، ونقله ابن مفلح عن الإمام أحمد فى الفروع (ج ٣ /ص ٥٢٤) .

* * *

القبر النبوى محفوظ من الشرك والوثنية

وقد حفظ الله تعالى هذا القبر المشرف بالحبيب الأعظم والنبى الأكرم ﷺ فلا يقع عنده شرك ولا شيء من أنواع العبادة التى لا يجوز صرفها إلا لله ، ولا يقع فى ذهن أحد أنه وثن يعبد أو قبلة يتوجه إليها بالعبادة وذلك ببركة دعوة رسول الله ﷺ حيث دعا بذلك فاستجاب الله دعاءه وحقق مطلوبه ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وفى موطأ مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال :

«اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ..

وقد استجاب الله دعوته فلم يتخذ ـ ولله الحمد ـ وثنا كما اتخذ قبر غيره بل ولا يتمكن أحد من الدخول إلى حجرته بعد أن بنيت الحجرة ، وقبل ذلك ما كانوا يمكنون أحدا من أن يدخل إليه ليدعو عنده ، ولا يصلى عنده ولا غير ذلك مما يفعل عند قبر غيره ، لكن من الجهال من يصلى إلى حجرته أو يرفع صوته أو

يتكلم بكلام منهى عنه ، وهذا إنما يفعل خارجا عن حجرته لا عند قبره وإلا فهو ولله الحمد استجاب الله دعوته فلم يمكن أحد قط أن يدخل إلى قبره فيصلى عنده أو يدعو أو يشرك به كما فعل بغيره اتخذ قبره وثنا ، فإنه فى حياة عائشة رضى الله عنها ما كان أحد يدخل إلا لأجلها ، ولم تكن تمكن أحدا أن يفعل عند قبره شيئا مما نهى عنه ، وبعدها كانت مغلقة إلى أن أدخلت فى المسجد فسد بابها وبنى عليها حائط آخر ، كل ذلك صيانة له أن يتخذ بيته عيدا وقبره وثنا ، وإلا فمعلوم أن أهل المدينة كلهم مسلمون ولا يأتى إلى ما هناك إلا مسلم وكلهم معظمون للرسول صلى الله عليه وسلم وقبور آحاد أمته فى البلاد معظمة ، فما فعلوا ذلك ليستهان بالقبر المكرم ، بل فعلوه لئلا يتخذ وثنا يعبد ، ولا يتخذ بيته عيدا ، ولئلا يفعل به كما فعل أهل الكتاب بقبور أنبيائهم ، والقبر المكرم فى الحجرة إنما عليه بطحاء وهو الرمل الغليظ ليس عليه حجارة ولا خشب ، ولا هو مطين كما فعل بقبور غيره وهو ﷺ إنما نهى عن ذلك سدا للذريعة ، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها لئلا يفضى ذلك إلى الشرك ، ودعا الله عز وجل أن لا يتخذ قبره وثنا يعبد فاستجاب الله دعاءه ﷺ ، فلم يكن مثل الذين اتخذت قبورهم مساجد فإن أحدا لا يدخل عند قبره البتة ، فإن من كان قبله من الأنبياء إذا ابتدع أممهم بدعة بعث الله نبيا ينهى عنها وهو ﷺ خاتم الأنبياء لا نبى بعده فعصم الله أمته أن تجتمع على ضلالة وعصم قبره المكرم أن يتخذ وثنا فإن ذلك والعياذ بالله لو فعل لم يكن بعده نبى ينهى عن ذلك وكان الذين يفعلون ذلك قد غلبوا الأمة وهو ﷺ قد أخبر أنه لا تزال طائفة من أمته ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم إلى يوم القيامة ، فلم يكن لأهل البدع سبيل أن يفعلوا بقبره المكرم كما فعل بقبور غيره ﷺ . اهـ .
(من الجواب الباهر فى زوار المقابر ، ص ١٣ للشيخ ابن تيمية) .

* * *

التردد على الآثار النبوية والمشاهد الدينية والتبرك بزيارتها

كتب فى هذا الموضوع الشيخ ابن تيمية كلاما نفيسا جدا ، ونحن ننقل منه هذه الفوائد المهمة .

فأما مقامات الأنبياء والصالحين وهى الأمكنة التى قاموا عليها أو أقاموا أو عبدوا الله سبحانه وتعالى فيها لكنهم لم يتخذوها مساجد .

فالذى بلغنى فى ذلك قولان عن العلماء المشهورين :

أحدهما : النهى عن ذلك وكراهته ، وأنه لا يستحب قصد بقعة للعبادة إلا أن يكون قصدها للعبادة مما جاء به الشرع مثل أن يكون النبى ﷺ قصدها للعبادة كما قصد الصلاة فى مقام إبراهيم وكما كان يتحرى الصلاة عند الأسطوانة .

وكما يقصد المساجد للصلاة ويقصد الصف الأول ونحو ذلك .

والقول الثانى : أنه لا بأس باليسير من ذلك كما نقل عن ابن عمر [أنه كان يتحرى قصد التواضع التي سلكها النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان النبي ﷺ قد سلكها اتفاقاً لا قصداً] .

قال سندى الخواتيمى : سألنا أبا عبدالله عن الرجل يأتى هذه المشاهد يذهب إليها ترى ذلك ؟ قال : أما على حديث ابن أم مكتوم أنه سأل النبى ﷺ أن يصلى فى بيته حتى يتخذ ذلك مصلى ، وعلى ما كان يفعله ابن عمر يتتبع مواضع النبى ﷺ وأثره فليس بذلك بأس أن يأتى الرجل المشاهد إلا أن الناس قد أفرطوا فى هذا وأكثروا فيه .

وكذلك نقل عنه أحمد بن القاسم : أنه سئل عن الرجل يأتى هذه المشاهد التى بالمدينة المنورة وغيرها يذهب إليها ؟ فقال : أما على حديث ابن أم مكتوم (أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم : أن يأتيه فيصلى فى بيته حتى يتخذه مسجدا)،

أو على ما كان يفعل ابن عمر : كان يتتبع مواضع سير النبى ﷺ حتى أنه رؤى يصب فى موضع ماء ، فسئل عن ذلك ، فقال : (كان النبى ﷺ يصب هاهنا ماء) . قال : أما على هذا فلا بأس . قال : ورخص فيه ثم قال : ولكن قد أفرط الناس جدا وأكثروا فى هذا المعنى ، فذكر قبر الحسين وما يفعل الناس عنده .

رواهما الخلال فى كتاب الأدب .

قال الشيخ ابن تيمية :

فقد فصل أبو عبدالله فى المشاهد وهى الأمكنة التى فيها آثار الأنبياء والصالحين من غير أن تكون مساجد لهم كمواضع بالمدينة بين القليل الذى لا يتخذونه عيدا أو الكثير الذى يتخذونه عيدا كما تقدم .

وهذا التفصيل جمع فيه بين الآثار وأقوال الصحابة ، فإنه قد روى البخارى فى صحيحه عن موسى بن عقبة قال : رأيت سالم بن عبدالله يتحرى أماكن من الطريق ويصلى فيها ، ويحدث أن أباه كان يصلى فيها وأنه رأى النبى ﷺ يصلى فى تلك الأمكنة ، قال موسى : وحدثنى نافع أن ابن عمر كان يصلى فى تلك الأمكنة] .

فهذا ما رخص فيه أحمد رضى الله عنه .

وأما ما كرهه فروى سعيد بن منصور فى سننه : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن عمر رضى الله عنه قال : (خرجنا معه فى حجة حجها فقرأ بنا فى الفجر بـ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ ، و ﴿لإيلاف قريش﴾ فى الثانية ، فلما رجع من حجته رأى الناس ابتدروا المسجد فقال : ماهذا ؟ قالوا مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ فقال :

«هكذا هلك أهل الكتاب قبلكم : اتخذوا آثار أنبيائهم بيعا من عرضت له منكم الصلاة فيه فليصل ومن لم تعرض له الصلاة فليمض» ..

فقد كره عمر رضى الله عنه اتخاذ مصلى النبى ﷺ عيدا ، وبين أن أهل الكتاب إنما هلكوا بمثل هذا .

قال الشيخ ابن تيمية : قد اختلف العلماء رضى الله عنهم فى إتيان المشاهد .

فقال محمد بن وضاح : كان مالك وغيره من علماء المدينة يكرهون إتيان تلك المساجد وتلك الآثار التى بالمدينة ما عدا قبا وأحدا ، ودخل سفيان الثورى بيت المقدس وصلى فيه ، ولم يتتبع تلك الآثار ولا الصلاة فيها .

فهؤلاء كرهوها مطلقا لحديث عمر رضى الله عنه هذا ولأن ذلك يشبه الصلاة عند المقابر إذ هو ذريعة إلى اتخاذها أعيادا وإلى التشبه بأهل الكتاب ، ولأن ما فعله ابن عمر لم يوافقه عليه أحد من الصحابة ، فلم ينقل عن الخلفاء الراشدين ولا عن غيرهم من المهاجرين والأنصار أن أحدا منهم كان يتحرى قصد الأمكنة التى نزلها النبى ﷺ [٢١] .

ثم قال : واستحب آخرون من العلماء المتأخرين إتيانها وذكر طائفة من المصنفين من أصحابنا وغيرهم فى المناسك استحباب زيارة هذه المشاهد وعدوا منها مواضع وسموها .

وأما أحمد : فرخص منها فيما جاء به الأثر من ذلك إلا إذا اتخذت عيدا مثل أن تنتاب لذلك ويجتمع عندها فى وقت معلوم كما يرخص فى صلاة النساء فى المساجد جماعات وإن كانت بيوتهن خيرا لهن إلا إذا تبرجن ، وجمع بذلك بين الآثار واحتج بحديث ابن أم مكتوم . اهـ اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم (ص ٣٨٧) .

والحاصل الظاهر من كلام الإمام أحمد أنه يجيز التردد على الآثار والمشاهد والأماكن المنسوبة إلى الأنبياء والصالحين ويرى أن تتبع ذلك والاعتناء به له أصل فى السنة النبوية وهو ليس ببدعة ولا ضلالة فضلا عن أن يكون شركا أو كفرا ، لكنه انتقد الإفراط فى ذلك والاشتغال به بصورة زائدة .

هذه خلاصة رأيه رضى الله تعالى عنه .

أما الشيخ ابن تيمية فقد فهم من كلام أحمد التفصيل فى هذا الأمر بين القليل والكثير ، وفهم أن الكثير من ذلك هو المكروه عند أحمد وحكم عليه

---

(٢١) أنظر تعليق رقم ٢١ فى الملحق آخر الكتاب .

بأنه مكروه فقط ولم يزد على القول بالكراهة شيئا وقد بين ابن تيمية القدر الكثير الذى يصير به هذا التردد والتتبع للآثار النبوية مكروها ، وهو أن تتخذ تلك الأماكن والآثار عيدا يجتمعون عليه عندها ويحتفلون بها فى أوقات مخصوصة .

ويفهم من كلام الشيخ ابن تيمية أيضا أن الآثار والمشاهد التى ثبت أن الأنبياء إتخذوها مسجدا أو صلوا فيها فإنها خارجة عن هذا التفصيل ، وينبني عليه أن الأماكن والآثار التى ثبت أن الأنبياء صلوا فيها لها ميزة على غيرها وأنها تقصد للعبادة والصلاة ، وهذا صريح كلامه حين قال فى أول المبحث : [لكنهم لم يتخذوها مساجد] ، وحين قال : (فقد فصل أبو عبدالله فى المشاهد وهى الأمكنة التى فيها آثار الأنبياء والصالحين من غير أن تكون مساجد لهم كمواضع بالمدينة بين القليل الذى لا يتخذونه عيدا والكثير الذى يتخذونه عيدا كما تقدم) . اهـ (من اقتضاء الصراط ص ٣٨٥) .

معنى العيد المنهى عنه فى الحديث :

وقد حدد الشيخ ابن تيمية معنى العيد المنهى عنه فى الحديث بقوله ﷺ:

«لا تتخذوا قبرى عيدا» ..

فقال :

وفى الجملة هذا الذى يفعل عند هذه القبور هو بعينه الذى نهى عنه رسول الله ﷺ بقوله :

«لا تتخذوا قبرى عيدا» ..

فإن اعتياد قصد المكان المعين فى وقت معين عائدا بعود السنة أو الشهر أو الأسبوع هو بعينه معنى العيد ثم ينهى عن دق ذلك وجله وهذا هو الذى تقدم عن الإمام أحمد إنكاره قال : وقد أفرط الناس فى هذا جدا وأكثروا ، وذكر ما يفعل عند قبر الحسين .

وقال فى موضع آخر : فأما إتخاذ قبورهم أعيادا فهو مما حرمه الله ورسوله واعتياد قصد هذه القبور فى وقت معين والاجتماع العام عندها فى وقت معين

هو إتخاذها عيدا كما تقدم ولا أعلم بين المسلمين من أهل العلم فى ذلك خلافا ولا يغتر بكثرة العادات الفاسدة ، فإن هذا من التشبه بأهل الكتابين الذى أخبرنا النبى ﷺ أنه كائن فى هذه الأمة . اهـ اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٣٧٧) .

عقيـــدة المؤلف :

وهذا الذى ذكره الشيخ ابن تيمية هو عين ما نعتقده فى هذا الموضوع بفضل الله سبحانه وتعالى وهو ما ندعو إليه ونحث الناس عليه فى كل مجال وفى كل مناسبة إننا ننهاهم أن يتخذوا قبر النبى ﷺ أو الآثار والمشاهد عيدا وننهاهم أن يخصوها بشىء من أنواع العبادات التى لا يجوز صرفها إلا لله سبحانه وتعالى ، وننهاهم أن يخصصوا لها يوما يجتمعون فيه ويحتفلون به ، هذا ما نعتقده وندين الله به ، لا من اليوم ولا من الأمس بل خلف عن سلف وأبناء عن آباء ، بفضل الله سبحانه وتعالى .

فالواجب علينا أن نلاحظ بعين الاعتبار هذه الأقوال والتحليلات العلمية الدقيقة التى تدل على حسن الفهم فى تذوق العلم وأن لا نبادر إلى تكفير المسلمين أو الحكم عليهم بالضلال والبدعة لمجرد تتبعهم للآثار النبوية واهتمامهم بالمقامات والمشاهد والأماكن المنسوبة إلى الأنبياء والصالحين ، وأن نحسن الظن بهم وأن نعلم أن المقصود الأصلى هو الله سبحانه وتعالى ، وهذه كلها أسباب ووسائل تزيد فى النفس الإيمان والاعتبار والادكار والارتباط بأصحابها وتاريخهم ، وهم القدوة الحسنة للبشر مع ما فى ذلك من التعرض للنفحات والبركات المتنزلة فى أماكن الخير ومواطن الهدى لأن الأماكن التى كانت معمورة بأهل الخير والصلاح لا تزال هى محل الرضا والرضوان ، والأماكن التى كانت معمورة بأهل الشر والفساد هى محل السخط والغضب ، ولذلك أمر ﷺ أصحابه أن لا يدخلوا ديار ثمود إلا وهم باكون ، وأن لا يشربوا من مائها ، بل أمرهم أن يهريقوا ما أخذوه ، وأن لا يأكلوا ما طبخوه بها ، وكذلك أمرهم بالاسراع فى المشى إذا دخلوا وادى محسر المعروف بوادي النار .

وقد فصلنا هذا الموضوع بعينه فى مبحث خاص : بالتبرك بالآثار النبوية .

الاعتناء بالآثار والمشاهد

المحافظة على الآثار النبوية أصل عظيم وتراث كريم وتاريخ ، إنه تاريخ الأمة الذى تفخر به والذى يظهر به شرفها وشرف رجالها وأئمتها الذين بنوا مجدها وأقاموا عزها وصنعوا منها أمة قائدة رائدة فى كل مجال ، ولذلك فإن إهمال هذه الآثار إهدار لشواهد الحضارة الإسلامية الواقعية ومسخ لأصول طبيعية باقية من تراثنا الإسلامى وجناية على أعز ما تملكه الأمة فى هذا المجال ، إنه هو وصمة فى الجبين وقذاة فى العين يعكر صفو الرؤية ويشوه الصورة ويفوت علينا خيرا عظيما لا يعوض ولا يدرك لأنه ستتغير معالمه وتنطمس رسومه ثم لا يبقى منه شيء ثم لا يبقى من يعرف منه شيئا .

فإن قيل إن بعض الناس يتخذها عيدا ويشرك بالله عندها بعبادتها دون الله أو بالطواف حولها وربط الحبال وإلقاء الأوراق أو الذبح لها .

فنقول : إن ذلك كله لا نرضاه ولا نوافق عليه بل وننهى عنه ونحذر الناس منه وهو من الجهل الذى يجب محاربته لأن هؤلاء يؤمنون بالله ويقرون له بالتوحيد ويشهدون أنه لا إله إلا هو ولكنهم يخطئون العمل ويجهلون الصواب ، فالواجب تعليمهم وإرشادهم ولكن ذلك كله لا يدعو إلى إهمالها أو إزالتها ومحوها من الوجود والاعتذار بتلك الحجج اعتذار بارد وتعليل عليل ليس بمقبول عند العلماء والعقلاء إذ يمكن إزالة تلك العوارض إذا وجدت بالمنع والمراقبة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والخلق الحسن مع بقاء آثارنا والمحافظة عليها والاعتناء بها حفظا لأصالة الأمة ووفاء للتاريخ وأداء للأمانة التى فى أعناقنا والتى هى جزء أصيل من تاريخنا المجيد وتاريخ نبينا محمد ﷺ ، والمفكرون اليوم يحافظون على آثار بائدة لأمم ملعونة مسخوطة معذبة ممن سبقنا كقوم ثمود وعاد ، فهل يصح أن نحافظ على تلك الآثار ونعتنى بها ونجاهد فى سبيل بقائها ونضيع آثار أشرف خلق الله الذى تشرفت به البلاد والعباد وأعز الله به الأمة ورفعها وجعل لها المكانة العالية والرتبة السامية التى ما نالها نائل ولا وصل إليها واصل إلا بسبب الانتماء إلى الحظ السعيد والمجد التليد محمد بن عبدالله ﷺ.

اعتناء القرآن بآثار الأنبياء السابقين :

ذكر الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز قصة تابوت بنى إسرائيل الذى جعله علامة صحة ملك طالوت عليهم فقال :

﴿وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ .

هذا التابوت شانه عظيم ومقامه كريم وكان عندهم يقدمونه بين أيديهم فى حروبهم فيحصل لهم النصر ببركة التوسل إلى الله تعالى به وبما فيه ، فلا يقاتلون أحدا من أعدائهم إلا ويكون معهم هذا التابوت ، وقد أخبر الله تعالى فى الآية عن محتوياته بأنه فيه سكينة إلهية وآثار نبوية وهى التى قال عنها : ﴿وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة﴾ ، وهذه البقية من تركة آل هارون هى عصا موسى وعصا هارون وثيابه والنعلان ولوحان من التوراة . كذا فى تفسير ابن كثير (ج ١ ص ٣١٣) ، وفيه أيضا طست من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء . انتهى من البداية والنهاية (ج ٢ ص ٨) .

وبسبب هذه الآثار العظيمة المنسوبة إلى أولئك المصطفين الأخيار من عباد الله عظم الله قدر هذا التابوت ورفع شأنه وحفظه ورعاه برعايته الخاصة لما غلبوا بسبب معاصيهم ومخالفتهم إذ لم تتحقق أهليتهم للاحتفاظ به فعاقبهم الله تعالى بأخذه وسلبه منهم ثم حفظه الله تعالى ثم رده إليهم ليكون علامة على صحة ملك طالوت عليهم ، وقد رده إليهم بالتعزيز والتكريم والتقدير إذ جاءت به الملائكة تحمله إليهم .

فأى عناية أعظم من هذه العناية بالآثار والاهتمام بها والمحافظة عليها وتنبيه العقول والأفهام إلى أهمية ذلك الأمر وجلالته وقيمته التاريخية والدينية والحضارية .

* * *

محافظة الخلفاء الراشدين على خاتم النبى ﷺ

روى الإمام البخارى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : اتخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاتما من ورق وكان فى يده ثم كان بعد فى يد أبى بكر ثم كان بعد فى يد عمر ثم كان بعد فى يد عثمان حتى وقع بعد فى بئر أريس نقشه محمد رسول الله .

رواه البخارى فى الصحيح فى كتاب اللباس باب خاتم الفضة ، قال الحافظ ابن حجر : جاء فى رواية النسائى : أنه التمس فلم يوجد ، وجاء فى رواية ابن سعد:أنه كان فى يد عثمان ست سنين . اهـ (فتح البارى ج ١٠ ص ٣١٣).

قال العينى : وبئر أريس حديقة بقرب مسجد قباء . اهـ عمدة القارى (ج ٢٢ ص ٣١) . قلت : وهذه البئر صارت معروفة اليوم ببئر الخاتم وهو خاتم رسول الله ﷺ الذى سقط فيها أيام خلافة عثمان وقد اجتهد ثلاثة أيام فى استخراجه بكل ما وجد سبيلا فلم يلقه . (أنظر المغانم المطابة فى معالم طابة للفيروز آبادى ص ٢٦) .

* * *

محافظة الخلفاء الراشدين على حربة كانت عند النبى ﷺ

روى الإمام البخارى بسنده إلى الزبير رضى الله تعالى عنه قال : لقيت يوم بدر عبيدة بن سعيد بن العاص وهو مدجج لا يرى منه إلا عيناه وهو يكنى أبا ذات الكرش فقال : أنا أبو ذات الكرش فحملت عليه بالعنزة فطعنته فى عينه فمات ، قال هشام : فأخبرت أن الزبير قال : لقد وضعت رجلى عليه ثم تمطأت فكان الجهد أن نزعتها وقد انثنى طرفاها ، قال عروة : فسأله إياها رسول الله ﷺ فأعطاه ، فلما قبض رسول الله ﷺ أخذها ثم طلبها أبوبكر فأعطاه إياها ، فلما قبض أبو بكر سأله إياها عمر ، فأعطاه إياها ، فلما قبض عمر أخذها ، ثم طلبها عثمان منه فأعطاه إياها ، فلما قتل عثمان وقعت عند آل علىّ فطلبها عبدالله

ابن الزبير ، فكانت عنده حتى قتل .
رواه البخارى فى كتاب المغازى باب شهود الملائكة بدرا ، وقوله فحملت عليه بالعنزة . العنزة بفتح النون هى كالحربة ، وقال بعضهم : هى شبه العكاز .

وحاصل القصة هو أن الزبير قتل عبيدة بن سعيد بن العاص يوم بدر طعنه فى عينه بالعنزة فمات ، ثم طلب النبى ﷺ منه تلك العنزة عارية فأعطاه ، فلما قبض ﷺ أخذها الزبير ثم طلبها أبوبكر من الزبير عارية فأعطاه وبقيت عنده إلى أن مات ثم رجعت إلى الزبير صاحبها الأول ثم طلبها عمر من الزبير فأعطاه وبقيت عنده مدة حياته ثم رجعت إلى الزبير صاحبها الأول ثم طلبها عثمان منه فأعطاه إياها فلما قتل عثمان وقعت عند علىّ فطلبها الزبير صاحبها الأول فكانت عنده حتى قتل . أنظر (الفتح جـ ٧ ص ٣١٤ ، وعمدة القارى جـ ١٧ ص ١٠٧) .

ونحن نتساءل لماذا هذا الحرص العظيم والإهتمام بهذه الحربة والحراب كثيرة ، ولعل هناك ما هو أحسن منها وأجود وممن هذا الحرص ؟ إنه من الخلفاء الأربعة الراشدين المهتدين أئمة الدين وأركان التوحيد وأمناء الدين .

* * *

محافظة عمر بن الخطاب على ميزاب العباس لأنه وضعه ﷺ

عن عبدالله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : كان للعباس ميزاب على طريق عمر ـ رضى الله عنه ـ فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة وقد كان ذبح للعباس فرخان ، فلما وافى الميزاب صب فيه من دم الفرخين فأصاب عمر فأمر عمر بقلعه ثم رجع فطرح ثيابه ولبس غيرها ، ثم جاء فصلى بالناس فأتاه العباس فقال : والله إنه الموضع الذى وضعه رسول الله ﷺ ، فقال عمر للعباس : عزمت عليك لما صعدت علي ظهرى حتى تضعه فى الموضع الذى وضعه رسول الله ﷺ ففعل ذلك العباس . كذا فى الكنز (جـ ٧ ص ٦٦) .

وقال الإمام أبو محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة في كتابه المغني : **فصل** : ولا يجوز إخراج الميازيب إلى الطريق الأعظم ولا يجوز إخراجها إلى درب نافذ إلا بإذن أهله .

وقال أبوحنيفة ومالك والشافعي : يجوز إخراجها إلى الطريق لأن عمر - رضي الله عنه - اجتاز على دار العباس وقد نصب ميزاباً إلى الطريق فقلعه ، فقال العباس : تقلعه وقد نصبه رسول الله ﷺ بيده ؟ فقال : والله لا نصبته إلا على ظهريب وانحنى حتى صعد على ظهره فنصبه . اهـ من المغنى لابن قدامة (٤ /٥٥٤) .

ابن عمر لم يكن وحده مع الآثار

اشتهر ابن عمر رضي الله عنهما بتتبعه للآثار واعتنائه بها ومحافظته عليها ، قال الشيخ ابن تيمية : سئل الإمام أحمد بن حنبل عن الرجل يأتى هذه المشاهد ، فأجاب وذكر في جوابه : أن ابن عمر كان يتتبع مواضع سير النبي ﷺ حتى أنه رؤى يصب في موضع ماء ، فسئل عن ذلك ، فقال : كان النبي ﷺ يصب هاهنا ماء .

وروى البخاري في صحيحه عن موسى بن عقبة قال : رأيت سالم بن عبدالله يتحرى أماكن من الطريق ويصلى فيها ويحدث أن أباه كان يصلى فيها وأنه رأى النبي ﷺ يصلى في تلك الأمكنة ، قال موسى : وحدثنى نافع أن ابن عمر كان يصلى في تلك الأمكنة اهـ . اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٣٨٥) .

ولكن لم ينفرد ابن عمر بهذا الأمر بل شاركه كثير من الصحابة رضي الله عنهم في التتبع للآثار والمحافظة عليها والاهتمام بها ، وقد ذكرنا مايؤيد هذا من قبل من فعل الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين الذين جعل النبي ﷺ فعلهم سنة متبعة مستمدة من سنته وهديه وأمر بالتمسك بها والرجوع إليها ، ومعلوم أن سنتهم هي سنته لأنهم لا كلام ولا اجتهاد ولا نظر أمام كلامه الذي صح وثبت عنه ﷺ .

وذكرنا في مبحث التبرك بالآثار جملة صالحة من النصوص التي لها اتصال وثيق بهذا المبحث وبها ينجلي ويتضح كيف كان الصحابة رضي الله عنهم يتبركون بآثاره وفيهم ابن عمر وغيره ، والحق أن هذا البحث وذاك متصلان ونابعان من أصل واحد لأن التبرك بالآثار هو فرع المحافظة عليها والاعتناء بها إلا أن الثانية ألصق بالتاريخ والحضارة الاجتماعية والأولى أنسب للإيمان والمحبة والتعلق .

ابن عباس والآثار القديمة

لما أراد عبدالله بن الزبير هدم الكعبة جمع الصحابة فاستشارهم في ذلك فاقترح عليه ابن عباس أن لا يهدمها كلها وأن يصلح المواضع التي تحتاج إلى إصلاح فقط ليبقى الصالح على ماهو عليه محافظة على الحجارة القديمة التي كانت في العهد الأول عهد الإسلام عهد البعثة عهد النبي ﷺ .

عن عطاء قال : لما احترق البيت (زمن يزيد بن معاوية) حين غزاها أهل الشام فكان من أمره ماكان . تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد أن يجرّئهم (أو يَحْربهم) على أهل الشام . فلما صدر الناس قال : ياأيها الناس ! أشيروا عليَّ في الكعبة أنقضها ثم أبني بناءها أو أصلح ما وهي منها ؟ قال ابن عباس فإني قد فُرق لي رأى فيها أرى أن تصلح ما وهي منها وتدع بيتاً أسلم الناس عليه وأحجاراً أسلم الناس عليها وبُعث عليها النبي ﷺ .

(صحيح مسلم كتاب الحج باب نقض الكعبة وبنائها شرح النووي ص ٩٢ /٩٤ ج٩).

* * *

غيرة عمر على الآثار النبوية

ولقد كان سيدنا عمر رضى الله عنه شديد الغيرة على الآثار النبوية عظيم العناية بها والحماية لها ، ولذلك لما رأى الناس مجتمعين على شجرة زعموا أنها شجرة الرضوان التى حصلت عندها بيعة الرضوان وذكرها الله تعالى فى كتابه بقوله ﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ ، إذ كان رضى الله عنه يعرف حق المعرفة أن الشجرة غير معروفة ولا أحد يعلم مكانها فضلا عن عينها وأن أصحابها الذين حضروها وشهدوها وبايعوا تحتها هم بأنفسهم لا يعرفونها فكيف بغيرهم بل قد صرحوا بذلك كما جاء فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما إنه جاء فى العام التالى لعام بيعة الرضوان ، قال : فبحثنا عن الشجرة فلم يقع عليها رجلان .

قال المسيب والد سعيد : لقد رأيت الشجرة ثم أنسيتها بعد فلم أعرفها ، وقول طارق بن عبدالرحمن : طلعت حاجا فمررت بقوم يصلون فقلت : ماهذا المسجد ؟ قالوا : هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته ، فقال : حدثنى أبى أنه كان فيمن بايع تحت الشجرة قال : فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها وعلمتموها أنتم فأنتم أعلم . وفى رواية أنه قال : فعميت علينا . أنظر صحيح البخارى كتاب المغازى ، باب غزوة الحديبية ، وصحيح مسلم كتاب الإمارة باب استحباب متابعة الإمام .

أى لم يتفق رأى رجلين على شجرة واحدة بالتعيين ، فإذا كان هذا فى خلال سنة واحدة فى عهد واحد ومع توافر وجود أصحاب الرضوان الذين حضروا عندها وبايعوا تحتها فما بالك بشجرة ظهرت فى زمن عمر بعد سنوات عديدة .

اختلف العهد ومات أكثر من حضر الموقف ، واختلف الناس فى تعيين الشجرة المباركة التى تشرفت بالبيعة المحمدية ، وحصل عندها أعظم موقف

من مواقف التضحية والجهاد اهتزت له السموات والأرض ، وشهدته الملائكة الكرام وسجله القرآن بقوله : ﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا﴾ الآية .

ثم كان عند هذه الشجرة المباركة الميمونة إعلان منقبة من أعظم مناقب وخصائص النبي الأعظم والرسول الأكرم ﷺ سجّلها القرآن بقوله : ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾ الآية .

فعمر رضى الله عنه لم يقطعها ليمنع التبرك بالآثار أو لأنه لا يرى ذلك ولم يقع ذلك المعنى فى قلبه أصلا ولم يخطر على باله أبدا بدليل أنه رضى الله عنه ثبت عنه التبرك وطلب التبرك بالآثار ونحوها كطلبه من أبى بكر العنزة التى كانت عند رسول الله ﷺ ومحافظته على خاتم رسول الله ﷺ وغير ذلك ، وكان رسول الله ﷺ قد استعار تلك العنزة من الزبير كما فى البخارى فى باب شهود الملائكة بدرا اهـ من المغازى . وفى نسخة القسطلانى (جـ ٦ ص ٢٦٤) .

* * *

الاهتمام بالنعال النبوية والقيام بدراسة علمية لها

ومن الآثار النبوية التى نالت اهتمام العلماء وعنايتهم النعال النبوية ، بل حظيت بدراسة عميقة ودقيقة عن صفتها ومثالها ولونها ، فكتبوا عنها البحوث المتخصصة وألفوا فيها الرسائل المستقلة .

والمقصود من ذلك كله هو صاحب النعال ، ألا وهو النبى الأعظم والرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم .

وإذا كنا نهتم بآثار العظماء وملابسهم وثيابهم ومتاعهم ونبذل فى حصيلها الغالى والرخيص ونقيم لها المتاحف الخاصة والخبراء المتخصصين فإنه ﷺ نفسى له الفداء أولى وأحق ، فلو بذلت المهج وحر الأموال فى سبيل ذلك لكان رخيصا لأجله صلى الله عليه وسلم .

* * *

اهتمام المملكة بالآثار

ولقد وفق الله حكومتنا السنية إلى العناية بالآثار عناية عظيمة ، حرصا على تراثنا المجيد ، وحفظا لمعالم الحضارة الإسلامية التاريخية ، فجعلت لها دائرة خاصة تعتنى وتهتم بها تسمى (إدارة الآثار) وأصدرت لها نظاما خاصا معتمدا بالمرسوم الملكى رقم م /٢٦ /وتاريخ ٢٣ /١٣٩٦ هـ[١] .

وأنشأت مجلسا خاصا للنظر فيما يتعلق بهذا الموضوع يسمى (المجلس الأعلى للآثار) وصدر قرار مجلس الوزارة رقم ٢٣٥ وتاريخ ٢١ /٢ /١٣٩٨هـ ، بتكوين أعضائه برئاسة وزير المعارف وعضوية مندوبين عن الداخلية والمالية والحج والأوقاف والإعلام والآثار .

وبين النظام أن الهدف من انشاء المجلس الأعلى للآثار هو تجميع أكبر قدر من الخبرات لضمان وصول دائرة الآثار إلى غايتها المرجوة .

المحافظة على الآثار :

جاء فى المادة (٦) من النظام : تتولى دائـرة الآثار بالتعاون مع الأجهزة الأخرى فى الدولة ــ كل فى اختصاصه ــ المحافظة على الآثار والمواقع الأثرية كما تتولى تقرير أثرية الأشياء والمبانى التاريخية والمواقع وما يجب تسجيله من آثار ويعنى تسجيل أثر ما إقرار الدولة بأهميته التاريخية أو الفنية وعملها على صيانته ودراسته وإظهاره بالمظهر اللائق وفقا لأحكام هذا النظام .

* * *

المساجد وأماكن العبادة من أهم الآثار

وجاء فى المادة (٧) : الآثار نوعان : آثار ثابتة وآثار منقولة :

(أ) الآثار الثابتة هى الآثار المتصلة بالأرض مثل الكهوف الطبيعية أو المحفورة التى كانت مخصصة لحاجات الإنسان القديم ، والصخور التى رسم

---

(١) أنظر المذكرة الخاصة بنظام الآثار الصادرة من وزارة المالية والاقتصاد الوطنى سنة ١٣٩٩ .

أو حفر عليها الانسان صورا أو نقوشا أو كتابات وكذلك أطلال المدن والمنشآت المطمورة فى بطون التلال المتراكمة والأبنية التاريخية المنشأة لغايات مختلفة كالمساجد وأماكن العبادة الأخرى والقصور والبيوت فى المشافى والقلاع والحصون والأسوار والملاعب والحمامات والمدافن والقنوات المشيدة والسدود وأطلال تلك المبانى وما تصل بها كالأبواب والنوافذ والأعمدة والشرفات والسلالم والسقوف والأفاريز والتيجان وما شابه ذلك .

(ب) الآثار المنقولة هى التى صنعت لتكون بطبيعتها منفصلة عن الأرض أو عن المبانى التاريخية والتى يمكن تغيير مكانها كالمنحوتات والمسكوكات والمنقوش والمخطوطات والمنسوجات والمصنوعات مهما كانت مادتها والغرض من صنعها ووجوه استعمالها .

الآثار ومشاريع الهدم والتخطيط :

جاء فى النظام : التحذير من تغيير الآثار سواء من الأهالى أم من تخطيط المدن تقول المادة (١١) : يحظر اتلاف الآثار المنقولة أو الثابتة أو تحويرها أو إلحاق الضرر بها أو تشويهها بالكتابة والنقش عليها أو تغيير معالمهما كما يحظر على الأهالى إلصاق الاعلانات أو وضع اللافتات فى المناطق الأثرية وعلى الأبنية التاريخية المسجلة .

وتقول المادة (١٢) : يتعين عند وضع مشروعات تخطيط المدن والقرى أو توسيعها أو تجميلها المحافظة على المناطق والمعالم الأثرية فيها ، ولا يجوز إقرار مشروعات التخطيط التى يوجد فى نطاقها آثار ، إلا بعد أخذ موافقة دائرة الآثار عليها ، وعلى دائرة الآثار تحديد الأماكن التى يوجد فيها معالم أثرية وإحاطة جهاز تخطيط المدن علما بذلك .

ومعلوم أن الآثار التى نص النظام على أن منها المساجد وأماكن العبادة تشمل بالدرجة الأولى الآثار الدينية المنسوبة إلى النبى ﷺ أو أصحابه الكرام بل هذه هى الآثار التى تستحق التكريم والتقديم ، وهى التى يفتخر بها المؤمن ويعتز ، وهى التى تذكر الأبناء بالآباء والخلف بالسلف .

الحجرة النبوية والمسجد الشريف

وقد أراد بعض المفتتين تغيير وضع الحجرة النبوية بإخراج القبر الشريف المكرم من المسجد، فلما سمع بذلك المرحوم الملك خالد بن عبد العزيز غضب غضبا شديدا وثارت فيه الحمية الدينية وتكلم كلاما رادعا لصاحب ذلك الاقتراح الأثيم سمعه من كان حاضرا فى المجلس ولعل بعضهم لا زال على قيد الحياة، رحم الله ذلك الملك الصالح وجعل موقفه هذا ذخيرة له عند الله ويدا بيضاء عند رسوله سيدنا محمد ﷺ ينال به إن شاء الله شفاعته يوم القيامة.

وبارك فى خليفته الملك فهد ونصر به الدين وحفظ به الديار والآثار والعباد والبلاد آمين يا رب العالمين.

* * *

فتوى الشيخ محمد بن عبدالوهاب فى شأن الحجرة النبوية

وقد نسب بعض أهل الفتنة والسوء إلى الشيخ محمد بن عبدالوهاب القول باخراج الحجرة النبوية من المسجد، فأنكر ذلك وتبرأ منه، ومن قائله كما جاء فى رسالته لأهل المجمعة التى يقول فيها: إذا تبين هذا فالمسائل التى شنع بها منها: ما هو من البهتان الظاهر وهي قوله: إنى مبطل كتب المذاهب، وقوله: إنى أقول: إن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيئ، وقوله: إنى أدّعى الإجتهاد، وقوله: إنى خارج عن التقليد، وقوله: إنى أقول: إن اختلاف العلماء نقمة، وقوله: إنى أكفر من توسل بالصالحين، وقوله: إنى أكفر البوصيرى لقوله: ياأكرم الخلق، وقوله: إنى أقول: لو أقدر على هدم حجرة الرسول لهدمتها، ولو أقدر على الكعبة لأخذت ميزابها وجعلت لها ميزابا من خشب، وقوله: إنى أنكر زيارة قبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم، وقوله: إنى أنكر زيارة قبر الوالدين وغيرهم، وإنى أكفر من يحلف بغير الله، فهذه إثنتا عشرة مسألة، جوابى فيها أن أقول: ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾. انتهى من الرسائل الشخصية القسم الخامس ص ٦٣، والدرر السنية ج ١ ص ٥٢.

القبة الخضراء فى رأي الشيخ محمد بن عبدالوهاب

أما القبة الخضراء فقد نسب بعضهم إلى الشيخ محمد بن عبدالوهاب القول بإزالتها وهدمها ، ولكن الشيخ رحمه الله نفى ذلك بكل قوة وتبرأ منه واستنكر هذا القول أشد الإنكار فى عدة مواضع من رسائله الموضع الأول فى رسالته لأهل القصيم التى يقول فيها :

فهذه عقيدة وجيزة حررتها وأنا مشتغل البال لتطلعوا على ما عندى والله على ما نقول وكيل .

ثم لا يخفى عليكم أنه بلغنى أن رسالة سليمان بن سحيم قد وصلت إليكم وأنه قبلها وصدقها بعض المنتمين للعلم فى جهتكم والله يعلم أن الرجل افترى عليَّ أمورا لم أقلها ولم يأت أكثرها على بالى .

«فمنها» قوله : إنى مبطل كتب المذاهب الأربعة ، وإنى أقول : إن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شىء ، وإنى أدعى الإجتهاد ، وإنى خارج عن التقليد ، وإنى أقول : إن اختلاف العلماء نقمة ، وإنى أكفر من توسل بالصالحين ، وإنى أكفر البوصيرى لقوله : ياأكرم الخلق ، وإنى أقول : لو أقدر على هدم قبة رسول الله ﷺ لهدمتها ، ولو أقدر على الكعبة لأخذت ميزابها وجعلت لها ميزابا من خشب ، وإنى أحرم زيارة قبر النبى ﷺ ، وإنى أنكر زيارة قبر الوالدين وغيرهما ، وإنى أكفر من حلف بغير الله ، وإنى أكفر ابن الفارض وابن عربى ، وإنى أحرق دلائل الخيرات وروض الرياحين ، وأسميه روض الشياطين ، جوابى عن هذه المسائل أن أقول : سبحانك هذا بهتان عظيم .

[مجموعة مؤلفات الشيخ القسم الخامس الرسالة الأولى من الرسائل الشخصية ص ١٢ ، وهو فى الدرر السنية الجزء الأول ص ٢٨] .

الموضع الثانى فى رسالته إلى أهل العراق وهى رسالة أرسلها إلى السويدى عالم من أهل العراق وكان قد أرسل له كتابا وسأله عما يقوله الناس فيه ، فأجابه بهذه الرسالة ، وفيها يقول فى رد ما نسب إليه وتكذيبه منها : إشاعة البهتان بما يستحي العاقل أن يحكيه فضلا عن أن يفتريه ، ومنها ما ذكرتم أني أكفر جميع الناس إلا من اتبعنى ، وأزعم أن أنكحتهم غير صحيحة ، ويا عجبا كيف يدخل هذا فى عقل عاقل هل يقول هذا مسلم أو كافر أو عارف أو مجنون ، وكذلك قولهم : إنه يقول : لو أقدر أهدم قبة النبى ﷺ لهدمتها ، وأما [دلائل الخيرات] فله سبب وذلك أنى أشرت على من قبِل نصيحتى من إخوانى أن لا يصير فى قلبه أجلّ من كتاب الله ويظن أن القراءة فيه أجلّ من قراءة القرآن ، وأما إحراقه والنهى عن الصّلاة على النبى ﷺ بأي لفظ كان فهذا بهتان .

[مجموعة مؤلفات الشيخ القسم الخامس فى الرسائل الشخصية ص ٣٧ ، الرسالة الخامسة وهو فى الدّرر السنية الجزء الأول ص ٥٤] .

هذا الموقف من الشيخ محمد بن عبدالوهاب هو عين الحكمة والصّواب ، وهو السّياسة الشرعية التى يجب أن يتحلّى بها العلماء والمرشدون والمشائخ فى أمرهم ونهيهم ووعظهم وإرشادهم .

وقد كان الشيخ رحمه الله حريصا كل الحرص على نفي زعم المفترين وردّ قول المفتنين الذين ألصقوا به هذا القول الشنيع ونسبوا إليه ذلك الرأي الفظيع فتراه أنكرها فى عدة مواطن لخطر المسألة و لما ينبنى عليها من السوء والفتنة والشر الذى يجرّ إلى مصائب وبلايا ، نحن عنها فى غنى فأين هذا ممّن ضاقت العلوم فى عينيه ولم يجد مسألة يكتب عنها أو بحثا يقدمه إلا قضية القبّة الخضراء ، فما أتفه عقلا هذا منتهاه ، وما أسفه علما ذلك مؤداه .

ولنا بحث خاص عن هذا الموضوع نسأل الله أن ييسر إتمامه ونشره بعونه وفضله .

المحافظة على الآثار النبوية من رسالة جلالة الملك فهد بن عبد العزيز

وهنا موقف عظيم يستحق التسجيل للامانة والتاريخ وهو أن جلالة الملك فهد بن عبدالعزيز لما اطلع على المخططات المرسومة لبناء توسعة مسجد قباء ورأى أن معالم المسجد الحالى القديمة ستزول داخل التوسعة الجديدة ، أمر جلالته حفظه الله بإلغاء المخطط الموضوع وإعداد مخطط جديد يبقى على المنبر والمحراب والمعالم القديمة ، بحيث تمتد التوسعة من جانبى المسجد ومن خلفه ليتعرف المسلمون جيلا بعد جيل على الأماكن الأصلية والآثار النبوية الشريفة ، وقال جلالته : من الخير أن نزيد فى مساجد الله ولا نزيل .
وكان لهذه اللفتة السامية الكريمة من جلالته أعمق الأثر فى نفوسنا بما فيها من دلالة الحفاظ على معالم التراث الإسلامى وتخليده .

وقد نشرت الجرائد السعودية بالتفصيل هذه المقابلة والحديث فى الاعداد الصادرة يوم السبت ١٧ صفر ١٤٠٥هـ مثل جريدة «المدينة» و «الندوة» .



مفهوم الاجتماع

جرت عادتنا أن نجتمع لإحياء جملة من المناسبات التاريخية كالمولد النبوى وذكرى الإسراء والمعراج وليلة النصف من شعبان والهجرة النبوية وذكرى نزول القرآن وذكرى غزوة بدر ، وفى اعتبارنا أن هذا الأمر عادى لا صلة له بالدين فلا يوصف بأنه مشروع أو سنة كما أنه ليس معارضا لأصل من أصول الدين لأن الخطر هو فى اعتقاد مشروعية شىء ليس بمشروع ، وعندى أن أمثال هذه الأمور العادية العرفية لا يقال فيها أكثر من أنها محبوبة للشارع أو مبغوضة وأظن أن هذا القدر متفق عليه ، ويدعى البعض أن هذه المناسبات التى يجتمع الناس لإحيائها ينقصها التوقيت المضبوط المتفق عليه ، فيقول : إن الناس تعودوا أن يجتمعوا ليلة السابع والعشرين لإحياء ذكرى الاسراء والمعراج ، وأن يجتمعوا ليلة الاثنى عشر من ربيع الأول لإحياء ذكرى المولد النبوى مع أن العلماء اختلفوا فى تعيين وقت هاتين الحادثتين بالضبط ، وأنا أقول : إن عدم الاتفاق على تعيين الوقت لا يؤثر لأننا لا نعتقد مشروعية تحديد الاجتماع بوقت مخصوص بل الأمر عادى كما أسلفنا والذى يهمنا هو اغتنام فرصة الاجتماع وكسب ذلك لتوجيهه إلى الخير فهذه الليلة قد اجتمع الناس فيها بشكل فظيع وعظيم وسواء أخطأوا التوقيت أم أصابوا ، فإن مجرد اجتماعهم هذا على ذكر الله ومحبة رسول الله كاف فى استجلاب رحمة الله وفضله .

إنى أعتقد تمام الاعتقاد أن اجتماع هؤلاء الناس مادام أنه لله وفى الله فإنه مقبول عند الله ولو أخطأوا فى التوقيت ، وأضرب لذلك مثلا لتقريب القضية للأذهان برجل دعا إلى وليمة فى يوم معين فجاء بعض المدعوين فى غير وقت الدعوة ظنا منهم أنه هو الوقت فهل ترى أن صاحب الوليمة يطردهم ويردهم بجفوة وغلظة ويصد عنهم ويقول لهم : ارجعوا وانصرفوا عنى فليس هذا هو وقت الوليمة الذى دعوتكم إليه وحددته لكم ، أو ترى أنه يقابلهم بالحسنى ويشكرهم على قدومهم ويفتح لهم بابه ويطلب منهم الدخول ثم يطلب منهم الرجوع مرة أخرى فى الوقت المحدد ؟ هذا الذى أنا أتصوره وهو اللائق بفضل الله وكرمه .

ونحن إذا اجتمعنا للإسراء والمعراج أو للمولد النبوى ولأى ذكرى من الذكريات التاريخية لا يهمنا تعيين الوقت بالضبط لأنه إن كان موافقا للصواب فى الواقع ونفس الأمر فالحمد لله ، وإن كان غير ذلك فإن الله لا يردنا ولا يغلق بابه عنا .

فاغتنام فرصة الاجتماع بالدعاء والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى والتعرض لنفحاته وخيراته وبركاته هو أجل من فائدة الذكرى نفسها عندى ، واغتنام اجتماع الناس بتذكيرهم وإرشادهم ونصحهم وتوجيههم إلى الخير هو أولى من صدهم وردهم والإنكار على اجتماعهم بما لا طائل تحته إذ المشاهد أن ذلك لا ينفع ولا يفيد وأن الناس يزيد إقبالهم ويعم تمسكهم كلما زاد الإنكار عليهم أو اشتد حتى كان الناهى لهم عن ذلك آمر لهم بفعله من حيث لا يشعر .

إن العقلاء من أرباب الفكر والدعوة يتمنون بكل قلوبهم أن يجدوا مكانا يجتمع فيه الناس ليبثوا فيهم آراءهم ويكسبوهم إلى صفهم ، ولذلك تراهم يرتادون الحدائق والنوادى والأماكن العامة التى يكثر فيها اجتماع الناس ليصنعوا بهم ما يريدون ، ونحن نرى الأمة تجتمع فى مناسبات متعددة برغبة وهمة وحرص فما هو الواجب علينا نحوهم ؟ .

إن الاشتغال بالإنكار والأخذ والرد فى حكم اجتماعهم وما إلى ذلك هو عبث بل وحمق وجهالة لأننا نضيع كنزا عظيما ونفوت فرصة لا يمكن أن يجود الزمان بها إلا فى مثل هذه المناسبات .

فلنغتنم هذه المجامع الكبرى .

* * *

مفهـــوم المولد النبوى

يخطىء كثير من الناس فى فهمهم لحقيقة المولـد النبـوى الـذى ندعـو إليـه ونشجـع عليـه فيتصورون تصورات فاسدة ينـون عليها مسائـل طويلـة ومنـاقشات عريضة يضيعون بها أوقاتهم وأوقات القراء وهى كلها هباء لأنها مبنيـة على تصورات كما قلنا فاسدة .

وقد كتبنا عن المولد النبوى كثيرا وتحدثنا عنه فى الإذاعة والمجامع العامـة مرارا بما يظهر معه وضوح مفهومنا عن المولد الشريف .

إننـا نقـول وقـد قلنـا من قبـل : إن الاجتماع لأجـل المولـد النبـوى الشريـف ما هو إلا أمر عادى وليس من العبادة فى شيء وهذا ما نعتقده وندين الله تعالى به .

وليتصور من شاء ما يتصور لأن الإنسان هو المصدق فيما يقوله عن نفسه وحقيقة معتقده لا غيره .

ونحن نقول فى كل محفل ومجمع ومناسبة : إن هذا الاجتماع بهذه الكيفية أمر عادى ليس من العبادة فى شيء فهل يبقى بعد هذا إنكار لمنكر وإعتراض لمعتـرض لكن المصيبة الكبرى فى عدم الفهم ولهذا يقول الإمام الشافعى :

ما جادلت عالما إلا غلبته ولا جادلت جاهلا إلا غلبنى . إن أقـل الطـلاب علما يعلم الفرق بين العادة والعبـادة وحقيقـة هذه وتـلك فإذا قال القائـل : هذه عبادة مشروعة بكيفيتها نقول له : أيـن الدليـل ؟ وإذا قال : هذه عادة نقـول له : إصنع ما تشاء لأن الخطر كل الخطر والبلاء الذى نخشاه كلنـا هو أن يلـبس ثوب العبـادة لفعـل مبتـدع غير مشروع بل من اجتهاد البـشر ، وهـذا ما لا نرضاه بل نحاربه ونحذر منه ، والحاصل أن الاجتماع لأجل المولد النبـوى أمـر عادى ولكنـه من العـادات الخيرة الصالحة التـى تشتمـل على منافـع كثيرة وفوائـد تعـود على النـاس بفضل وفير لأنها مطلوبة شرعا بأفرادهـا ، ومـن التصورات الفـاسدة التـى تقـع فى أذهان بعض الناس هى أنهم يظنون أننا ندعو إلى الإحتفـال بالمولـد فى ليـة مخصوصة

دون سائر العام وما درى هذا المغفل أن الاجتماعات تعقد لأجل المولد النبوى فى مكة والمدينة بشكل منقطع النظير فى كل أيام العام وفى كل مناسبة تحدث يفرح بها صاحبها ولا يكاد يمر يوم أو ليلة بمكة والمدينة إلا ويحصل فيه اجتماع للمولد النبوى علم هذا من علمه وجهله من جهله ، فمن زعم أننا نذكر النبى ﷺ فى ليلة واحدة فقط ونهجره ونغفل عنه ثلاثمائة وتسعة وخمسين ليلة فقد افترى إثما عظيما وكذب كذبا مبينا ، وهذه مجالس المولد النبوى تنعقد بفضل الله تعالى فى جميع ليالى السنة ولا يكاد يمر يوم أو ليلة إلا وهنا مجلس وهناك محفل ، ونحن ننادى بأن تخصيص الاجتماع بليلة واحدة دون غيرها هو الجفوة الكبرى للرسول ﷺ ، ولذلك فإن الناس بحمد الله يستجيبون لهذا النداء بكل إقبال ورغبة .

ومن زعم بأننا نخصص الاحتفال به ﷺ فى المدينة المنورة فهو جاهل أو متجاهل عن الحقيقة ، وما لنا إلا أن ندعو الله له بأن ينور بصيرته ويكشف عنه حجاب الجهل ليرى أن ذلك ليس خاصا بالمدينة المنورة ولا بليلة مخصوصة فى شهر مخصوص ، بل هو عام فى الزمان والمكان .

وليس يصح فى الأذهان شىء :: إذا احتاج النهار إلى دليل

والحاصل أننا لا نقول بسنية الاحتفال بالمولد المذكور فى ليلة مخصوصة بل من اعتقد ذلك فقد ابتدع فى الدين لأن ذكره ﷺ والتعلق به يجب أن يكون فى كل حين ويجب أن تملأ به النفوس ، نعم : إن فى شهر ولادته يكون الداعى أقوى لإقبال الناس وإجتماعهم وشعورهم الفياض بارتباط الزمان بعضه ببعض فيتذكرون بالحاضر الماضى وينتقلون من المشاهد إلى الغائب .

وإن هذه الاجتماعات ، هى وسيلة كبرى للدعوة إلى الله وهى فرصة ذهبية ينبغى أن لا تفوت ، بل يجب على الدعاة والعلماء أن يذكروا الأمة بالنبى ﷺ بأخلاقه وآدابه وأحواله وسيرته ومعاملته وعباداته ، وأن ينصحوهم ويرشدوهم إلى الخير والفلاح ويحذروهم من البلاء والبدع والشر والفتن .

وإننا دائما بفضل الله ندعو إلى ذلك ونشارك فى ذلك ونقول للناس : ليس المقصود من هذه الاجتماعات مجرد الاجتماعات والمظاهر بل إن هذه وسيلة شريفة إلى غاية شريفة وهى كذا وكذا ومن لم يستفد شيئا لدينه فهو محروم من خيرات المولد الشريف ، ولا نحب أن نطيل بذكر الأدلة والمسوغات التى استنبطناها فى هذا الموضوع ، إذ لنا رسالة خاصة لذلك بعنوان : حول الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ، غير أننا سنخص قصة عتق ثويبة بالذكر لكثرة الكلام حولها :

* * *

قصة عتق ثويبة

يذكر العلماء فى كتب الحديث والسيرة قصة عتق أبى لهب لجاريته ثويبة لما أخبرته بولادة النبى ﷺ وأن العباس بن عبد المطلب رأى أبا لهب فى النوم بعد وفاته فسأله عن حاله فقال : لم ألق خيرا بعدكم غير أنى سقيت فى هذه بعتاقتى ثويبة وإنه ليخفف علىَّ فى كل يوم الأثنين .

قلت : هذا الخبر رواه جملة من أئمة الحديث والسير مثل الإمام عبدالرزاق الصنعانى والإمام البخارى والحافظ ابن حجر والحافظ ابن كثير والحافظ البيهقى وابن هشام والسهيلى والحافظ البغوى وابن الديبع والأشخر والعامرى ، وسأبين ذلك بالتفصيل .

فأما الإمام عبدالرزاق الصنعانى فقد رواه فى المصنف (ج ٧ ص ٤٧٨) ، وأما الإمام البخارى فقد رواه فى صحيحه بإسناده إلى عروة بن الزبير مرسلا فى كتاب النكاح باب ﴿وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم﴾ ، وأما ابن حجر فقد ذكره فى الفتح وقال : إنه رواه الاسماعيلى من طريق الذهلى عن أبى اليمان ، ورواه عبدالرزاق عن معمر وقال : وفى الحديث دلالة على أن الكافر قد ينفعه العمل الصالح فى الآخرة ، لكنه مخالف لظاهر القرآن ، قال الله تعالى : ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ ، وأجيب أولا بأن الخبر مرسل أرسله عروة ولم يذكر من حدثه به ، وعلى تقدير أن يكون موصولا فالذى فى الخبر رؤيا منام فلا حجة فيه ،

ولعل الذى رآها لم يكن إذ ذاك أسلم بعد فلا يحتج به ، و سلم مخصوصا من ذلك دليل قصة أبى طالب كما تقدم أنه خفف عنه فنقل من الغمرات إلى الضحضاح ، وقال البيهقى : ما ورد من بطلان الخير للكفار فمعناه أنهم لا يكون لهم التخلص من النار ولا دخول الجنة ، ويجوز أن يخفف عنهم من العذاب الذى يستوجبونه على ما ارتكبوه من الجرائم سوى الكفر بما عملوه من الخيرات .

وأما عياض فقال : انعقد الاجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم ولا يثابون عليها بنعيم ولا تخفيف عذاب ، وإن كان بعضهم أشد عذابا من بعض . قلت : وهذا لا يرد الاحتمال الذى ذكره البيهقى ، فإن جميع ماورد من ذلك فيما يتعلق بذنب الكفر ، وأما ذنب غير الكفر فما المانع من تخفيفه ؟ وقال القرطبى : هذا التخفيف خاص بهذا وبمن ورد النص فيه ، وقال ابن المنير فى الحاشية : هنا قضيتان : إحداهما محال وهى اعتبار طاعة الكافر مع كفره ، لأن شرط الطاعة أن تقع بقصد صحيح ، وهذا مفقود من الكافر .

الثانية : إثابة الكافر على بعض الأعمال تفضلا من الله تعالى وهذا لا يحيله العقل ، فإذا تقرر ذلك لم يكن عتق أبى لهب لثويبة قربة معتبرة ، ويجوز أن يتفضل الله عليه بما شاء كما تفضل على أبى طالب ، والمتبع فى ذلك التوقيف نفيا وإثباتا .

قلت : وتتمة هذا أن يقع التفضيل المذكور إكراما لمن وقع من الكافر البر له ونحو ذلك . والله أعلم . اهـ (فتح البارى ج ٩ ص ١٤٥)

وأما الحافظ ابن كثير فقد رواه فى البداية والنهاية ، وقال معلقا : لأنه لما بشرته ثويبة بميلاد ابن أخيه محمد بن عبدالله أعتقها من ساعته ، فجوزى بذلك لذلك . اهـ من السيرة النبوية لابن كثير (ج ١ ص ٢٢٤) .

وأما الحافظ عبدالرحمن بن الديبع الشيبانى صاحب جامع الأصول فقد رواه فى سيرته وقال معلقا : «قلت : فتخفيف العذاب عنه إنما هو كرامة للنبى ﷺ كما خفف عن أبى طالب لا لأجل العتق ، لقوله تعالى : ﴿وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾) . اهـ من حدائق الأنوار فى السيرة (ج ١ ص ١٣٤) .

وأما الحافظ البغوى فقد رواه فى شرح السنة (ج ٩ ص ٧٦) .

وأما الإمام الأشخر فقد رواه فى بهجة المحافل ، وقال شارحه العامرى : قيل : هذا خاص به إكراما له ﷺ كما خفف عن أبى طالب بسببه ، وقيل : لا مانع من تخفيف العذاب عن كل كافر عمل خيرا . اهـ من شرح البهجة (ج ١ ص ٤١).

وأما السهيلى فقد رواه فى الروض الأنف فى شرح السيرة النبوية لابن هشام وقال بعد نقل الخبر : فنفعه ذلك وهو فى النار كما نفع أخاه أباطالب ذبه عن رسول الله ﷺ فهو أهون أهل النار عذابا ، وقد تقدم فى باب أبى طالب أن هذا النفع إنما هو نقصان من العذاب ، وإلا فعمل الكافر كله محبط بلا خلاف أى : لا يجده فى ميزانه ولا يدخل به جنة . اهـ الروض الأنف (ج ٥ ص ١٩٢) .



حاصل البحث

والحاصل أن هذه القصة مشهورة فى كتب الأحاديث وفى كتب السير ، ونقلها حفاظ معتبرون معتمدون ، ويكفى فى توثيقها كون البخارى نقلها فى صحيحه المتفق على جلالته ومكانته ، وكل ما فيه من المسند صحيح بلا كلام .

حتى المعلقات والمرسلات فإنها لا تخرج عن دائرة المقبول ولا تصل إلى المردود ، وهذا يعرفه أهل العلم المشتغلون بالحديث والمصطلح والذين يعرفون معنى المعلق والمرسل ، ويعرفون حكمهما إذا جاءت فى الصحيح .

فانظر إن شئت ذلك فى كتب المصطلح كألفية السيوطى والعراق وشروحها وتدريب الراوى فإنهم تعرضوا لهذه المسألة وبينوا قيمة ما فى الصحيح من المعلق والمرسل وأن ذلك مقبول عند المحققين .

ثم إن هذه المسألة من المناقب والفضائل والكرامات التى يذكرها العلماء فى كتب الخصائص والسير ويتساهلون فى نقلها ولا يشترطون فيها الصحيح بالمعنى المصطلح عليه ، ولو ذهبنا إلى اشتراط هذا الشرط الشاذ لما أمكن لنا ذكر شىء من سيرة النبى ﷺ قبل البعثة وبعد البعثة مع أنك تجد كتب الحفاظ الذين عليهم العمدة وعلى صنيعهم المعول ، والذين منهم عرفنا مايجوز وما لا يجوز ذكره من الحديث الضعيف نجد كتبهم مملوءة بالمقطوعات والمراسيل و ما أخذ عن الكهان وأشباههم فى خصائص رسول الله ﷺ لأن ذلك مما يجوز ذكره فى هذا المقام .

أما قول من قال : ان هذا الخبر يعارض قوله : ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ فهذا قول مردود بما قاله العلماء ونقلناه عنهم سابقا .

وتحرير الكلام فى هذا المقام هو أن الآية تدل على أن أعمال الكفار لا ينظر إليها وليس فيها أنهم سواء فى العذاب ، وأنه لا يخفف عن بعضهم العذاب كما هو مقرر عند العلماء .

وكذلك الاجماع الذى حكاه عياض ، فإنه فى عموم الكفار وليس فيه أن الله تعالى لا يخفف العذاب عن بعضهم لأجل عمل عملوه ولهذا جعل الله تعالى جهنم دركات ، والمنافقون فى الدرك الأسفل منها .

ثم إن هذا الاجماع يرده النص الصحيح ، ولا يصح إجماع مع مخالفة النص كما هو معلوم للطلبة .

وذلك إنه ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ سئل : هل نفعت أبا طالب بشىء فإنه كان يحوطك ويدافع عنك ؟ فقال : وجدته فى غمرات من النار ، فأخرجته إلى ضحضاح منها ، الحديث .

فها هو أبو طالب قد نفعه دفاعه عن النبى ﷺ وأخرجه النبى ﷺ من أجل ذلك من غمرات النار إلى ضحضاح منها .

فالتخفيف عن أبى لهب من هذا الباب أيضا لا منكر فيه ، والحديث يدل على أن الآية المذكورة فيمن لم يكن لهم عمل يوجب التخفيف . وكذلك الإجماع.

وفى حديث أبى طالب المذكور دلالة وأى دلالة على أن النبى ﷺ يتصرف الآن وقبل يوم القيامة فى أمور الآخرة ويشفع لمن تعلق به ودافع عنه .

وأما قول من قال : إن هذا الخبر رؤيا منام لا يثبت بها حكم ، فإن هذا القائل ـ هداه الله للصواب ـ لا يفرق بين الأحكام الشرعية وغيرها .

أما الأحكام الشرعية فإن الخلاف واقع بين الفقهاء : هل يجوز أخذ الأحكام وتصحيح الأخبار برؤيا رسول الله ﷺ فى المنام أم لا ؟ .

وأما غيرها فإن الإعتماد على الرؤيا فى هذا الباب لا شىء فيه مطلقا . وقد اعتمد عليها الحفاظ وذكروا ما جاء فى رؤيا أهل الجاهلية قبل بعثة رسول الله ﷺ المنذرة بظهوره ، وأنه سيقضى على الشرك وما هم عليه من فساد . وكتب السنة مملوءة بهذا .

وفى مقدمتها كتاب دلائل النبوة وعدوها من الارهاصات التى لا مانع من الاستدلال فى شأنها بالرؤيا ، ولو لا ذلك لما ذكروها .

فقول القائل فى شأن رؤيا العباس : إنها ليست بحجة ولا يثبت بها حكم ولا خبر ، خروج عن عمل الأئمة من الحفاظ وغيرهم ، والمراد به التهويل لا غير ، وما هكذا يكون شأن الباحث عن الحق والأمر لله .

وأما من قال : إن الرائى والمخبر هو العباس فى حال الكفر ، والكفار لا تسمع شهادتهم ولا تقبل أخبارهم فإن هذا قول مردود ، لا رائحة للعلم فيه ، وهو باطل ، ذلك لأنه لم يقل أحد أن الرؤيا من باب الشهادة مطلقا ، وإنما هى بشارة لا غير فلا يشترط فيها دين ولا إيمان ، بل ذكر الله تعالى فى القرآن معجزة يوسف عليه السلام عن رؤيا ملك مصر وهو وثنى لا يعرف دينا سماويا مطلقا ، ومع ذلك جعل الله تعالى رؤيته المنامية من دلائل نبوة يوسف عليه السلام وفضله وقرنها بقصته ، ولو كان ذلك لا يدل على شيء لما ذكرها الله تعالى لأنها رؤيا مشرك وثنى لا فائدة فيها لا فى التأييد ولا فى الإنكار .
ولهذا ذكر العلماء أن الكافر يرى الله تعالى فى المنام ويرى فى ذلك ما فيه إنذار له وتوبيخ وتقريع .

والعجب كل العجب من قول القائل : إن العباس رأى ذلك فى حال كفره ، والكفار لا تسمع شهادتهم ولا تقبل أخبارهم ، فإن هذا القول يدل على عدم المعرفة بعلم الحديث إذ المقرر فى المصطلح أن الصحابى أو غيره إذا تحمل الحديث فى حال كفره ثم روى ذلك بعد إسلامه أخذ ذلك عنه ، وعمل به .
وانظر أمثلة ذلك فى كتب المصطلح لتعرف بعد صاحب هذا القول عن العلم .
وإنما الهوى هو الذي حمل المعترض على الدخول فيما لا يتقنه .

* * *

الخاتمة

وبعد فهذا ما تيسر لنا كتابته عن هذه المسائل التى أحببنا أن نبين مفهومنا الذى نراه فيها .

فإن كان ذلك صوابا فالحمد لله ، وإن كان غير ذلك فإننى بشر أصيب وأخطىء ، وكل منا يؤخذ منه ويرد عليه إلا السيد المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى . وأعوذ بالله من المراء والجدال والخصام ، وأعوذ بالله من علم لا ينفع ودعاء لا يسمع وقلب لا يخشع ، وأعوذ بالله من كل سوء وشر وبلاء وشرك وبدعة ، وأبرأ مما تبرأ منه رسول الله ﷺ ، وأقر بما أقر به .

وأسأل الله أن يثبتنى عليه حتى أموت عليه مسلما موحدا مؤمنا بالله فى بلاد الله وبين المؤمنين الموحدين الذين يشهدون أن لا إله إلا الله محمد رسول الله منذ أن جاء بها محمد بن عبدالله ﷺ ، وسار على ذلك أصحابه وأتباعه وأتباعهم من أئمة السلف الصالح رضوان الله عليهم اجمعين ، فى ظل أئمة التوحيد ودعاة الخير من حكامنا الأماجد وفقهم الله لنصرة الحق وأخذ بأيديهم إلى خير البلاد والعباد ، والحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وكتب ذلك بقلمه وقاله بفمه محمد بن علوى بن عباس المالكى مذهبا ، السلفى عقيدة المكى موطنا ، الحسنى نسبا عفا الله عنه ، خادم العلم بالحرمين الشريفين . تحريرا بمكة المكرمة فى ربيع أول سنة ١٤٠٤ من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

تم بحمد الله تعالى ..

* * *

محتوى الكتاب

الموضـــوع | الصفحة

الموضـــــــوع الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

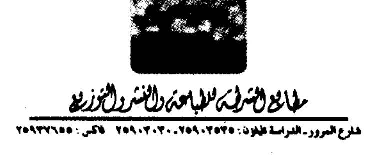
رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية
١٠٥٠١/ ١٩٩٣

الترقيم الدولى
I. S. B. N
977 - 5259 - 18 - 5

دار جوامع الكلم

15 000 150

مفاهيم يجب أن تصحح



شارع المرور ـ الدراسة تليفون : ٢٥٩٠٢٥٢٥ ـ ٢٥٩٠٢٠٢٠ فاكس : ٢٥٩٣٧٦٥٥